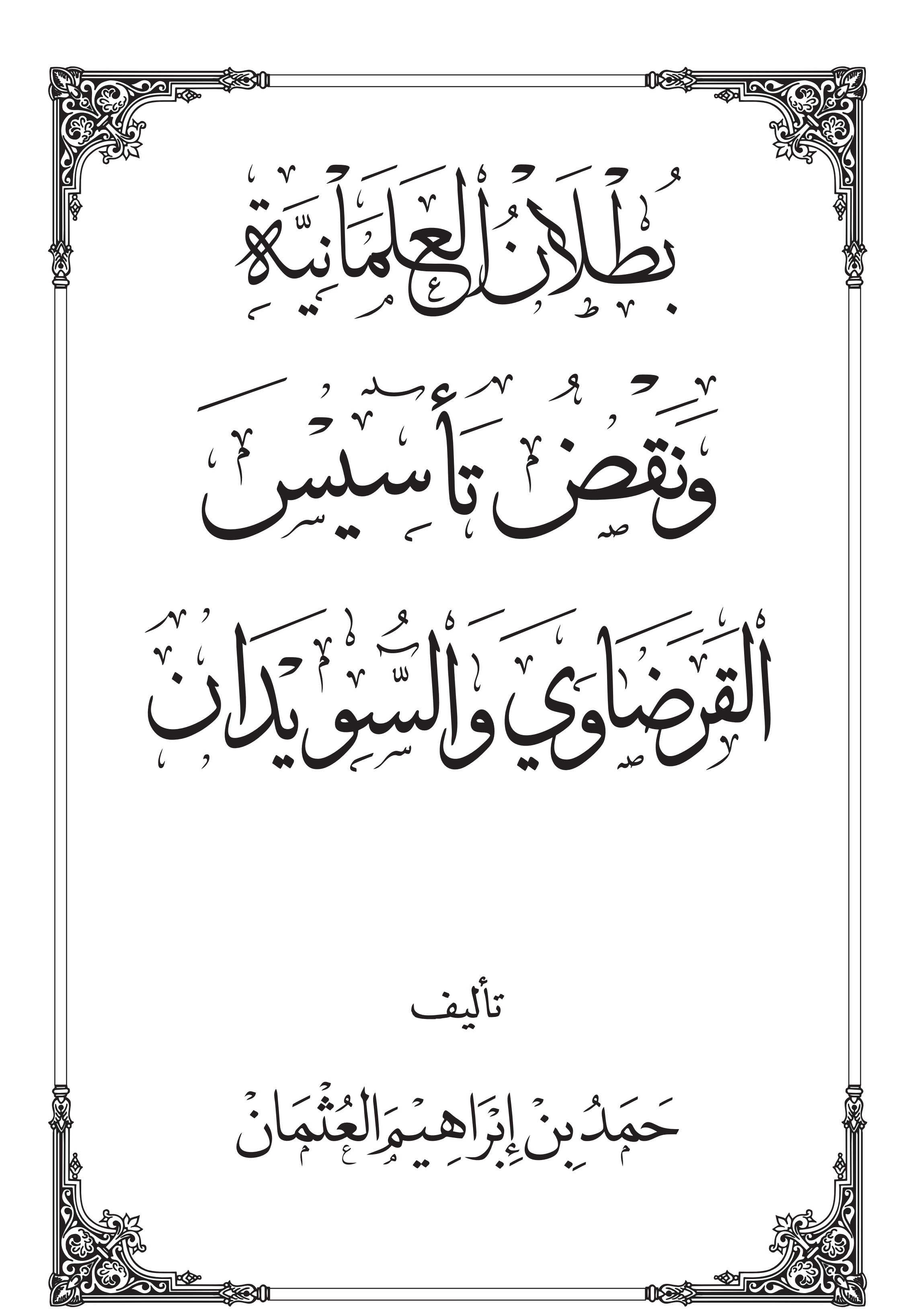


بطلان العلمانية

ونقض تأسيس

القرضاوي والسويدان

تأليف

حمد بن إبراهيم العثمان


بسم الله الرحمن الرحيم

دليل الموضوعات



دليل الموضوعات



المقدمة



المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فإن الأمة الإسلامية تعيش خطرا حقيقيا يستهدف إسلامها ودينها وعقيدتها، ويستهدف كذلك كيانها وسيادتها واستقلالها وثرواتها، وهذا الإرهاب العظيم والاحتلال العسكري والعدوان الديني والثقافي بالإكراه لفرض النظام الغربي الديموقراطي يُفرض على الأمة الإسلامية فرضا وإكراها باسم «الحرية»، فلم تر الأمة الإسلامية أكذوبة عظمى كهذه التي يمارسها الأمريكيون وبمعاونة الأوروبيين، وأذنابهم في ديار المسلمين ومن جذبوه إليهم من خونة الدعاة والجهال المغرر بهم من أبناء المسلمين.

وأصبح في خليجنا العربي اليوم «أكاديمية التغيير»، وتولى إدارة هذه الأكاديمية خليط من اليهود والنصارى والإخوان المسلمين والقطبيين وبدعم من إحدى حكومات الخليج، فمن هؤلاء الأشرار «عزمي بشارة» يهودي الهوية نصراني الديانة، ويوسف القرضاوي وصهره شريف مرسي، وسلمان العودة، وطارق السويدان.

وشرور هذه الأكاديمية الخبيثة واضحة المعالم فهي تستهدف إفساد عقيدة المسلمين عموما حيث يوطيء هؤلاء لهيمنة العلمانية على منهج

وحياة المسلمين، ويسعى هؤلاء لإسقاط الإسلام - لا مكن الله لهم - من دولة الإسلام التي تطبقه «المملكة العربية السعودية» حيث قال القرضاوي: «الحرية قبل الشريعة».

ومن مقاصد «أكاديمية التغيير» الشريرة تهيئة المجتمع لقبول الردة وعقيدة التثليث الشركية النصرانية، حيث رخّص السويدان في الردة عن الإسلام بدعوى الحرية، فما أهون الردة على «السويدان»، وكل مسلم يعرف كيف أجمع الصحابة على قتال المرتدين، وكل مسلم سوي الفطرة سليم العقل صحيح الاعتقاد يستحيل أن يتفوه بهذا الكلام الذي هو «ردة محضة»، والعجيب أن داعية الردة السويدان يمجّده طارق الحبيب ويراه مجددا، ويمجّده كذلك سلمان العودة، وهذا من أسباب افتتان ضعاف العقول من المسلمين من أتباع العودة والحبيب بالضلالات والإفساد الذي يسعى لإقامة أركانه مؤسسو أكاديمية التغيير.

والإخوان المسلمون تعاضدوا مع العلمانيين في صناعة أكاديمية التغيير وصار دعاة العلمانية يستفتحون على المسلمين بـ «الدولة المدنية»، وكأننا لا نعيش في دولة مدنية، وإنما غرضهم بذلك إزاحة تطبيق الشريعة، وفصل الدين عن الدولة ومنع حكم الإسلام، وإقامة دولة علمانية على نمط الغرب الكافر.

ومدنية دولة الإسلام صنعها نبينا محمد ﷺ وخلفاء الإسلام، فكان للمسلمين بيت المال «وزارة المالية»، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرعى الأيتام والأرامل والضعفاء وينفق عليهم «وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل»، والوليد بن عبد الملك أغنى المجذومين عن السؤال «رعاية ذوي الاحتياجات الخاصة[1]»، وهكذا.

هذه الغارة الشديدة على عقيدة الإسلام تستهدف سيادته وأن يكون طوع الغرب الكافر يأتمر بأمره وينتهي بنهيه فيجب على المسلمين حراسة الدين وتحذير المسلمين من هذا الخطر العظيم، من أجل هذا كتبت هذا المصنّف في بيان بطلان العلمانية، ونقض تأسيس القرضاوي والسويدان، والله حافظ وناصر دينه، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم.

والحمد لله رب العالمين

كتبه

حمد بن إبراهيم العثمان

---

(١) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ص ٨٦

الباب الأول

خطر الغزو الثقافي والحريات



الإسلام مصدر قوتنا

الإسـلام مصـدر قوتنـا بلاريب، فلـم يكن للعرب شـأن قبل الإسـلام، فبعـث الله فيهم رسـولا من أنفسـهم يعلمهم الكتـاب والحكمة ويزكيهم، ويخرجهـم مـن الظلمـات إلى النـور، فآمنوا باللـه ربا وبمحمـد ﷺ نبيا ورسـولا، وبالإسـلام دينا، فعمرت قلوبهم بالتوحيد وزاد الإسـلام قوتهم قوة، فاسـتعمل الله شجاعتهم وفروسيتهم في الجهاد في سبيل الله ففتحوا الأمصـار، ونصروا الله فنصرهم، وصارت لهم الرفعة والظهور على أنحاء المعمورة تحقيقا لوعد الله ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]، وقـال تعالـى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣].

والآن يريد أهل الشـر والمتعالمون كالسـويدان والقرضاوي أن يسلبونا سـبب قوتنا ومصدر عزتنا، وهو هذا الإسـلام، فأدخل علينا دعاة التغريب باسـم الثقافـة الإلحـاد، والعلمانيـة، والإشـتراكية، والإباحية، وأشـغلونا بالسفاسـف والملهيات، لأن نكون موتى الأحياء، بـلا مقومات حياة، ولا ديـن، ولا عـزّة، ولا كرامـة، ولا رضـى رب العالمين، فنكون لقمة سـائغة للطامعيـن فـي ديـار المسـلمين، فاحذروا أبناء الإسـلام حقيقـة ما تنطوي عليـه الثقافة الغربية، وتمسـكوا بدينكم وانصروا الله بالتمسـك بهذا الدين

ينصركم، ولا تضيعوه فيذهب عزكم وتسلب كرامتكم، قال أبو الدرداء رضي الله عنه «ما أهون الخلق على الله إذا ضيّعوا دينه».

قال الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله[١]: «وقد أمر الله سبحانه عباده المؤمنين أن يعدّوا للكفار ما استطاعوا من القوة، وأن يأخذوا حذرهم، كما في قوله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴿٦٠﴾﴾[الأنفال: ٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ ﴿٧١﴾﴾[النساء: ٧١]، وذلك يدل على وجوب العناية بالأسباب والحذر من مكائد الأعداء، ويدخل في ذلك جميع أنواع الإعداد المتعلقة بالأسلحة والأبدان، كما يدخل في ذلك إعداد جميع الوسائل المعنوية والحسية وتدريب المجاهدين على أنواع الأسلحة وكيفية استعمالها، وتوجيههم إلى كل ما يعينهم على جهاد عدوهم والسلامة من مكائده في الكر والفر، والأرض، والجو، والبحر، وفي سائر الأحوال، لأن الله سبحانه أطلق الأمر بالإعداد وأخذ الحذر، ولم يذكر نوعا دون نوع، ولا حالا دون حال، وما ذلك إلا لأن الأوقات تختلف، والأسلحة تتنوع، والعدو يقل ويكثر، ويضعف ويقوى، والجهاد قد يكون ابتداءً، وقد يكون دفاعا، فلهذه الأمور وغيرها أطلق الله سبحانه الأمر بالإعداد وأخذ الحذر ليجتهد قادة المسلمين وأعيانهم ومفكروهم في إعداد ما يستطيعون من القوة لقتال أعدائهم وما يرونه من المكيدة في ذلك،

---

(١) مجموع الفتاوى البازية (٢/ ٤٤١-٤٤٥)

وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال «الحرب خدعة»، ومعناه: أن الخصم قد يدرك من خصمه بالمكر والخديعة في الحرب مالا يدركه بالقوة والعدد، وذلك مجرّب معروف، وقد وقع في يوم الأحزاب من الخديعة للمشركين واليهود والكيد لهم على يد نعيم بن مسعود رضي الله عنه بإذن النبي ﷺ ما كان من أسباب خذلان الكافرين وتفريق شملهم واختلاف كلمتهم، وإعزاز المسلمين ونصرهم عليهم، وذلك من فضل الله ونصره لأوليائه ومكره لهم، كما قال عز وجل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠]، ومما تقدم يتضح لذوي البصائر أن الواجب امتثال أمر الله والإعداد لأعدائه وبذل الجهود في الحيطة والحذر، واستعمال كلما أمكن من الأسباب المباحة الحسية والمعنوية، مع الإخلاص لله والاعتماد عليه والاستقامة على دينه، وسؤاله المدد والنصر، فهو سبحانه وتعالى الناصر لأوليائه والمعين لهم إذا أدوا حقه، ونفذوا أمره وصدقوا في جهادهم وقصدوا بذلك إعلاء كلمته وإظهار دينه، وقد وعدهم الله بذلك في كتابه الكريم وأعلمهم أن النصر من عنده ليثقوا به ويعتمدوا عليه مع القيام بجميع الأسباب، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد: ٧]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقال عز وجل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ

ﭐلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١]، وقال عز وجل ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال سبحانه: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ٩ - ١٠].

وقد سبق في هذا المعنى آية سورة الصف، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ - ١٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة، ولما قام سلفنا الصالح بما أمرهم الله به ورسوله ﷺ وصبروا وصدقوا في جهاد عدوهم نصرهم الله وأيدهم وجعل لهم العاقبة مع قلة عددهم وعدتهم وكثرة أعدائهم، كما قال عز وجل: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال عز وجل: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى

ﵟٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٦٠ﵞ [آل عمران: ١٦٠]، ولما غيّر المسلمون وتفرقوا، ولم يستقيموا على تعاليم ربهم، وآثر أكثرهم أهواءهم أصابهم من الذل والهوان وتسلط الأعداء مالا يخفى على أحد، وما ذاك إلا بسبب الذنوب والمعاصي، والتفرق والاختلاف، وظهور الشرك والبدع والمنكرات في غالب البلاد، وعدم تحكيم أكثرهم الشريعة، كما قال الله سبحانه: ﵟذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣ﵞ [الأنفال: ٥٣]، وقال عز وجل: ﵟظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١ﵞ [الروم: ٤١]، ولمّا حصل من الرماة ما حصل يوم أحد من النزاع والاختلاف والإخلال بالثغر الذي أمرهم النبي ﷺ بلزومه، جرى بسبب ذلك على المسلمين من القتل والجراح والهزيمة ما هو معلوم، ﵟأَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ﵞ [آل عمران: ١٦٥]، ولو أن أحدا يسلم من شر المعاصي وعواقبها الوخيمة لسلم رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام يوم أحد، وهم خير أهل الأرض، ويقاتلون في سبيل الله، ومع ذلك جرى عليهم ما جرى بسبب معصية الرماة التي كانت عن تأويل لا عن قصد للمخالفة لرسول الله ﷺ والتهاون بأمره، ولكنهم لما رأوا هزيمة المشركين ظنوا أن الأمر قد انتهى، وأن الحراسة لم يبق لها حاجة، وكان الواجب أن يلزموا الموقف حتى يأذن لهم النبي ﷺ بتركه ولكنّ الله سبحانه قد قدّر ما قدّر، وقضى ما قضى لحكمة بالغة وأسرار

عظيمـة، ومصالح كثيرة قد بيّنها في كتابه سـبحانه وعرفها المؤمنون، وكان ذلك من الدلائل على صدق رسـول الله ﷺ، وأنه رسـول الله ﷺ حقا، وأنه بشـريصيبه مايصيب البشـر من الجراح والآلام ونحو ذلك، وليس بإله يعبـد، وليـس مالكا للنصر، بل النصر بيد الله سـبحانه ينزله على من يشـاء، ولا سبيل إلى استعادة المسلمين مجدهم السالف واستحقاقهم النصر على عدوهم إلا بالرجوع إلى دينهم والاسـتقامة عليه وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتحكيم شرع الله سبحانه في أمورهم كلها، واتحاد كلمتهم على الحق، وتعاونهم على البر والتقوى، كما قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»، **وهذا قول جميع أهل العلم**، والله سبحانه إنما أصلح أول هذه الأمة باتباع شرعه، والاعتصام بحبله، والصدق في ذلك، والتعاون عليه، **ولا صلاح لآخرها إلا بهذا الأمر العظيم**».

الصحابة رضي الله عنهم في غزوة أحد عصوا الرسول ﷺ ونزلوا من جبل الرماة فهزمـوا، فكيـف لا نهزم ونحـن تركنا جبالا من التكاليـف الإلهية، قال ابن القيـم رحمه الله[(١)]: «وإنما المؤمنون يصدر منهم مـن المعصية والمخالفة التي تضـاد الإيمان ما يصير به للكافرين عليهم سـبيل، بحسـب تلك المخالفة، فهم الذين تسببوا إلى جعل السبيل عليهم، كما تسبّبوا إليه يوم أحد بمعصية الرسول ﷺ ومخالفته».

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٩٥-١٩٦)

ولا أحـد يسـتطيع أن ينكر حقيقة أن الأمة إنمـا ضعفت بتضييع دينها، الـذي هـو مصدر قوتها، فإنها إذا لم ينصرها الله لا ناصر لها، قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «فلما ظهر النفاق والبدع والفجور المخالـف لدين الرسـول ﷺ سـلطت عليهـم الأعداء، فخرجـت الروم النصارى إلى الشام والجزيرة مرة بعد مرة، وأخذوا الثغور الشامية شيئا بعد شيء، إلى أن أخذوا بيت المقدس في أواخر المائة الرابعة.

وبعد هذا بمدة حاصروا دمشق، وكان أهل الشام بأسوأ حال بين الكفار النصـارى والمنافقين الملاحدة، إلى أن تولى نور الدين الشـهيد، وقام بما قام به من أمر الإسلام وإظهاره، والجهاد لأعدائه».

ومن أعظم ما ضيعت الأمة من أسباب قوتها التي أمرها ربها إعداد القوة خصوصا في الصناعات الحربية فضلا عن الصناعات المدنية مع أننا أسبق وأقوم بذلك من الحضارة العلمانية المعاصرة.

قـال العلامـة عبدالرحمـن السـعدي رحمه الله[٢]: «وأسـباب القـوة المادية معلومة، وليست تحد، وقد أمرنا الله تعالى بإعداد القوة لأعدائنا ما استطعنا،

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٧٨)
(٢) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة (١/ ٢١٦)

فلابد أن نعلِّم أولادنا في كل فرع من فروع القوة ما يمكن، فتعلم طائفة كبيرة في الهندسة الميكانيكية والكهربائية، ونعلم طائفة في الكيمياء، وهلم جرا، في كل علم وفن، ونعمل المعامل لإخراج أنواع الأسلحة والسفن الحربية والطائرات وغير ذلك، ونترك اللعب واللهو والهزل.

وأما القوى المعنوية فهي الإيمان بالله، والتمسك بالفضائل والأخلاق التي تزيدنا ارتباطا بعضنا ببعض، وتجعل الأمة متضافرة تشعر بالعزة القومية والوحدة الوطنية.

وكل من عمل على خلاف هذا النظام مما يضعف القوة كان له جزاء صارم يجعله عبرة بغيره.

وجدير بالأمة الضعيفة، والمسلوبة العزة أن تجدَّ في الأمر، وتنسى اللذائذ الشهوية، حتى تعود لها قوتها بتماسك أجزائها وعلو نفسها، وحتى لا يطمع أحد في استعبادها، أما الطابع الذي هي عليه اليوم فيجب أن ينبذ ويلقى في الزبالة.

القوة هي التي فيها الحياة، والضعف يؤدي إلى الممات، وجملة القول أن الإسلام الصحيح هو مبعث القوة وأساسها، فمتى تمسكت الأمة به قويت وسادت، وإذا تركته وتساهلت فيه وتهاونت، وقعت في مهاوي الشقاء والضعف والموت».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إن تأخر المسلمين فيما ذكرت ليس ناشئا عن دينهم، فإنه قد علم كل من له أدنى نظر وبصيرة أن دين الإسلام يدعو إلى الصلاح والإصلاح في أمور الدين وفي أمور الدنيا، ويحث على الاستعداد، من تعلم العلوم والفنون النافعة، ويدعو إلى تقوية القوة المعنوية والمادية لمقاومة الأعداء والسلامة من شرهم وأضرارهم، ولم يستفد أحد منفعة دنيوية - فضلا عن المنافع الدينية - إلا من هذا الدين، وهذه تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها: هلم إلى الاشتغال بجميع الأسباب النافعة التي تعليكم وترقيكم في دينكم ودنياكم.

أفبتفريط المسلمين يحتج على الدين؟! إن هذا لهو الظلم المبين!

أليس من قصور النظر، ومن الهوى والتعصب، النظر في أحوال المسلمين في هذه الأوقات التي تدهورت فيها علومهم وأعمالهم وأخلاقهم، وفقدوا فيها جميع مقومات دينهم، وترك النظر إليهم في زهرة الإسلام والدين في الصدر الأول، حيث كانوا قائمين بالدين، مستقيمين على الدين، سالكين كل طريق يدعو إليه الدين، فارتقت أخلاقهم وأعمالهم حتى بلغت مبلغا ما وصل إليه، ولن يصل إليه أحد من الأولين والآخرين، ودانت لهم الدنيا من مشارقها إلى مغاربها، وخضعت لهم أقوى الأمم، وذلك بالدين الحق والعدل والحكمة والرحمة، وبالأوصاف الجميلة التي كانوا عليها.

---

(١) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة (١/ ٢٥٢-٢٥٣)

أليس ضعف المسلمين في هذه الأوقات يوجب لأهل البصائر والنجدة منهم أن يكون جدّهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفا، ويقوموا بكل ما في وسعهم، لينالوا المقامات الشامخة، ولينجوا من الهوة العميقة التي وقعوا فيها؟!

أليس هذا من أفرض الفرائض وألزم اللازمات في هذا الحال؟

فالجهاد في حال قوة المسلمين، وكثرة المشاركين فيه له فضل عظيم يفوق سائر العبادات، فكيف إذا كانوا على هذه الحالة التي وصفت؟

فإن الجهاد لا يمكن التعبير عن فضائله وثمراته، ففي هذه الحال يكون الجهاد على قسمين:

أحدهما: السعي في تقويم المسلمين، وإيقاظ هممهم، وبعث عزائمهم، وتعليمهم العلوم النافعة، وتهذيبهم بالأخلاق الراقية، وهذا أشق الأمرين، وهو أنفعهما وأفضلهما.

والثاني: السعي في مقاومة الأعداء، وإعداد جميع العدد القولية والفعلية والسياسية، الداخلية والخارجية، لمناوءتهم والسلامة من شرهم!».

❊ ❊ ❊



الغزو الفكري والثقافي أخطر من الغزو العسكري

الغـزو الفكرى أخطر من الغزو العسـكري بلاريـب، لأن من يقبل ثقافة الكافريـن ينبهر ويفتتن بهـم، ويغتر بهم، ويكون طـوع ثقافتهم وربما صار داعية لها محاميا عنها ينصرها، ويهيء لها أسباب الظهور والإستعلاء على كل ما خالفها ولو كان ما خالفها هوالحق والنور من شريعة رب العالمين.

مـن أجل هذا لا يجوز لنـا التهاون بالأفكار المنحرفـة والعقائد الزائفة، بـل يجب علينا بيـان ما فيها من الضـلال نصحا للعباد، وصيانـة لعقائدهم مـن الفسـاد، وصيانة لأوطاننا مـن هذا الغزو الضال، بـل إن الغزو الفكري والعسـكري متلازمان، فالغزو الفكري والثقافي يوطيء للغزو العسكري، وهـذا تجـده واضحا فـي الواقع العملـي، فإنظر إلـى أفغانسـتان مثلا، فإن الشـيوعيين الأفغـان وطأوا للشـيوعيين الـروس لإحتلال ديارهـم وطلبوا منهـم التدخل العسـكري لحماية العقيـدة الإلحادية الشـيوعية التي تناصر فيها الأفغان والروس.

قـال الإمـام عبدالعزيـز بن بـاز رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «الغـزو الفكري هـو: مصطلح حديـث يعني مجموعة الجهود التي تقوم بها أمة من الأمم للإسـتيلاء على أمـة أخرى، أو التأثير عليهـا حتى تتجه وجهة معينة، وهـو أخطر من الغزو العسـكري، لأن الغزو الفكري ينحو إلى السـرية، وسـلوك المآرب الخفية

(١) الدرر البازية في الرد على الانحرافات العقدية والشرعية ص١٧٤

فـي بـاديء الأمر، **فلا تحـس به الأمة المغزوة ولا تسـتعد لصـده والوقوف فـي وجهه حتى تقع فريسـة له، وتكـون نتيجته أن هذه الأمـة تصبح مريضة الفكر والإحسـاس تحب ما يريده لها عدوها أن تحبه وتكره ما يريد منها أن تكرهه.**

هو داء عضال يفتك بالأمم، ويذهب شـخصيتها، ويزيل معاني الأصالة والقـوة فيهـا، والأمـة التي تبتلى بـه لا تحس بمـا أصابها، ولا تـدري عنه، ولذلك يصبح علاجها أمراً صعبا، وإفهامها سبيل الرشد شيئا عسيرا.

وهـذا الغزو يقع بواسـطة المناهج الدراسـية، والثقافة العامة، ووسـائل الإعلام، والمؤلفات الصغيرة والكبيرة، وغير ذلك من الشؤون التي تتصل بالأمـم، ويرجو العـدو من ورائها صرفها عـن عقيدتها، والتعلـق بما يلقيه إليها، نسأل الله السلامة والعافية».

فخطـر الغزو الفكري على الأمة الإسـلامية مع إفسـاده لمقومات قوتها في دينها وعقيدتها وأخلاقها واضح نرى أن الجهلة إذا قبلوا ثقافة العلمانية والتغريب صاروا دعاة له وقاموا نيابة عن الكفار في إفساد عقائد المسلمين وأخلاقهم، ومحاربة دين الإسلام وشرع الله وحكمه.

قال شـيخنا العلامة محمد العثيميـن رحمه الله[١]: «إن العلم نوع من الجهاد في سـبيل اللـه، لأن طالب العلم يحـاج أعداء الشـريعة بالحق ليدحض به

(١) تفسير سورة الصافات ص٣٧-٣٨

باطلهـم، وأحيانـا يكون الغزو الفكـري أعظم فتكا من الغزو المسـلح كما هو مشـاهد، **فإن الغزو الفكري يدخل كل بيت باختيار صاحب البيت دون أن يجد معارضة أو مقاومة**، لكن الغزو العسـكري لا يدخل البيت، بل ولا يدخل البلد إلا بعد قتال مرير ومدافعة شديدة، فأعداء المسلمين يتسلطون عليهم - أحيانا -بالغزو المسـلح بالقتال، وهذا يمكن التحرز منه، وأحيانا بالغزو الفكري وهو أشـد وأنكى من الغزو المسلح، لأنه يصيب المسلمين في قعر بيوتهم ولا يعلمون به، ربما يخرجون من الإسلام ويمسح الإسلام مـن أفئدتهـم مسـحا كاملا، وهـم لا يشـعرون، لأنهـم يغزون المسـلمين بالشهوات، والقلب إذا انغمس بالشهوات نسي ما خُلق له، نسي عبادة الله، ولم يكن في قلبه تعلق بالله عز وجل، فتجد الإنسان في حال قيامه وقعوده وذهابه ومجيئه لا يفكر إلا بهذه الشـهوات، ولا يسـعى إلا لهذه الشهوات، وكأنه لم يخلق لغيرها.

كذلـك يغذون في نفـوس الضعفاء تعظيـب هؤلاء الكفـار، وأنهم أكثر تقدمـا، وأشـد حضـارة، وأقوم طريق، وما شـابه ذلك فينصهر المسـلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لا شك أنه موجود، وأن كثيرا من البلاد الإسلامية زالت معنوياتها وهلكت شخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري.

إنهم لو غزو البلاد الإسلامية غزوا عسكريا لحلوا بأبدانهم البلاد، ولكن قلـوب الناس نافـرة مبغضة لهم، لكن المشـكل أن يغزوا النـاس بصفاتهم

وأخلاقهم وعقائذهم وهم جالسـون في بيوتهم قد فتحوا لهم القلوب هذا هو المشـكل، وهذا هو الدمار، ولهذا كان الغزو بالسلاح العلمي المستمد من كتاب الله تعالى وسـنة رسـوله ﷺ مسـاويا إن لم يكن أنفع وأبلغ من الغـزو العسـكري، فأنـا أحثكم - بـارك الله فيكم - وأحث نفسـي على أن نعـد العدة لمكافحـة أعدائنا الذين يريـدون أن يغزونا فـي بيوتنا بأفكارهم الخبيثـة، وأخلاقهم الملوثة، وبأفكارهم المنحرفة حتى نحمي المسـلمين من شـر هؤلاء، لأن سـلاحهم أعظم فتكا وأشد من سـلاح الحديد والنار، كما هو ظاهر»

ومن أعظم ما يكون من خطورة الغزو الفكري إنبهار ضعاف العقول من المسلمين بصناعاتهم التي صارت جاذبة لهؤلاء في الإنبهار من علمانيتهم وكفرهم، فكـم اغترّ ضعفاء العقول من المسـلمين بالاشـتراكية وإلحادها والآن بالعلمانيـة، قـال العلامـة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[1]: «صار هذا الترقي الدنيوي الصناعي ضرره كبيرا من وجهين:

أحدهما: أنه صار سببا لإغترار كثير من الخلق، وظنوا بجهلهم أن الترقي الدنيـوي دليـل علـى أن أهله أولى بكل خيـر من غيرهم، وجهلـوا بل ضلوا ضلالا مبينا، فإن الإنسان قد يكون من أمهر الخلق في أمور الطبيعة، وهو من أجهل الخلق في الدين والأخلاق والأمور النافعة في العاجل والآجل.

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين ص٤٦-٤٧

الوجه الثاني: أن هذه المخترعات حيث خلت من روح الدين ورحمته وحكمته، صارت نكبة عظيمة على البشر بما ترتب عليها من الحروب التي لا نظير لها، والقتل والتدمير وتوابع ذلك، وعجز ساستها وعلماؤها أن ينظموا للبشر حياة مستقرة عادلة طيّبة، بل لا يزالون ينتقلون من شقاء إلى شقاء آخر، وهذا أمر حتم لابد منه، وجريان الأحوال يدل عليه، فالخير كله في الدين الصحيح، والشر كله في الإنكار والجحود، والله أعلم».





سذاجة قد تسقط دولنا في الاحتلال

يخطيء من يظن أن الثقافة الغربية مجرد إثراء فكرى محض ليس وراءه بسط عقيدة الغرب وتهيئة أسباب قبولها لدى المسلمين.

فالغرب سقوا الناس عقيدتهم الشركية في آنية الإرساليات والإغاثات والخدمات الطبية، ومجتمعاتنا الخليجية كانت محصنة بعقيدتها فلم يحصل لهم مرادهم، بينما إرتد بعض المسلمين في بعض نواحي أفريقيا لغلبة الجهل فيهم.

ومن تلك الوقائع المهمة التي تبيّن حقيقة قصدهم لتغيير عقيدتنا هو أن المندوب البريطاني في البحرين قدّم لأمير البحرين وقتها الشيخ عبدالله الخليفة رحمه الله كتابا فيه طعون في الإسلام ودعوة للنصرانية، وكان العلامة عبدالعزيز بن حمد المعمّر رحمه الله وقتها قد استوطن البحرين، فطلبه الشيخ عبدالله وأعطاه نسخة كتاب المندوب البريطاني، فقرأه العلامة عبدالعزيز المعمّر رحمه الله وكتب ردا عليه «منحة القريب المجيب في الرد على عبّاد الصليب»، وسلمه للشيخ عبدالله الخليفة رحمه الله الذي قام بتسليم نسخة منه للمندوب البريطاني، فإذا كانت هذه جهودهم في جزيرة العرب مهبط وحي الإسلام ومأرز الإيمان، فجهودهم خارجها أقوى وأجرأ.

قال العلامة محمود محمد شاكر رحمه الله[1]: «فمن تمام الجهل أن يظن المرء أن معنى «التبشير»، هو اقتصار فئة من الرهبان أو القسوس بالعودة إلى دينهم، من حيث هو عقيدة يسمعها المرء فيرضاها أو ينكرها، فهذا أمر باطل أشد البطلان، لا من حيث الواقع فحسب، بل من حيث شرح «المبشرون» أنفسهم معنى «التبشير» عندهم، وهم الممارسون له، وهم لذلك أدرى به.

وأشد بطلانا أن يتصور امرؤ أن «التبشير» بمعزل عن الغزو الحربي، والغزو الاقتصادي، والغزو الفكري والسياسي، وعن محاولة الجنس الأوروبي المسيحي أن يخضع الأمم لسيطرة تدوم مادامت له حضارة.

وأشد بطلانا منهما جميعا أن يخطر ببال أحد أن «التبشير»، قد غاب عن كثير من الدعوات التي قام أصحابها ينادون بضروب من الإصلاح!! في بلاد العرب وفي بلاد الإسلام وفي غيرهما من البلاد، وأنه لم يضع فيهما إصبعه ليحول معنى «الإصلاح» إلى معنى من التدمير والهدم والتحطيم.

ومن صدق النية، واطلع على كتب المبشرين أنفسهم، عرف أن أكثر الحركات السياسية والاجتماعية قد لوثت بمكره الخفي، وأنه لم يغب عن شيء من الحركات الوطنية أو القومية أو الثقافية أو الأدبية أو ما شئت، بل كان من ورائها عاملا يقظا شديد الخفاء بليغ الأثر، يتزيى بكل زي،

---

(١) أباطيل وأسمار ص١٥٠-١٥٣

على اختلاف الأمور، لابسا لكل حالة لبوسها، ومرسلا فيها أعوانه الذين قام على أمرهم دهرا طويلا، حتى لا ينكشف أمرهم للغافلين عن دسائسه المدروسة المخططة الطويلة الأجل.

وكان أخفى طريق عرفه المبشرون، وأقرته سياسة الدول الأوربية الغازية جميعا، هو «طريق التعليم»، لأن حاجة الناس إلى العلم لا تنقطع، وبخاصة في زمن اليقظة بعد الغفوة، هذه واحدة، والأخرى أن التعليم يضمن تنشئة أجيال قد صبغوا على أيدي معلميهم بالصبغة التي يريدها الدهاة من أساتذتهم، وهو أخطر عامل في توجيه أفكار الصغار إلى الجهة التي يريدها المعلم، **فينشأ الطفل ويكبر حتى يصير رجلا، فلا يحس في نفسه أنه قد طبع طبعا جديدا، يراد به استبقاء سيطرة الغازي عليه وعلى بلاده، وتدمير أمته بمسخه هو وأقرانه إلى عبيد يذللون الطريق لأقدام السادة الطغاة من حيث لا يدري أنه عبد مسخر.**

وإليك فقرات دالة من كلام رجل من رؤوس المبشرين، تغني عن الإكثار، هو المسيو شاتليه، يقول في سنة ١٩١١:

«إن إرساليات التبشير الدينية، التي لديها أموال وفيرة، وتدار أعمالها بتدبير وحكمة، تأتي بالنفع الكثير في البلاد الإسلامية، من حيث إنه تثبت الأفكار الأوربية». ثم يقول: «ولا شك في أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية، تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية من نفوس

معتقديها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية فبنشرها اللغات الإنكليزية والألمانية والهولندية والفرنسية، يتحكك الإسلام بصحف أوربا، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي «تأمل هذا جيدا»، وتقضي إرساليات التبشير لُبَانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية، التي لم تحفظ كيانها إلا بعزلتها وانفرادها»، تأمل!!

هذا كلام دارس خبير ينبغي أن تقرأه لفظا لفظا، لأنه تخطيط شامل، في ألفاظ قليلة، ثم قال أيضا ما يعين على كشف الأهداف والأغراض ببيان شاف، إذ يقول:

«إنه مهما اختلفت الآراء في نتائج أعمال المبشرين من حيث خطتهم في «الهدم»، فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم للجهود التي تبذل في سبيل التربية النصرانية، والتقسيم السياسي الذي طرأ على الإسلام (تأمل!)، سيمهد السبل لأعمال المدنية الأوربية، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية، ولن يمضي غير زمن قصير، حتى يكون الإسلام في حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوربية».

وتستطيع أن تجد فائدة عظيمة في تتبع تاريخ التعليم الأجنبي في مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين، في رسالة كتبها الأستاذ جرجس سلامة، وإن كان قد نظر إلى هذا الموضوع من غير الوجه الذي ننظر إليه منه، ولكنه

أقـر مـن مقدمته أن هذا التعليم قـد بدأ في مصر لأغراض دينيـة بحتة، وأنه اتجه نحو الاستقلال والعزلة:

«حتـى أصبح التعليم الأجنبي دولة داخـل الدولة، يوجه النشء الوجهة التـي يراها، ويصبغهم بالصبغة التي يرغبها، دون إشـراف فعلي من الدولة عليـه». ويقـول أيضـا: «بل بلغ الأمـر إلى حد ان اشـتملت بعـض الكتب المسـتعملة على معلومـات خاطئة مضللة عن مصر ذاتهـا، وكان كل ذلك يـدرس لأبنائنـا، مع انعـدام وجـود أي توجيه قومـي يوجه شـبابنا الوجهة الوطنية الصحيحة».

وقـال أيضـا: «وزاد من خطورة كل ذلـك أن جميع المـدارس الأجنبية دون اسـتثناء، قد أسـهمت بنصيب كبير في إضعاف اللغة العربية فهي تلقي فـي خِضَـمِّ الحياة المصريـة كل عام، من ينظـرون إلى غيرهـم من طبقات المتعلميـن فـي المـدارس الحكومية الوطنيـة نظرة متعاليـة، وينظرون إلى اللغة العربية نفس النظرة...».

وقـد آثـرت أن أنقل هذا كلـه هنا، لأنها نظرة مسـيحي[١] دارس إلى هذا التعليـم الأجنبـي، وهو غير مكلّف أن ينظر إليه من حيث ننظر نحن، ولكن سـياق دراسته مفض إلى مثل الذي يفضي إليه المسلم، من حيث استخدام هـذا التعليـم أداة لصبـغ أبناء النـاس بالصبغة التـي يريدها هـؤلاء الدعاة،

---

(١) نصراني

ويوجههم إلى وجهة غير صحيحة في الوطنية أو في غيرها من شؤون الدين والدنيا، وهذا كاف بحمد الله، في إثبات ما نريد من استغلال التعليم لبث أفكار مدمرة في المتعلمين على أيدي هؤلاء المبشرين.

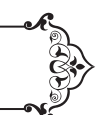
فهذا، وما بيّنته في مقالتي السالفة، يدل على شدة عداوة المبشرين ومدارسهم وتعليمهم للغة العرب، وهذا أمر ظاهر مفهوم، وقد ذكرت في الكلمة السالفة مقالة «وليم جيفورد بلجراف»: (متى توارى القرآن، ومدينة مكة، من بلاد العرب، يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه).

ومفهوم أيضا أن «الحضارة» التي يعنيها حضرة الفاضل[1]، هي المسيحية ذاتها، ومفهوم أيضا أن القرآن لا يتوارى حتى تتوارى لغته.

وزاد القسيس «زويمر» هذا الأمر وضوحا، وبيّن أن اللغة العربية هي الرباط الوثيق الذي يجمع ملايين المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم، وذلك حيث يقول في سنة ١٩٠٦ أو قبلها «إنه لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد، أعظم من عقيدة الدين الإسلامي، الذي اقتحم قارتي آسيا وأفريقيا الواسعتين، وبث في مئتي مليون من البشر، (وهذا تعداد أقل من الحقيقة يومئذ بكثير كما تعلم)، عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية».

***

(١) قاله أبو فهر رحمه الله على سبيل السخرية بالمفسدين



انحطاط الحضارة الغربية



البعض تجذبه صناعة الغرب وتبهره، الصناعة كان السبق فيها للمسلمين في العصر الحديث إلى أيام الخلافة الأندلسية، ومع هذا لا يجوز أن نغفل عن انحطاط الحضارة الغربية عقائديا وأخلاقيا، فالشرك عقيدتهم، والكفر نحلتهم.

أما انحطاطهم الأخلاقي فهو متلازم مع شركهم، شواطيء للعري، وصالات وأندية للقمار، وتقنين وتشريع بإباحة الزنا وأنواع الفواحش، والعياذ بالله.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «إنه لا عاصم من الفوضوية وانطلاق النفوس في أغراضها وشهواتها السبعية البهيمية إلا الاعتصام بالحق الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، من توحيد الله وعبادته، والحث على الأخلاق الجميلة، والتحذير من ضدها، وهؤلاء الملحدون لما أعرضوا وعارضوا الحق الذي جاءت به الرسل، وقاوموه أشد المقاومة بخيلهم ورجلهم وشياطينهم، وفتحوا باب الاستغناء بما تقذف به القلوب من الأفكار التابعة للشهوات النفسية، اندفعت أفكارهم وإراداتهم وشهواتهم إلى شهوات الغي وإعطاء النفوس مناها، ولم تقف عند حد، فاستباحت كل قول وفعل محرم، ووقعوا في الإباحية المحضة، وصارت

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحلدين ص٢٢-٢٣

الحيوانات على نقص أحسن حالا منهم، ثم مع هذا الشر العريض والفساد الكثير زين لهم الشيطان ما كانوا يعملون، فجعلوا يدعون إلى هذه الأخلاق السافلة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس: ٩٦ - ٩٧].

انظروا إلى أعمالهم إن كنتم مرتا بين، وتأملوا آثارهم إن كنتم تعقلون، كم هدموا من محاسن وفضائل، وكم أقاموا من شرور ورذائل، ولا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد، ولا تغتر بما أعطيه هؤلاء الملحدون من إدراكات وقوة ذكاء، وفطنة، وأعمال، فإن الذكاء وتوابعه إذا لم يصرف فيما خلق له العبد، وإذا أنكر صاحبه أوضح الأشياء وأحقها، كان ضررا كبيرا على صاحبه، مآله الهلاك، كما قال تعالى عن أمثال هؤلاء ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فهم عظّموا علومهم التي تبجحوا بها وتكبروا، وقاوموا الرسل، وسخروا بما جاءتهم به الرسل، فانحرفت علومهم إلى الباطل ونزل بهم ما كانوا به يستهزئون».

قال إمام الحرم المكي العلامة عبدالظاهر أبو السمح رحمه الله[1]: «ومن المصائب أن الإفرنج قد أفشوا هذا الميسر بطرق شيطانية غريبة واتخذوا

(١) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة (١/ ١٨٤-١٨٥)

لـه نوادي في المدن مـن أضخم العمارات وأثثوها بأحسـن الأثاث وأفخر الريـاش، وجاءهم السـادة الأغنياء فعكفوا على منضـدة القمار كما يعكف عبـاد العجل على عبادته واحتضنوها كما يحتضن المحب حبيبه، والوالدة ولدها طول الليل، فياليتني كنت في عبادة الله كهؤلاء المسـاكين في عبادة «طاولة القمار»، وياليتهم كانوا أسخياء في سبيل الله أو في مصالح بلادهم وفقرائهم وأقاربهم كسـخائهم في الميسر الذي يغضب الله ويورثهم الفقر والفاقة والذلة والمسـكنة حتى أن أحدهم يقوم آخـر الليل عن «الطاولة»، لا يجد أجرة سيارة ولا حمار، وهو الذي يقال له: سعادة الباشا، وصاحب العزة البك – فيا فرحة الشـيطان به ليلة خسـارته إذ يقول له وقد خسر عمره ومالـه وشـرفه: أهلا بمن لا يفلح، أهلا بذي الطلعة المشـئومة على نفسـه وأهلـه وأمته بمثلـك أنجح في مهمتي، ويكثر أو ليائـي، وأصل إلى بغيتي، ألا تقامر فداك أبي وأمي بكل ما تملك بثيابك التي تستر بها نفسك، وهكذا يعدهم ويمنيهم، وما يعدهم الشيطان إلا غرورا.

ومن المصائب أن الإفرنج وأشياعهم لم يقتصروا على إغواء الكبار، بل أرادوا طبع الصغار على هذا العار، فاخترعوا لهم ألاعيب شتى، وأدخلوها فـي التجارة، وسـموها «اليانصيب» في حلويات وغيرها، ويسـميها الباعة «شـختك بختك»، فيشـتري الأطفال ظرفا مقفلا بقرش طمعا أن يجد به ما يساوي قرشين أو عشرة، فمرة يجد شيئا يفرح به، ومائة مرة لا يجد، وبهذه

الطريقة تنمو في الأطفال جذور الأطماع حتى تكبر معهم، ويعسر تهذيبها وإصلاحها، فإن لم تتدارك الحكومات الحازمة هذا الخطر الوبيل وتعالجة بالأدوية الفعالة حتى تستأصل جذوره قبل نموها، وإلا فبشرها بعذاب إليم في الدنيا والآخرة، وذلك جزاء الظالمين.

وإنا لنأسف جد الأسف كما سمعنا أن الداء سرى إلى النساء، واتخذن لهن نوادي للقمار، وأنه أصبح من المدنية التي يزعم الملحدون أنها مدنية يصلح بها المجتمع، ولم نسمع أن حكومة من الحكومات قامرت ببلد ولا بمملكة ولا بمستعمرة من مستعمراتها، ولا جعلت وزارة لها أسمتها وزارة القمار، ولا مصلحة من المصالح، وديوانا من الدواوين، فيا عجبا من هذه المدنية التي لم يعرفها غير هؤلاء المساكين.

اللهم اهدهم فإنهم لا يعلمون».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ الله مبينا زيف الحضارة الغربية[1]: «مدنيات زائفة مبنية على الكفر والإلحاد، مؤسسة على الجشع والطمع وظلم العباد، فاقدة لروح الإيمان وروحه ورحمته، حضارة ظاهرها مزخرف وباطنها تعمير للوجود وهي حقيقة الهلاك والتدمير؟!

(١) مجموع الفوائد واقتناص الأوابد (ص١٦٠)

فهـل أغنـت عنهـم مدنيتهـم وحضارتهم مـن عـذاب الله لما جـاء أمر ربك؟! وما زادتهم غير تتبيب، فلا يخدعنك ما ترى من المناظر والزخرفة والأقـوال المموهـة والدعاوي والدعايـات الطويلة العريضـة التي أخذت بقلـوب الرعـاع الهمج، فانظـر إلى بواطن الأشـياء، ولا تغرنـك الظواهر، وتأمـل النتائـج الوخيمة، فهل أسـعدتم هـذه الحضارة في دنياهـم التي لا يرجـون حيـاة غيرها فضلا عـن أخراهم؟! ألـم تر أنهم ينتقلون من شـر إلى شرور».





الإسلام دين عبادة وسياسة

العلمانية تقوم على فصل الدين عن الدولة، وتعطيل شرع الله، وحصر الدين في المسجد، وهذا من أسباب إضعاف المسلمين وهزيمتهم، فإن الله ينصر من أقام شرعه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ۝٧﴾ [محمد: ٧]، والله عز وجل أنزل كتابه الهادي لكل خير، وفيه تفصيل أحكام العبيد مع ربهم، وأحكام الخلق مع بعضهم البعض، وأحكام الراعي والرعية، وفيه بيان تفصيل شؤونهم الاجتماعية، والإقتصادية، والعسكرية، والأخلاقية، وكل شيء، قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ۝٣٨﴾ [الأنعام: ٣٨].

وصلاح المسلم في عبادته وقيامه بالتأله لله في المسجد وبيته وعمله سبب لصلاحه في مجتمعه فيكف عن أذاهم ومضارتهم وإفسادهم، فيؤدي عمله على أكمل وجه مخلصا لله عز وجل ناصحا وحافظا لوطنه المسلم، فلا يغشه ولا يخونه ولا يسلط عليه عدوا.

وهذا كله دل عليه قوله تعالى: ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ۝٤٥﴾ [العنكبوت: ٤٥].

فرسالة الإسلام رسالة كاملة في صلاح الوطن والمجتمع والأفراد، وإصلاح أحوال الراعي والرعية.

ومن أسباب صلاح المجتمعات وصلاح الوطن وصلاح أفراده صلاح التشريعات فيه، فيحكم الناس بالشرع، وفي ذلك تحصيل المصالح ودرء

المفاسد، وتمنع فيه المحرمات فيعان الناس على الخير وتتيسر لهم أسبابه، وتضعف أو تقل أسباب المعاصي والشرور.

قال إمام الحرم المكي العلامة عبدالظاهر أبو السمح رحمه الله[١]: «وأما جعل الزعامة الإسلامية قسمين: زعامة دينية، وزعامة سياسية، وتفريق حضرة المحرر بين الزعامتين، فهي فكرة غير إسلامية، وليدة هذا العصر الموبوء بالإلحاد والزندقة، وهي فكرة تصرّح عن باطنها وتعلن عن نفسها بأن الدين الإسلامي لا يصلح للسياسة ولا للحكم، وإنما هو عبارة عن عبادة في المحاريب، وعلاقة بين العبد وربه لا أكثر ولا أقل، كما قالها بعض الملاحدة من مقلدة الإفرنج.

والقرآن والسنة مصرحان بخلاف ذلك، وناطقان بأنه دين السياسة الحكيمة والمدنية الصحيحة، وسيرة النبي ﷺ بين أيدي الناس شاهدة بأنه ﷺ كان يقود الجيوش، ويقرأ ويكتب للملوك يدعوهم إلى الإسلام، ويبعث البعوث ويحكم بين الناس بهذا القانون السماوي في كل شيء، قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المائدة: ٤٩]، ولو كان دين عبادة في المحاريب فقط لما أمر الرسول ﷺ أن يحكم بين الناس، ولما كان ثمّة ما يدعو إلى الحكم بينهم، إذ الحكم لا يكون إلا في الخصومات والعبادات لا خصومة فيها بين العبد وربه، وإنما هي بين العباد بعضهم لبعض، فمن قرأ سورة الأنفال والتوبة على الأقل علم

(١) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية (١/ ١٩٧)

يقينا لاشك فيه أن الإسلام دين عبادة وسياسة، جمع بين الأمرين، وبما جرى من سيرة النبي ﷺ وخلفائه يتبين صدق ما نقول، وأن التفريق بين الزعامتين رأي مأفون، وبالله التوفيق».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «من محاسن الإسلام وقيامه بكل إصلاح أنه ليس عقائد وأخلاقا فقط، وإنما هو - مع ذلك - موجه وحاكم، وصاحب دولة وجهاد، فالدين الإسلامي بعقائده وأخلاقه وآدابه وتوجيهاته وحكمه وسلطته وحمايته الحقوق الخاصة والعامة كما هو مشروح مفصل من أكبر الأدلة على أنه تنزيل من حكيم حميد، عليم بكل شيء، إذ شرع لهم هذا الدين الذي لم يبق خيرًا إلا دلّ عليه وحث عليه، ولا شرًا إلا حذّر منه، ولا حقا إلا أقامه، ولا عدلا إلا جعل له مسالك وطرقا يقوم عليها، فهو دين ودولة، وجامع بين مصالح الدين والدنيا، وبين التسامح والتيسير، وبين العزة والقوة، والمقاومة لكل معاند محاد معاد للدين وأهله، عكس ما نبزه الملحدون أنه دين بلا دولة، وآخرة لا دنيا معها، فإنهم قالوا ذلك ليتوسلوا إلى تثبيط أهله عن مقاومة المعتدين، وبذلك يمهدون الطريق للأعداء المستعمرين الظالمين، فهؤلاء الذين قالو ذلك كذبوا وظلموا، وكادوا للإسلام وأهله، وكانوا أجراء وسماسرة للأعداء، والله أعلم».



(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحلدين ص٧١

شرور الحرية تنادي العالم بضبطها بأحكام الشريعة

الناس جميعا يشاهدون ما أصاب العالم من الشرور بسبب الحريات المذمومة، ضجت الأرض خصوصا بلاد الكفر من آثار الحريات المذمومة، عبد غير الله، وأعلن الناس بفجورهم وفواحشهم، بل صاروا يتباهون بذلك، وصار الإقتصاد العالمي كله أسير الهيمنة الرأسمالية الربوية الفاجرة، التي أغرقت الفقراء في الديون، ونهبت أموال الناس بشركاتها المساهمة التي عاثت في الأرض فسادا في تزوير وفبركة الميزانيات وادعاء الخسائر المفتعلة لسرقة أموال المساهمين.

وكذلك الشأن بالنسبة للشيوعية، إلحاد في العقيدة، وفواحش قبيحة، وعدوان على الخلق.

والعجيب أن الرأسمالية والشيوعية الذين يفاخرون بحرياتهم المذمومة، انتقصوا كرامات الناس وصيرّوهم عبيدا لهم وأرقاء باحتلال ديارهم ونهب ثرواتهم، فأين العبودية للعباد من العبودية لرب العباد؟!!

وأعجب من ذلك أن الرأسمالية والشيوعية ترى إلحادها وشركها وكفرها وخروجها عن شرع الله حضارة، وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥].

ولا يستغرب أحد من دعوتنا لأن يحكم العالم بقانون الله وشرعه، فالأرض ملك الله أورثها عباده ليحكموا فيها بشرعه، ونبينا محمد ﷺ ما كان بدعا من الرسل، فقد جاء بما جاء به الرسل من قبله من إقامة التوحيد وأركان الإسلام، والأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن الإثم والفواحش.

قال تعالى آمرا نبيه محمدا ﷺ أن يخاطب مخالفيه ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف: ٩].

ونبينا ﷺ جاء بملة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [النحل: ١٢٣]، ومعلوم أن أهل الملل جميعا ينتمون إلى إبراهيم عليه السلام.

وليس الشأن في الإنتساب المجرد لإبراهيم عليه السلام وإنما الشأن في الإنتساب الحقيقي لإبراهيم عليه السلام وإتباع ملته، قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ ﴿٦٨﴾ ﴾ آل عمران: ٦٨.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(١): «وهل يستوي ما أمرت به الرسل من الصدق في الأقوال والأفعال، والنصيحة لله ورسوله وكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، والأمر بالبر والصلة، والقيام بحقوق الجيران والأصحاب والمعاملين ومن يتصل بهم العبد على اختلاف طبقاتهم، أم الأمر بضد ذلك؟!

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحلدين ص٣٩-٤٠

وهل يستوي الأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربي، والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، والتعاون على البر والتقوى، أم الأمر بضد ذلك؟!

وهل تستقيم الأمور كلها وتصلح الأحوال إلا بالتزام ذلك والعمل به، وهل يمكن القيام بأصول الإيمان وشرائع الإسلام، والوفاء بالحقوق والعقود والعهود، والورع عن المحارم القولية والفعلية إلا من الإيمان بالله واليوم الآخر، الذي هو أساس الخيرات والصلاح المطلق؟ وهل إذا أطلق الملحدون الماديون على هذه الأصول العظيمة والشرائع الجميلة النافعة التي لا ينفع غيرها: أنها رجعية، ترجع بالناس إلى الوراء، وأنها قديمة، والقديم يجب أن يزهد فيه ويحذر عنه؟

هل هذا القول منهم والدعاية الخبيثة إلا من أكبر الأدلة على ضعف عقولهم وسفاهة آرائهم وكذبهم الصريح؟

وهل يستغني العباد عنها في حالة من أحوالهم؟

وهل هي إلا أكبر نعمة وأجل كرامة أكرم الله بها العباد﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]، ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

فمن وزن بعقله الصحيح ما جاءت به الرسل، وأمرت به، وأرشدت إليه من معرفة الله وعبادته، والإنابة إليه، والأمر بالقيام بجميع الحقوق كلها على وجه العدل والفضل والإحسان، وما نهت عن ضده، ثم نظر إلى ما يدعو إليه أهل الإلحاد، عرف أن الخير والفلاح والصلاح الديني والدنيوي العاجل والآجل، الظاهر والباطن مع مادعت إليه الرسل، وأن الملحدين ترمي دعوتهم إلى الانحلال من كل خلق جميل، والحث على كل خلق رذيل، ومآلها الفوضوية التامة، والانطلاق مع شهوات النفوس حتى تكون البهائم أشرف منهم وأنفع، وهذا هو الواقع بلا ريب، ولسان حالهم ومقالهم يصرح بذلك، فنسأل الله أن يتم علينا وعلى المسلمين نعمه، وأن يثبتنا على دينه، ويزيد من فضله وكرمه».

***

إقرار الأمم الكافرة على أن القرآن عصمة من الفوضى

عجيب أن يوجد فيمن ينتسب إلى الدعوة إلى الله من يرخص فيما ينكره الكافرون فضلا عن المؤمنين من أسباب الفوضى والضلال، فالكفار مقرون بأن القرآن عصمة من الفوضى والضلال، لذلك كانوا يستفتحون بنزول الوحي وظهور خاتم النبيين عليه السلام، فاليهود هاجروا من أذرعات بالشام إلى المدينة بالحجاز انتظارًا للهدى في خاتمة الرسالات، وكفار قريش كانوا يطالبون بكتاب من السماء يعصمهم من الضلال ومن فوضى الحرية المذمومة، قال تعالى: عنهم ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٦٩]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[(١)]: «من فوائد الآيات الكريمة: أن الناس لا يمكن أن يكون لهم إستقامة إلا بكتب نازلة من السماء حتى المشركون الكفار يقرون بهذا، لقوله: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾، وهذه الفائدة يشهدلها الواقع، فإن الأمم الذين لم تنزل عليهم الكتب تجدهم في فوضى مطردة، لا يستقيم لهم حال، ولا يمشون على خط مستقيم، بخلاف الأمم التي تنزل عليهم الكتب، فإنها تكون مستقيمة بقدر تمسكها بهذه الكتب».

ثم قال شيخنا رحمه الله مبطلا ضلال الكافرين بطلبهم ما هو موجود وهم به كافرون[(٢)]: «ولكن هذه الحجة مردودة بقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ

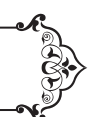
---

(١) تفسير سورة الصافات ص٣٥٣.

(٢) تفسير سورة الصافات ص٣٤٩.

مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌۚ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧]، إذا هذه الدعوة منهم مكابرة لأنه أنزل عليهم كتاب أهدى الكتب وأقوم الكتب».



إرهاب الكافرين لا يزعزع الموحدين

الهجوم الذي مارسه الغرب للصد عن الإسلام وتشويهه لا يزعزع إيمان الموحدين، لأنه يعبدون الله حباً له وطلبا للفوز بجنته والنجاة من ناره، وأساليب الكافرين المعاصرين لا تختلف كثيرا عن أساليب إخوانهم السابقين، فهذا زيد بن حارثة ﷺ لما أسلم جاءه قومه وقرابته من المشركين، وقالوا له «ويحك يازيد! أتختار العبودية على الحرية»[1].

وتأمل ما في إعتراض المشركين السابقين من المشابهة لاعتراض إخوانهم المعاصرين، فكفار اليوم ككفار الأمس في إعتراضهم.

وتأمل أيضا قلب كفار الأمس للحقائق، وهذا شأن إخوانهم كفار اليوم،قالوا لزيد بن حارثة ﷺ وهم الذين إسترقوه لخدمتهم، وإسترقوه لما هو أعظم من ذلك وهو عبودية أهوائهم، يأمرونه بالكفر والشرك ويكرهونه على ذلك، ويأمرونه بطاعتهم طاعة مطلقة في كل صغير وكبير، وفي كل خير وشر!! بينما رسولنا ﷺ إنما دعا زيد بن حارثة ﷺ ليكون عبداً لله، لا لأهوائهم، ولطاعة الرسول ﷺ طاعة مقيدة فيما يبلغه عن الله، وليس طاعة مطلقة، كما قال الله في شأن بيعة الصحابيات المهاجرات للنبي ﷺ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۝١٢﴾ [الممتحنة: ١٢].

---

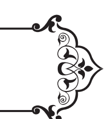
(١) زاد المعاد ص٣٨٣

وطاعات المشركين لساداتهم وأهواء نفوسهم إنتقاص لكرامتهم، فهي تدنيس لكراماتهم في الرذائل والفواحش وما يفسد الأبدان والعقول والأديان، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

أما طاعة المؤمنين الموحدين لرسول رب العالمين فهي إعزاز للمؤمنين وإكرام لهم وسمو بأخلاقهم وحفظ لأديانهم وأبدانهم وعقولهم، ومن أسباب إدارك محبة الله، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامة محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقا إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والسنة وامتثال أمرهما واجتناب نهيهما، فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه».

❊ ❊ ❊

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١٢٩-١٣٠



الكبر والشرك متلازمان



استنكاف الكافرين عن العبودية لله بدعوى الحرية هو سبب شركهم، والعياذ بالله، وأسوة الكافرين في ذلك إبليس الذي إستنكف عن طاعة الله، ثم أقسم لربه أن يضل بني آدم عن العبودية لله إلى عبوديته بمايلقيه على أوليائه من وساوسه وتلبيساته، قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ ١١٢﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالكفار والمغترون بهم من بني جلدتنا زخرفوا الكبر عن طاعة الله بتسميته بـ«الحرية»، وراج هذا الباطل على الجهلة الذين لا يتأملون ما في هذه الألفاظ من الشرور والضلال والإفساد لعقائد المسلمين وأخلاقهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «كلما قوي إخلاص دين - العبد - لله، كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله تكمل تبرئته من الكبر والشرك.

والشرك غالب على النصارى، والكبر غالب على اليهود، قال تعالى في النصارى ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة: ٣١]، وقال في اليهود:

(١) العبودية ص٨٢-٨٣

﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة: ٨٧].

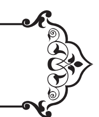
وقال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ولما كان الكبر مستلزما للشرك، والشرك ضد الإسلام، وهو الذنب الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾ [النساء: ١١٦].

فالدعوة للحرية بإطلاق دعوة شيطانية إبليسية يهودية قوامها وأساسها الإستكبار والإستنكاف عن طاعة الله، وإختيار طاعة الشيطان على طاعة الرحمن، ولا يختار الكبر على الله وعن طاعته إلا من أراد أن تكون النار قراره وبئس المصير.

***





غلط الكافرين في مسمى العبودية

غلط الكافرين في مسمى «العبودية» هو الذي جعلهم يرفعون راية «الحرية»، لأنهم لا يفهمون من معنى العبودية إلا طاعة العبد لسيده لمصلحة السيد أو إرضاءً لهواه، وهذا من ضلالهم وجهلهم، ومن قياس الخالق على المخلوق والعياذ بالله.

والرد على هذه المغالطة الكبرى من وجوه:

الأول: أن الله غني عن عباده، وكل مخلوق مفتقر إلى الله، فالله هو الحي القيوم، فهو قائم بذاته، مستغن عن خلقه، وقيام كل شيء له، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: ١٥].

الثاني: فرق ما بين عبودية المخلوق للمخلوق وعبودية المخلوق للخالق واضحة، فالمخلوق يأمر عبده بالظلم أحيانا وبالهوى أخرى، ويأمره لخدمته، أما الله عز وجل فلا يأمر عباده إلا بالعدل، ويأمر عباده لمصلحتهم لحفظ أديانهم وأبدانهم ولإكرام نفوسهم عما يشينها أو يضرها.

الثالث: إستحقاق الله للعبودية لا يشركه فيها أحد، فهو سبحانه المتفرد بنعوت الكمال، فهو الذي تألهه القلوب محبة وتعظيما وإجلالا، وهو الذي له كمال النعمة على خلقه أجمعين، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ٥٣﴾ [النحل: ٥٣].

الرابع: إفتقار كل مخلوق لله إفتقار ذاتي، لا يمكن لأي مخلوق الإنفكاك عنه لحظة، فالله خالقنا، ورازقنا، وهادينا، وناصرنا، وهو وحده الذي يجري قضاءه وقدره في خلقه جميعا، فأزمّة الأمور كلها بيده.

الخامس: أن العبودية لله أساسها المحبه، محبة شرعية تدخل العبد في كمال الطاعة لله كلما تحقق بها، أما رق العبد لسيده المخلوق فتخلو من المحبة، ولو وجدت فلا تخلو من رعونة في الأوامر والنواهي مع غلبة التسلط والذل للمخلوق.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «والمقصود هو أن الخُلَّة والمحبَّة لله تحقيق عبوديته، وإنما يغلط في هذه من حيث يتوهمون أن العبودية مجرد ذل وخضوع فقط، لا محبة معه، أو أن المحبة فيها انبساط في الأهواء، أو إذلال لا تحتمله الربوبية».

وقال أيضا[2]: «فمن كان الله يحبه استعمله فيما يحبه محبوبه، لا يفعل ما يبغضه الحق، ويسخطه من الكفر، والفسوق، والعصيان».

السادس: العبودية لله إصطفاء، فهي كمال للعبد، وليست نقيصة له كما يتوهمه الضالون، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[3]: «فكمال المخلوق

(١) العبودية ص٩٢-٩٣
(٢) العبودية ص٩٤
(٣) العبودية ص٥٣

في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازداد العبد تحقيقا للعبودية، ازداد كماله، وعلت درجته.

ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، أو أن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق، بل من أضلهم».

وقال أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «وبالعبودية نعت كل من اصطفى من خلقه في قوله: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٥) إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٦) وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٧)﴾ [ص: ٤٥ - ٤٧]، وقوله: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)﴾ [ص: ١٧]، وقال عن سليمان ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠)﴾ [ص: ٣٠]، وعن أيوب ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٤)﴾ [ص: ٤٤]، وقال: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ (٤١)﴾ [ص: ٤١]، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)﴾ [الإسراء: ٣]، وقال عن خاتم رسله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ [الإسراء: ١].

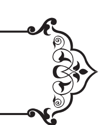
السابع: العبودية لله إستحقاق، فالله وحده الرب العظيم، ودخول العبد في العبودية لنظيره هي العبودية المذمومة، أما العبودية لله فهي فخر وكرامة وعزة.

---

(١) العبودية ص٥٦-٥٧

وأهل الكتاب الكفار رافعوا شعار «الحرية» هم الذين وقعوا في العبودية المذمومة، قال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [التوبة: ٣١]، وتجاوز كثير من النصارى هذا الحد إلى درجة الشرك بالمسيح مع الله، فجعلوه ربا، وجعلوه ثالث ثلاثة، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.





يوطئون لهيمنة الكفار

مدح الغرب والترويج لثقافته خصوصا شرعته الكافرة «العلمانية» وتجويز أن يعبد الناس ماشاءوا، وأن يقولوا ماشاءوا كما يقول السويدان، وجعل الهوى حاكما على الشرع كما يقول القرضاوي «الحرية قبل الشريعة»، هذا توطئة لهيمنة ثقافة الكافرين، وسير المسلمين في ركاب الضالين، واضعاف لقوة الأمة الإسلامية في عقيدتها وثقافتها، وما يفعل ذلك ناصح، ولا من يرد بالأمة الإسلامية خيرا.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين في شأن دعاة التغريب[1]: «يغذون في نفوس الضعفاء تعظيم هؤلاء الكفار،وأنهم أكثر تقدما، وأشد حضارة، وأقوم طريقا، وما شابه ذلك، فينصهر المسلم في حرائق هؤلاء القوم، وهذا لا شك أنه موجود وأن كثيراً من البلاد الإسلامية زالت معنوياتها وهلكت شخصيتها بسبب هذا الغزو الفكري».

فكل مسلم فضلا عن الدعاة الى الله دعوتهم هي تقديم شرع الله على أهوائنا فضلا عن أهواء الكافرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحجرات: ١] قال ابن عباس رضي الله عنهما[2]: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة».

***

(١) تفسير سورة الصفات ص ٣٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ص ١٢٨٢





فراش مبثوث يسيرون على غير هدى

الترخيص لأن يسير الناس على غير هدى من الله بدعوى الحرية زيغ وضلال، فان هذا شأن الحشرات الضعيفة التي تتقحم النار وتتهافت فيها فتحرقها، قال تعالى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤﴾ [القارعة: ١ - ٤]، وهكذا حريات الكفر والضلال تسوق أصحابها إلى النار، والمرخصون فيها بدعوى الحرية وسائل للتقحم في النار، والعياذ بالله.

قال الحافظ عبد الرزاق الرسعني رحمه الله[١]: ﴿كَٱلْفَرَاشِ﴾ وهو ماتراه يتهافت في النار، و ﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾ المتفرق.

وقال الكلبي: الذي يجول بعضه في بعض.

شبّه سبحانه وتعالى الناس في كثرتهم وانتشارهم وضعفهم وذلتهم وتطايرهم إلى الداعي من كل مكان كالفراش المبثوث».

فالحريات المذمومة وأنواع البدع المفرقة للأمة تطاير الناس إلى داعيها، وقدّموا ضلالهم على هدى القرآن، وبعضهم جعل شعاره «الحرية قبل الشريعة»، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۝٤١﴾ [المائدة: ٤١].

(١) رموز الكنوز (٨/ ٧١٦ - ٧١٧).

فلماذا يختار الدعاة المنتسبين للاسلام الغواية والضلالة للبرية عموما ولأهل الكتاب خصوصا ويتركونهم يسيرون في هذه الدنيا بغير هدى كالفراش المبثوث، وقد جاء الخلق جميعا وأهل الكتاب خصوصا البينة والحجة والهداية من الله، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: في أهل الكتاب خصوصا: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ١ - ٥].

فالرسول محمد ﷺ أوحى الله إليه صحفا مطهرة، وهو هذا القرآن الذي أوحي اليه، فانه قد اشتمل على ما تضمنته كتب الرسل السابقين مما هو خالص من التحريف والتبديل، كما قال الله عن القرآن: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿٣﴾﴾ [آل عمران: ٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٨ - ١٩].

فكيف يسير الناس سير الفراش المبثوث بغير هدى تبعا لحرياتهم المذمومة، والله هدى خلقه بالقرآن الذي وصف الله صحفه بـ ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾، أي المستقيمة شديدة القيام الدالة على العلم النافع والعمل الصالح ؟ !!

وتأمل أوامر الشريعة وأركانها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ﴾. كيف نعتها الله بما يوجب التمسك والعمل بها حيث قال سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، فما أمر به نبينا ﷺ مما أنزله عليه ربنا في القرآن هو دين الأنبياء جميعا، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]، وكما تضمنت هذه الآية اقامة الحجة على الكافرين والمشركين، فانها أمرت المؤمنين الموحدين بمفارقة المشركين إذا أصروا على عنادهم وكفرهم، والإعلان بالتمسك بالإسلام والاعتزاز والفخر بذلك ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾، وبهذا يتبين ضلال القرضاوي والسويدان.





خير أمة الناس لها تبع

أمتنا خير أمة أخرجت للناس كما قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]، فكل عاقل ناصح بصير بأسباب ضعف المسلمين يعرف أن تقهقرها سببه تضييع مقومات خيريتها، وأول ذلك الايمان بالله، وهذا واضح في دلالة الآية ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فإيمان المسلمين أصابه الضعف والوهن، ولو قوي إيماننا لكنا في ريادة العالم كله، كما كان الحال في الصدر الأول من الإسلام، ومع هذا فاننا لا نقنّط المسلمين ولا نلتفت بهم عن الإسلام إلى المناهج المنحرفة كالعلمانية والاشتراكية، فالمسلمون كما قال النبي ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[1]، فالخير الذي مع المسلمين هو التوحيد، فشجرة ايمان المسلمين تحتاج إلى سقي بماء الوحي، لتقوى فتقوم بما قام به الأولون من النهضة والريادة والهداية للخلق أجمعين، وهذا من أعظم أسباب خيريتها، كيف يريد منا من انحرف وزاغ أن نضيّعه لحريات مذمومة ومناهج منحرفة.

ومظاهر خيرية أمتنا الإسلامية وإمامتها للأمم واضحة فشريعتنا ناسخة للشرائع السابقة، ورسولنا ﷺ خاتم النبيين، ومكة أم القرى قبلة الناس

(١) رواه مسلم كتاب العلم باب الإيمان بالقدر والإذعان له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (ص ١١٦١ - رقم ٦٧٧٤)

أجمعين، والنبي كان يبعث في قومه خاصة، ونبينا ﷺ بعث للناس كافة ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فالأمة الإسلامية اصطفاها الله لتعلو الأمم، وجعلها شاهدة على الأمم كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال النبي ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها، وأنتم أكرم على الله عز وجل»[١].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٢]: «وانما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فانه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيا قبله ولا رسولا من الرسل، فالعمل على منهاجه وسبيله يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه».

فالشرع الكامل العظيم هو الذي أمرنا الله أن نستمسك به ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣]، أما أن نقدم الحرية عليه فهذا تضييع وتدمير للأمة الإسلامية.

---

(١) (١) رواه أحمد (٤ / ٤٤٧)، والترمذي كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران (ص ٦٧٥ - رقم ٣٠٠١)، ةقال الترمذي: هذا حديث حسن.
(٢) تفسير القرآن العظيم ص ٢٥٣.

فدعاة التغريب من العلمانيين والاشتراكيين ومن ضاهاهم من الدعاة البدعيين يريدون للأمة الإسلامية أن تكون تبعا وذنبا للكافرين، أما الله عز وجل فيريد لدينه الظهور والعزة، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «نحن الآخرون، ونحن السابقون يوم القيامة، بيدَ أن كل أمة أوتيت الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، ثم هذا اليوم الذي كتبه الله علينا، هدانا الله له، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد»[١].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين ﵀[٢]: «يجب علينا نحن المسلمين أن نعرف قيمتنا في المجتمع الأممي، وأننا أحق الناس بالبقاء على الأرض، وأحق برزق الله، وأحق الناس أن نعلوا عليهم.

هذا إذا كان لنا شخصية إسلامية، لكن لضعف الإيمان وضعف التوكل على الله عزّ وجل صرنا أذنابا لغيرنا، أعزاء على قومنا أذلاء أمام الكافرين».

***

(١) رواه البخاري كتاب الجمعة باب فرض الجمعة (ص ١٤١ - رقم ٨٧٦)، ومسلم كتاب الجمعة باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (ص ٣٤٣ - رقم ١٩٨٧).

(٢) تفسير سورة المائدة (٢/ ٤٤).



نحن قوم أعزنا الله بالإسلام

لم يكن للعرب شأن بين الأمم، مع أن غرائزهم وأخلاقهم أطوع للخير، لكنهم كانوا معطلين عنه، ضالين عن سبيل الحق ملازمين للشرك، فبعث الله محمدا ﷺ بالهدى الذي ما جعل الله في الأرض - ولا يجعل - أمراً أجل منه وأعظم قدرا، وتلقاه الصحابة عنه بعد مجاهدته الشديدة لهم، ومعالجتهم على نقلهم عن تلك العادات الجاهلية، والظلمات الكفرية، التي كانت قد أحالت قلوبهم، واستنارت بهدى الله الذي أنزل على عبده ورسوله ﷺ، فأخذوا هذا الهدي العظيم، بتلك الفطرة الجيدة، فاجتمع لهم الكمال بالقوة المخلوقة فيهم، والكمال الذي أنزل الله إليهم(١).

فالإسلام هو الذي جعل من رعاة النعم رعاة الأمم، فخضعت لهم فارس والروم، وظهر أمر الله، وأشرق نور الوحي في جنبات الكون، قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[التوبة: ٣٣]، فهذه الحقيقة يجب أن تكون حاضرة نصب أعيننا حتى لا نرتكس في الضلال، ولا نلتزم الضلالات من العقائد والآراء والمذاهب الموجبة لسخط الله لا نصره كالشيوعية، والإشتراكية، والعلمانية، والرافضية، فالله ينصر دينه ويعز أوليائه، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴿٧﴾ ﴾[محمد: ٧]، فمن يدعو المسلمين للتدين بغير الإسلام

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٧٧-٤٤٨)

وسلوك المناهج الضالة فإنما يريد أن يردينا، وأن يزيل عنا حبل الله ونصره ويكلنا إلى أنفسنا وضعفنا، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «المقصود من هذا التهييج طلب العزة من جناب الله، والإلتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد».

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إذ جعل هذه الحقيقة شعارا، وهو كذلك، لكنه أراد تنبيه الغافلين، وتذكير الناسين بل المتناسين، فقال الفاروق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله».

الأمة اليوم دخلها الضعف والوهن بسبب تفرقها في دينها، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، فالله أمرنا أن نعتصم بحبله ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ونحن أوقعنا في الأمة الفرقة، ولم نعتصم بحبله، بل ابتدعنا البدع، ونشأت فينا الأهواء والفرق، واتبعنا السبل وانحرفنا عن الصراط المستقيم إلى ضلالات الشيوعية، والعلمانية، والرافضة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٦)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «فإن القوم كلما بعدوا عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم والكتب المنزلة كان أعظم في تفرقهم واختلافهم»، فطريق الإسلام وسبيل التجديد واضح لا يزيغ عنه إلا مبتدع أو جاهل لا يعرف الشرع، قال الإمام مالك رحمه الله بعد أن رأى التغير في الأمة الإسلامية بسبب البدع والضلالات: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها»، فالأمة الإسلامية تشبهت بالكفار وانحرفت عن صراط الله المستقيم، قال العلامة عبدالرحمن المعلمي رحمه الله[٢]: «فإن الأمة قد اتبعت سنن من قبلها كما تواترت بذلك الأخبار عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك بل من أعظمه أنها فرقت دينها وكانت شيعا، وقد تواترت الأخبار أيضا بأنه لا تزال طائفة قائمة على الحق، فعلى أهل العلم أن يبدأ كل منهم بنفسه فيسعى في تثبيتها على الصراط، وإفرادها عن اتباع الهوى، ثم يبحث عن إخوانه، ويتعاون معهم على الرجوع بالمسلمين إلى سبيل الله، ونبذ الأهواء التي فرّقوا لأجلها دينهم وكانوا شيعا».

ومن أعظم ما دخل النقص بسببه على المسلمين تعطيل شرع الله، وحصر الدين في العبادات، وواجب الجميع سياسة دول الإسلام بشريعة الإسلام، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله معلقا على قول

(١) الرد على المنطقيين ص٢٣٢
(٢) التنكيل (٢/ ٤٠٤)

النبي ﷺ «إن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء»:[١]: «دليل على أن دين الله - وهو دين الإسلام في كل مكان وفي كل زمان - هو السياسة الحقيقية النافعة، وليست السياسة التي يفرضها أعداء الإسلام من الكفار.

السياسة حقيقة ما جاء في شرع الله، ولهذا نقول: إن الإسلام شريعة وسياسة، ومن فرّق بين السياسة والشريعة فقد ضل، ففي الإسلام سياسة الخلق مع الله، وبيان العبادات، وسياسة الإنسان مع أهله، ومع جيرانه، ومع أقاربه، ومع أصحابه، ومع تلاميذه، ومع معلميه، ومع كل أحد، كل له سياسة تخصه، سياسة مع الأعداء الكفار، ما بين حربيين ومعاهدين ومستأمنين وذميين.

وكل طائفة قد بيّن الإسلام حقوقهم، وأمر أن نسلك بهم كما يجب، فمثلا الحربيون نحاربهم، ودماؤهم حلال لنا، وأموالهم حلال لنا، وأراضيهم حلال لنا.

والمستأمنون يجب أن نؤمنهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦].

والمعاهدون يجب أن نوفي لهم بعهدهم، ثم إما أن نطمئن إليهم، أو نخاف منهم، أو ينقضوا العهد.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٣٦-٦٣٧)

ثلاث حالات كلها مبيّنة في القرآن، فإن اطمأننا إليهم وجب أن نفي لهم بعهدهم، وإن خفناهم فقد قال الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٨]، قل لهم: ليس بيننا عهد إذا خفت منهم، ولا تنقض العهد بدون أن تخبرهم.

والثالث هم الذين نقضوا العهد ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢]، إذا نقضوا العهد فلا أيمان لهم، ولا عهد لهم، فالمهم أن الدين دين الله وأن الدين سياسة: سياسة شرعية، سياسة اجتماعية، سياسة مع الأجانب، ومع المسالمين، ومع كل أحد.

ومن فصل الدين عن السياسة فقد ضل، وهو بين أمرين: إما جاهل بالدين ولا يعرف، ويظن أن الدين عبادات بين الإنسان وربه، وحقوق شخصية، وما أشبه ذلك، يظن أن هذا هو الدين فقط.

أو أنه قد بهره الكفرة وما هم عليه من القوة المادية، فظن أنهم هم المصيبون.

وأما من عرف الإسلام حق المعرفة عرف أنه شريعة وسياسة، والله الموفق».

ومن النواحي الإيجابية التي ينبغي توجيهها لإعادة المسلمين للتمسك بدينهم التمسك الحقيقي هو شدة إنتماء غالبية المسلمين لدينهم، فهذا

يلزمهم بالتمسك بتعاليمه، قال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن محل رجاء المصلحين في هذه الأمة هو هذا الخلق العريق الذي ملك على المسلم إحساسه وهو **الاعتزاز باسم الإسلام والافتخار بالنسبة إليه**، والأنفة من الخروج من هذه النسبة، والرضى بالهون والدون في سبيل هذه النسبة.

وإن من أوضح الشواهد على رسوخ هذا الخلق في المسلم أنك تقول لتارك الصلاة - مثلا - أنت لا تصلي، فيقول لك نعم، وتعيّر مانع الزكاة بالشح وقبض اليد، فيقول لك: قد كان ذلك، وتقول للمبتدع: أنت مبتدع، فلعله ينصف ويعترف، ولكن إياك أن تقول لواحد من هؤلاء أنت لست بمسلم، ولو قلت لرأيت التنمر والتنكر، وسمعت الجافي المكروه من القول.

هذه النقطة هي محل الرجاء، فليتخذها بناة الإصلاح قاعدة يقيمون عليها هيكل الإصلاح، وليقولوا لهذا الأخ المعتز بنسبته، بارك الله عليك أيها الأخ أنت مسلم، ولكن للإسلام واجبات يقضى بها عليك، وواجبات يتقاضاها منك، وآداب يروضك عليها لتستحق بذلك منازل الكرامة في دنياك وآخرتك، وهو يريد تكميلك فلا تنقصه، ويريد أن تكون حجة به فلا تكن حجة عليه، وأنت منسوب إلى الإسلام، ولكن هل يسرك ممن ينتسب إليك العقوق وتضييع الحقوق فصحح العقيدة، وروّض جوارحك على

(١) الآثار (١/ ١١١-١١٢)

التكاليـف، وقف عند حدود الشـرع، فإذا أنت المسـلم الكامـل، وإذا أنت عبدالله وحده...؟

إني لو شـئت أن آتي ببدع من الرأي في معرض الاسـتدلال على حقيقة هـذا الديـن لقلت: إن ما عم المسـلمين مـن تنكب عن هدايـة دينهم، وهو فـي عمومه مـن الأدلة على حقيقة دين الإسـلام، وأنه الديـن لا دين غيره، فاعجـب لديـن ينتزع الشـواهد علـى صحته مـن حالتي الإقبـال والإدبار، واعجـب لدين يسـم طباع بنيه بسـمة التوحيد فـي حالتي الوفـاء والجفاء، واعجـب لدين تغفل القلوب عن وعي حقائقه، وتكسـل الجوارح عن أداء وظائفه، وتتجرد النفوس عن حلاه، وهي مع ذلك كله، على أشد ما عرفت من العصبية والتشـيع له والاعتزاز بالنسـبة إليه وإن هنا لسـرًّا لم أتبينه، فلم أحسن التعبير عليه...؟».





ما علمه الكافرون خسيس بالنسبة لما جهلوه

الكفار ومن اغترّ بهم فرحون بعلومهم في الصناعات وآلات الحرب، كما قال تعالى: ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣]، وهذا الذي عرفوه خسيس بالنسبة لما جهلوه من التوحيد الذي هو أوضح المعارف ولا يجهله إلا شقي، لأن جهله وتضييعه يوجب خلودهم في نار جهنم والعياذ بالله، قال تعالى: في شأن الكافرين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]، قال العلامة المجدد عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوانه الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب، وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية والمراكب البرية والبحرية والهوائية ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٤٩

البصائـر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون. ولو نظروا إلى مـا أعطاهم الله وأقدرهـم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وما حرمـوا من العقل العالي، لعرفوا أن الأمر للـه والحكم له في عباده، إن هو إلا توفيقـه أو خذلانـه، فخافوا ربهم وسـألوه أن يتم لهم مـا وهبهم من نور العقول والإيمان حتى يصلوا إليه ويحلوا بساحته.

وهـذه الأمـور لو قارنهـا الإيمـان وبنيت عليـه، لأثمرت الرقـي العالي والحيـاة الطيبـة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحـاد، لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير».

قال شـيخ الإسـلام ابـن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «مـن أضر الأمور علـى العبد أن يكـون متميـزا عـن العامـة ببعـض العلـوم الطبيعيـة أو غيرها، فـإذا جاءته العلـوم الدينيـة النافعـة التي لم تدخل فـي علمه نفاها، فخسـر دينه، وصار علمـه الجزئي لبعـض المعلومات وبالا عليه، وهكـذا تجد من عرف نوعا مـن العلـم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونـه، فيبقى بجهله نافيا لما لا يعلمـه، وبنـو آدم ضلالهم فيمـا جحدوه ونفوه بغير علـم أكثر من ضلالهم فيمـا صدقوا به وأثبتـوه، قال تعالـى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴿٣٩﴾﴾ يونس: ٣٩.

---

(١) بواسطة الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين لابن سعدي ص٢٦

وهـذا لأن الغالب علـى الآدميين صحة الحس والعقل، فإذا أثبتوا شـيئاً وصدقوا به كان حقا، بخلاف ما نفوه، فإن غالبهم أو كثيرا منهم ينفون مالا يعلمون، ويكذبون بما لم يحيطوا به علما، ويتفرع على هذا الأصل الباطل: الجهـل بالإلهيـات وبما جاء به الرسـل، والجهل بالأمـور الكلية المحيطة بالموجـودات، وبهـذا ضل زنادقـة الفلاسـفة وغيرهم، كما أنكـروا الجن والملائكة وأمور الغيـب، إذ لم تدخل تحت علومهم القاصرة فجحدوها، وكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، وجاءتهم الرسل بالبينات والبراهين، ففرحوا بما عندهم من العلم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون».

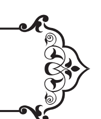
وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ(١): «ولهذا كان أكمل الأمم علما أتباع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وإن كان غيرهـم أحذق منهم: في علم النجوم والهندسـة، وعلم الكم المتصل والمنفصـل، ونحوها مـن العلوم التي لما جاءتهم رسـلهم بالبينات فرحوا بمـا عندهـم من العلم، وآثروها على علوم الرسـل، وهي كمـا قال الواقف على نهايتها: ظنون كاذبة، وعلوم غير نافعة.

فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وإن نفعت فنفعها بالنسبة إلى علوم الأنبياء، كنفع العيش العاجل بالنسـبة إلى الآخرة ودوامها، فليس العلم في الحقيقة إلا مـا أخبرت به الرسـل عن الله طلبا وخبرا، فهـو العلم المزكي للنفوس، المكمـل للفطـر، والمصحـح للعقول، الـذي خصـه الله باسـم «العلم»،

(١) بواسطة الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين ص٣٤-٣٥

وسمى ما عارضه «ظنا» لا يغني من الحق شيئا وحرصا وكذبا، وإذا تأملت ما عند المعارضين لنصوص الأنبياء بعقولهم رأيته كله خرصا، وعلمت أنهم هم الخراصون، وأن العلم في الحقيقة ما نزل به الوحي على الأنبياء والمرسلين، وهو الذي أقام الله به حجته، وهدى به أنبياءه وأتباعهم، وأثنى عليهم به، وذكر الآيات الدالة على هذا».




الشرع حاكم على العقل


تعاظم الإغترار بالعقل في زمن العولمة، وذهب العلمانيون بأنفسهم إرتفاعا عن الرجوع إلى الشرع والتحاكم إليه، وهذا من الغلو المذموم، فالعقل مقر ومعترف بأن علومه لا شيء بالنسبة لعلم الله، فتقديمه على الشرع قدح في العقل.

والواجب أن نجعل العقل في مكانه الطبيعي، فهو وسيلة للفهم عن الله ورسوله ﷺ، ميّز الله به بين الإنسان وسائر المخلوقات ليفهم خطاب الشرع، لا ليتعالى عليه ويرده.

قال العلامة أبو زكريا السلماسي رحمه الله (ت: ٥٥٠هـ)[١]: «اعلم أن الدين مبني على أصلين: الشرع المنقول، وعلى قضيات العقول، فالنقل والعقل أصلان يتصلان مرة وينفصلان أخرى.

اعلم أن العقل لا يهتدي إلا بالشرع، والشرع لا يتبين إلا بالعقل، وذلك أن الإنسان لا يدخل تحت خطاب الشرع إلا بوجود العقل فيه».

ثم قال رحمه الله[٢]: «وإن الشرع كالأمير والعقل كالوزير، يأمر الأمير فينفذ الوزير أمره ويتبع حكمه، والعقل جعل آلة التمييز كالميزان للموزون».

---

(١) منازل الأئمة الأربعة ص٩١

(٢) منازل الأئمة الأربعة ص٩٥

والمؤمـن الذي آمن بالله لا يتحقق إيمانه إلا بتصديق خبر الله والإنقياد لأمره، وإلا كان متوليا.

والخلـق لا يسـتغنون عن الوحي فحاجتهم إليـه ضرورية فوق حاجتهم للطعـام والشـراب، فمـن الله ورسـوله ﷺ البـلاغ، ومن العبـاد الإيمان والتسليم.

وهذا هو الحد الفاصل بين السني والبدعي، فالسني يجعل الشرع حاكما، ويجعل العقل محكوما، والبدعي بالعكس يجعل الشرع محكوما عليه.

قال العلامة أبو المظفر السمعاني رحمه الله[1]: «واعلم أن فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألة العقل، فإنهم أسسوا دينهم على العقول، وجعلوا الاتباع والمأثور تبعا للمعقول.

وأمـا أهل السـنة فقالـوا: الأصل الاتبـاع والعقول تبع، ولو كان أسـاس الدين على المعقول لا ستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء صلوات الله عليهم، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء.

ولـو كان الدين بني علـى المعقول وجب ألا يجـوز للمؤمنين أن يقبلوا شيئا حتى يعقلوا».

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث ص٨١-٨٢

وليس معنى هذا أننا نلغي العلوم العقلية، بل ما جعل الله سبيل تحصيله إلـى التجربة وإدراك العقـول فإنه ينبغي لنا الإجتهاد فـي طلبه بعقولنا، فإن إهماله تضييع لمصالح عظيمة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ[1]: «فصارت العلوم بهذا مما لا يهتدي العقل إليه بحال، لكن هذه العلوم قد تعلم بخبر آخر غير خبر شارعنا محمد ﷺ، وإما أن تعلم بالعقل فقط كمرويات الطب والحساب والصناعات، وإما أن تعلم بهما، فإما أن يكون الشـارع قد هدى إلى دلالتها كما أخبر بها أم لا؟

فإن كان الأول فهي عقليات الشـرعيات، أو عقلي الشـارع، أو ما شـرع عقلـه، أو العقل المشـروع، وإما أن يكون قد أخبر بهـا فقط فهذه عقلية من غير الشارع، فيجب التفطن.

لكن العقلي قد يعقل من الشارع، وهو عامة أصول الدين، وقد يعقل من غيره ولم يعقل منه، فهذا في وجوده نظر».

فواجب الإنسان أن يحمد الله على نعمة العقل، ولا يطغى بحيث يكذب خبر الله ويرد أمره.

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢٣١-٢٣٢)

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله في تفسير العبارة المشهورة «من لم يحترز من عقله بعقله هلك بعقله»[1]: «اعلم أن من أجل نعم الله على الآدمي أن أعطاه هذا العقل الذي يعقل به الأشياء، يوازن به بين المصالح والمضار، ويرجح الراجح من المصلحتين، ويرتكب الأخف من المفسدتين عند الاضطرار إلى ذلك، وينظر به عواقب الأمور وما تثمره الأعمال الدينية والدنيوية من الثمرات النافعة أو ضدها، ويلزم الإرادة بالعمل الصالح وباجتناب المضار.

وأجل فوائد العقل وأحلى ثمراته: العقل عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وسلم الأخبار، والتصديق بها، والتعبد لله تعالى بالاعتراف بها، والأحكام الباطنة والظاهرة، والتخلق بها، والعمل الصالح واجتناب المحرم، فهذا أجل ثمرات العقل، فبه عُرف الله وعُرفت أحكامه ودينه، وبه عُبد الله وأُطيع، وهذا وجه توجيه الله خطابه في كتابه: لأولي الألباب، لأولي النهى، لقوم يعقلون، لقوم يعلمون.

فالعقل هو الدليل للعبد، وهو المرشد له في جميع المطالب، فما دام العقل عقلا حقيقيا، فلا يترتب عليه إلا كل خير ونفع، عاجل وآجل.

وإنما يخشى الشر والضرر من أحد أمرين، إما تصوره وتقصيره، وإما تعديه ومجاوزته الحد الذي حدّ له إذا كان صاحبه في الحالين يعتقد

(١) المختارات الجلية من المسائل الفقهية ص٢٠٧-٢٠٩

استقامته وكماله، فحينئذ عليه أن يحترز من كل حالة منهما بما يليق بها ويناسبها، أما إذا كان الخلل من قصور العقل في معرفة العبد للحقائق، بأن يظن معرفته بها وهو غالط في ذلك، فمن هاهنا يقع الخطل والخلل، فدواؤه في هذه الحال بتنقيح العقل وتصحيحه، بأن يسلك الطريق الموصل لمعرفة تلك الحقيقة التي وقع الغلط فيها، فإن من سلك الطرق المعوجة لم يهتد إلى الصواب، وكذلك من ضعف سلوكه للطرق النافعة لم يصل إلى الحقيقة، فذاك يضل عنها وهذا يقصر عنها.

ولا فرق في هذا بين الأمور الدينية والدنيوية، فإن الأمور لاتتم إلا بسلوك طرقها وأبوابها، مع الجد التام في تحصيلها، فهذا من الأمور التي يتحرز منها بالمعرفة والاستقامة.

وأما الأمر الثاني، وهو مجاوزته للحد الذي حد له، فهذا خطره كبير، وذلك أن العقل من أكبر نعم الله وأجلها على العبد، فعلى العبد أن يشكر الله على هذه النعمة الكبرى ويعترف لله بها، ويستعين بها على ما خُلق له، وعلى ما ينفع، فاذا نسي نعمة الله عليه، وطغى بنفسه، وأُعجب بها، وتاه بعقله، سلب هذه النعمة في أمور كثيرة أعظمها: أن يسلب إيمانه، فإن كثيرا من المحلدين وأهل الحيرة والارتياب تاهوا بما أوتوا من ذكاء وفطنة، حتى تكبروا على ما جاءت به الرسل، واحتقروا الرسل وما جاؤوا

بـه، وفرحوا بعلومهم، وصـارت عقولهم الذكية - غير الزكية - سـببا لهذا الانحراف العظيم، والإلحاد المفسد للدنيا والآخرة.

فعقولهـم التـي طغوا بها أو صلتهم إلى هذه الهاوية السـحيقه، وقد يرى كثير من أهل المهارة بالأعمال الدنيوية والاختراعات الحديثة، قدرته على ما يعجز عنه غيره، فيتيه بعقله الفاسد، ويتوهم أن معرفته بهذه الأمور المادية دليل على تفوقه في العلوم النافعة والأعمال النافعة، ولا يخضع عقله لعلوم الرسـل والديـن الحق، فهذه مهالـك هلك بها المعجبون بأنفسـهم، وعلى العبـد أن يحتـرز من القدح في حكم الله وشـرعه، أو في قـدره، بأن يقيس حكمـه الحكيم الحميـد بأفعال القاصريـن من العبيد، فيضل ويسـيء ظنه باللـه، ودواء هذا أن يعلـم أن الله حكيم في كل ما خلقـه من المخلوقات، وفي كل ما شرعه من الشرائع.

وإن تتبـع ما أوجده الله مـن الموجودات يجدها في غاية الحكمة ويجد آثار الإتقان وحسـن الخلق والانتظام التـام عليها ظاهرة، لا تخفى إلا على من عمـي قلبه وانقلبت عليه الحقائق، وما خفـي عليه من بعض الجزئيات التي لا يهتدي إلى معرفة الحكمة فيها، فليعلم العلم الكلي أن الله لا يخلق شـيئا عبثـا، وأنـه ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ﴾ [السـجدة: ٧]، وأتقن جميع ما صنعه، وكذلك من نظر ما احتوى عليه شـرعه

العظيم من المحاسن والمصالح والمنافع التي لا يمكن إحصاء أجناسها - فضلا عن أنواعها، وأفرادها - عرف بذلك أن الله كامل الحكمة.

وأضر الجهل على الإطلاق: الجهل بحكمة الله، وأشد أنواع الغرور القدح فيها، وما جاء هذا الغرور إلا من إعجاب العبد الجاهل بعقله الفاسد، فنسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا عن الهدى والرشاد، إنه جواد كريم».





سراب الكافرين لا يهدي الضالين

التدين بالشـرك والإرتكاس في الفواحـش بدعوى الحرية، واتخاذ هذه النزعـة البهيمية سياسـة ومنهجا، وفوق هذا الدعوة إلـى تعميمها، وحماية هـذه الحرية المذمومة بقـوة القانون هو الحقارة لا الحضـارة، واغترار من اغتر بهؤلاء لمجرد التفوق الصناعي والعسكري هو ذهول عن سنة الله في خلقه وهو أن كل علو للشرك والكفر والباطل محدود ثم يعقبه زوال وضعة وخسـران ووبال، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨].

وضعفـاء العقول من المسـلمين وضعفاء العقيدة ومـن غمرت قلوبهم الشهوات المحرمة أسرهم سراب الحضارة الغربية، وبعض من اقترب منها وعلـم حقيقة زيفها بعد أن ذهبت عنه غمرة الشـهوة التي غطـت على عقله وأسـرت قلبـه تبيّن ما فيها من محاربة الله وسـخطه، وهو من موجبات نـزول عقـاب الله بهـم قال تعالـى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥].

فهـذه الحرية التي تنادى لإقرارهـا الكفار الفجرة وأعانهم عليه أعوانهم من المنافقين والمتعالمين والمغرورين ظلمات سـار في سرابها من سلب نفسه نعمة الله التي أنعم عليه من الحواس والإدراك وحسن الفطرة والخلقة فانخلعـوا عن نور الله إلى ظلمات الهوى والحريـة المذمومة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩].

قـال ابن القيـم رحمه الله[١]: «وهذه الظلمـات ضد الأنوار التـي يتقلب فيها المؤمـن فإن نور الإيمان في قلبه، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، ومشيته في الناس نور، وكلامه نور، ومصيره إلى نور، والكافر بالضد.

ولما كان النور من أسمائه الحسنى وصفاته كان دينه نورا، ورسوله نورا، وكلامـه نورا، وداره نورا يتـلألأ، والنور يتوقد في قلوب عبـاده المؤمنين، ويجـري على ألسـنتهم، ويظهر علـى وجوههم، وكذلك لمـا كان الإيمان واسمه المؤمن لم يعطه إلا أحب خلقه إليه».

فمن يرخص في الحرية فهو الذي سلك بالناس إلى ظلمات الهوى وتيه الغواية وسراب الأوهام الكاذبة الموجبة لخسران الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

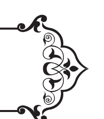
---

(١) بدائع التفسير (٣/ ٢٥٣)

قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾ [النور: ٣٩]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالا نافعة، فيغره صورتها، ويخلبه خيالها، ويحسبها هو أيضا أعمالا نافعة لهواه، وهو أيضا محتاج إليها، بل مضطر إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئا».



(١) تيسير الكريم الرحمن ص٦٦٤



العلمانيون أتباع كل ناعق



الحريـة التي يريـد العلمانيون أن نروج لها ونأذن بها في ديارنا هي دعوة لأن يكـون صـوت كل ناعق مسـموعا، ولو كان ضـالا أو مبتدعا أو ملحدا كافـرا، وهذا تصوره كاف في الدلالة على سـفه هذه الدعوة وانحرافها عن طريق الهدى والخير.

والقرآن والسـنة وأقوال الصحابـة كلها واضحة صريحة في التحذير من سـلوك هـذا المنهج الوخيـم، قال أميـر المؤمنين علي بن أبـي طالب ﵁: «النـاس ثلاثـة: فعالم رباني، ومتعلم على سـبيل نجاة، وهمـج رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور الله، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق»[1].

فلا إله إلا الله ما أعظم فقه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﵁، وهو الذي خبر المقالات الضالة والأهواء المنحرفة والآراء المبتدعة، وعرف أن ضعفاء العقول إذا لم يصونوا عقولهم عن شبهات الضلال فإنهم يسارعون إليها ويتدينون بها، ثم يدعون إليها ثم يضادون بل ويقاتلون من خالفهم.

هذه كلمة حكمة نطق بها الخليفة الراشـد علي بن أبي طالب ﵁ الذي أخذ العلم من مشكاة الوحي ونور السنة والقرآن.

---

(١) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي (١/ ١٨٢)

هـذا كلام أميـر المؤمنيـن رضي الله عنه الذي عـرف ضرر الحرية فـي المقالات والاعتقـادات على الأمة الإسـلامية، وما أوقعته الفـرق المبتدعة في الأمة كالخوارج والرافضة من الشرور والتنازع والتقهقر.

قال الخطيب البغدادي رحمه الله(١): «ما أحسـن ما شـبههم الإمام علي رضي الله عنه الهمج الرعاع، والهمج: البعوض، وبه يشبه دناة الناس وأراذلهم، والرعاع: المتبـدد المتفرق، والناعق: الصائح، وهو في هذا الموضع: الراعي، يقال: نعـق الراعـي بالغنم ينعـق: إذا صاح بهـا، ومنه قوله تعالـى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [البقرة: ١٧١]».

فمـن لا عقيـدة عنده ولا دين كلما ظهرت بدعـة أو كفر تبعها يتردى في ضلالهـا، أمـا المؤمن الذي تديّن بنور الوحـي، رد كل مقالة يظهرها الناس إلـى نور الوحي، فالقـرآن كما نعته اللـه فرقان، بنوره يميّـز المؤمن الهدى مـن الضلال، ويعـرف الحق من الباطل، قـال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنفـال: ٢٩]، وقـال تعالـى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحديد: ٢٨].

(١) الفقيه والمتفقه (١/ ١٨٦)

فالله هو الحق المبين، والقرآن حق، وما خالف القرآن فهو باطل ضلالة بلاريب، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢]، قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله(١): «حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة».

وقال الإمام الأوزاعي رحمه الله(٢): «لم يزل لله نصاحا من خلقه في أرضه، يعرضون أعمال العباد على القرآن، **فبالقرآن يعرفون هدى من اهتدى، وضلالة من ضل، أولئك خلفاء الله في أرضه**».

فالزموا شرع الله وعقيدة الإسلام، وإياكم والضلالات ومخالفة أمر الله وشرعه وتقديم الآراء المضلة والأهواء الشركية والبدعية على شرع الله، قال تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد رحمه الله(٣): «لعله إذا ردّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء، فيزيغ الله قلبه، فيهلكه».

***

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٢٣٦)
(٢) الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥١٠)
(٣) تيسير العزيز الحميد ص٥٤٥



من فارق الدليل ضل السبيل

الجاهل هو الذي لا يعرف الحكمة من خلقه في هذه المعمورة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، والمهتدون هم الذين يسيرون في سفرهم إلى الدار الآخرة بما يوجب سلامتهم، واهتدائهم، وعدم عطبهم، والضال هو الذي يهيم في أودية الباطل، وشعب الضلال، وسبل الغواية بدعوى الحرية، فيضل السبيل ولا يصل إلى ما يوجب سلامته وحسن عاقبته.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «من فارق الدليل ضل السبيل، ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ».

فالمؤمن يسير في هذه الدنيا على نور من ربه، يأتم بكتاب الله، به يميّز بين الحق والباطل، ويسير سيرا واثقا أنه هو الحق لأنه تنزيل من حكيم حميد، أما الكافر فتتجارى به الأهواء والضلالات لا يأتم بنور رب العالمين، فهذا الذي يسمونه حرية، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ

---

(١) نقله عنه تلميذه ابن القيم في مفتاح دار السعادة (١/ ٨٣)

﴿أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «أي: أي الرجلين أهدى، من كان تائها في الضلال غارقا في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحق عنده باطلا والباطل حقا، ومن كان عالما بالحق، مؤثرا له عاملا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله».

فشأن الباطل الإختلاف والتناقض والتلون كما قال الله عنه: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [ق:٥]،وقال سبحانه عن الضالّين: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾﴾ [الذاريات: ٨].

وقال تعالى: في شأن أسوتنا نبينا محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٢ - ٥٣]. قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٢]: «والخطاب هنا للنبي ﷺ أخبره الله - عز وجل - أنه يهدي إلى صراط مستقيم، يعني يدل إليه ويبيّنه للناس، والصراط المستقيم بيّنه الله في قوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾، يعني الصراط الذي نصبه الله - تعالى - لعباده، وهو شريعته، وأضافه الله إلى نفسه، لأنه هو الذي نصبه، ولأنه يوصل إليه، كما أنه أضافه في سورة الفاتحة إلى الذين أنعم الله عليهم، لأنهم هم الذين يسلكونه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١٠٤١

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٦٦)

فالنبي ﷺ يهدي الناس إلى الصراط، ويدلهم عليه، ويدعوهم إليه، ويرغبهم في سلوكه، ويحذرهم من مخالفته، وهكذا من خلفه في أمته من العلماء الربانيين، فإنهم يدعون إلى الصراط المستقيم، صراط الله العزيز الحكيم».



الإسلام يواكب الحضارة لا يعارضها

الإسلام يواكب الحضارة ويهذ بها لا يعارضها، فقد أمر الله عز وجل بعمارة الأرض، فقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «أي: جعلكم عمارا تعمرونها وتستغلونها».

لكن الله جعل ما في الأرض سببا لتوحيده لا للشرك به، فالواجب على الخلق جميعا عمارة الأرض بالوسائل المباحة وتسخير ذلك لشكر الله وتوحيده لا للكفر بنعمه واستعمالها في مساخطه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ - ٢٢] قال ابن القيم رحمه الله[2]: «فذكر سبحانه أمرهم بعبادته، وذكر اسم الرب مضافا إليهم لمقتضى عبوديتهم لربهم ومالكهم، ثم ذكر ضروب إنعامه عليهم بإيجادهم وإيجاد من قبلهم وجعل الأرض فراشا لهم يمكنهم الاستقرار عليها، والبناء والسكنى.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص٦٨٠

(٢) بدائع التفسير (١/ ٢٩٢)

وجعل السماء بناء وسقفا فذكر أرض العالم وسقفه، ثم ذكر إنزال مادة أقواتهم ولباسهم وثمارهم منبها بهذا على استقرار حسن عبادة من هذا شأنه، وتشكره الفطر والعقول، وقبح الإشراك به وعبادة غيره».

وعلو الكافرين في الصناعات لا يوجب الفتنة بهم فإن الدنيا يعطيها الله من أحب ومن لم يحب، أما الآخرة فلا يعطيها الله إلا من أحب، وواجب المسلمين العودة إلى نهضتهم السابقة في الحضارة والصناعة وأن لا يرضوا بتخلفهم، فالمؤمن لا يرضى إلا بالعزة والعلو والريادة لدينه ولبلاده.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[(١)]: «إن الملاحدة يتشبثون لتأييد باطلهم بشبه باطلة تروج على من لا بصيرة له، ويروجها المأجورون من الزنادقة المنتسبين للإسلام، يقولون: انظروا إلى حال المسلمين وما هم عليه من الضعف، وأنهم متأخرون في أمور الحياة، والذي أخرهم دينهم، فيروجون هذا من وجوه متنوعة، وهذا مما يعلم أن المستدل به مبطل، وذلك أن الواجب أن تنظر إلى الدين الإسلامي في نفسه، وما هو عليه من الإحكام والحسن العظيم، وما فيه من الهدايات إلى كل خير، والذود عن كل شر وضرر، وتنظر أيضا إلى حالة القائمين به، المنفذين لتعاليمه وأحكامه في أنفسهم وفي العباد، كما كان عليه المسلمون في الصدر الأول، فإنك ترى فيه ما يبهج الناظرين، وتقوم به الحجة على المعاندين، وأما النظر إلى

---

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين ص٦٠-٦١

المسلمين التاركين لهدايته وإرشاده وتعاليمه العالية، المنحرفين عنه من وجوه كثيرة، فهذا ظلم ووضع للشيء في غير موضعه، فكما لا يقدح ولا يضر العلوم النافعة إذا انتسب إليها وادّعاها من لم يتصف بها، ولا يحتج بجهالهم على ذم العلم، فهذا أبلغ وأولى، ولهذا كانت الوسيلة الوحيدة إلى عود المسلمين إلى عزهم ومجدهم وكمالهم عودهم إلى دينهم الصحيح، وتمسكهم بإرشاداته الدينية والدنيوية ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥﴾ [الممتحنة: ٥].

فحال المسلمين اليوم في تفرقهم وتشتتهم وتركهم جمهور مقومات دينهم، حتى انحلوا وضعفوا، صار فتنة للكفار والمنافقين، وحجابا حائلا، وشبهة لمن يريد التلبيس، فلا حول ولا قوة إلا بالله العظيم».

والقرآن قد دل على الصناعات وأرشد إليها من حين نزوله قبل أن تكتشفها الحضارة الغربية الحديثة، قال تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل: ٨]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لم يذكر في كتابه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٩٨

إلا مـا يعرفـه العباد أو يعرفـون نظيره، وأما ما ليس له نظيـر، فإنه لو ذكر لم يعرفـوه ولـم يفهمـوا المراد منه، فيذكـر أصلا جامعا يدخل فيـه ما يعلمون ومالا يعلمون».

وكل ما خرج عن هدي المرسلين من العقائد الشركية والبدعية والأقوال والأفعـال الضالة فهو سـفه، قـال تعالـى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠]، فالتنادي لحرية الباطل وحرية الكفر والشـرك وحريـة المقالات الباطلة سـفه في العقول، قال تعالـي مبيّنا أن كل مخالف ومعترض على شرع الله فهو سفيه ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقـرة: ١٤٢]، قـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[١]: «دلت الآيـة على أنه لا يعتـرض علـى أحـكام الله إلا سـفيه جاهل معانـد، وأما الرشـيد المؤمن العاقـل فيتلقـى أحكام ربـه بالقبول والانقياد والتسـليم، كما قـال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحـزاب: ٣٦] ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النسـاء: ٦٥]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١]».

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٦٥

وأسـفه السفه أن يضل الإنسـان عن مقصود خلقه في هذه الأرض، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[الذاريات: ٥٦]، وتجد الله عز وجل ينزه نفسـه عن شرك المشـركين الذين ضلوا عن مقصود استخلافهم في الأرض وهو توحيد الله تبارك وتعالى، فقال سـبحانه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[النحل: ٣].

قـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[١]: «أخبـر أنه ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾، ليسـتدل بهمـا العبـاد علـى عظمـة خالقهمـا وماله من نعوت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكنا لعباده الذين يعبدونه بما يأمرهم به من الشـرائع التي أنزلها على ألسـنة رسله عليهم السلام، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشـركين، فقال ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، أي: تنزّه وتعاظم عن شركهم، فإنه الإله حقا، الذي لا تنبغي العبادة والحب والذل إلا له تعالى».

فالحريـة لأن يعبد الناس ما شـاءوا كيف شـاءوا، والتنـادي لذلك، وأن يقولوا ما شاءوا سفه في العقول، وفساد في المنطق، وضلال في الرأي.

واللـه الواحـد القهار عظمته التـي تجلت في خلق السـموات والأرض ومـا فيهن، بل وفي كل شـيء هل يرتاب عاقل في إسـتحقاقه الألوهية كما تفـرد في الربوبية، ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم: ١٠].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٩٨

فلا يشك ولا يرتاب في إستحقاق الله التفرد بالألوهية إلا سفيه قطعا، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ ٣٩﴾ [الأنعام: ٣٩].

وأعجب من هذا أن أمم الكفر والشرك والضلال مع عظيم شركها وضلالها تنادت بحصر الهدى والحق في مللها، مع أنهم مقيمون على الشرك، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾ [البقرة: ١١١]، فواجب المسلم الموحد الاعتزاز بدينه، والفخر بإسلامه، وبيان الهدى والحق في شرائعه، والتحذير من الشرك والضلال والهوى الذي يخالفه لا الترخيص له بدعوى الحرية.

ومن أعظم نعم الله على عبده أن يكون له من الله كتاب هادي يهتدي به في شؤونه كلها فلا يضل ولا يشقى، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ٨٩﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ٢٣١﴾ [البقرة: ٢٣١]، فواجب المسلم الإعتصام بالكتاب والحكمة والإستظهار بهما على كل هوى وضلال، وإتخاذه ميزانا توزن به الحقائق، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ ١٧﴾الشورى: ١٧، فالله لا يأذن ولا يرخص في أن يقول الناس ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا إلا من جهل نعمة القرآن والسنّة، قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة: ١٥١]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «يذّكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم، أي يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفراء، فانتقلوا ببركة رسالته، وبمن سفارته، إلى حال الأولياء، وسجايا العلماء، فصاروا أعمق الناس علما، وأبرهم قلوبا، وأقلهم تكلفا، وأصدقهم لهجة، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، **وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة،** فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٨]، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يعني بنعمة الله محمدا ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٢]».

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ص١٢٧



الشرع عصمة للخلق من أسباب العطب

لا يجوز ولا يمكن للخلق أن ينسلخوا عن شرع الله، ويقصروه على فعل العبادات فقط، فيجعلوه محصورا في المسجد، ثم يقصدوا إلى صناعة نظريات يعملوها في سياسة شؤونهم يسوسون بها الخلق، فإن ركوب هذا السبيل من أسباب عطب الخلق، فعقول البشر غير معصومة، وتجربة أفكار البشر في سياسة الخلق تعريض لهم للهلكة، فالشرع معصوم دل الخلق على مصالحهم من غير أن يلحقهم ضرر في تجربة سياساتهم، فالله عز وجل أورث آدم وبنيه الأرض، واستخلفهم فيها، وما كان الله ليذر الخلق هكذا بلا كتاب هاد يعصمهم من الزلل، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيْءٖۗ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١].

قال أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن الأشياء المخلوقة في الأرض منه غذاء، ومنه دواء، ومنه سم، والتجربة لاتفي بمعرفتها إلا بعد الأدواء العظيمة، ومع ذلك ففيها خطر على الأكثر، **وفي البعثة فائدة معرفة طبائعها ومنافعها من غير ضرر ولا خطر**».

وانظر كيف عانى الخلق من تجربة الشيوعية، استولى أربابها على أموال الناس وأمموا ممتلكاتهم، وأراقوا دماء الملايين لإخضاعهم لإلحادهم وكفرهم، ثم مضت السنون فقام الشيوعيون بحرب نظريتهم ونقضها.

(١) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الحكماء والمتكلمين ص٥١٦

وهكـذا كان الناس في عهد الحضارات السـابقة التي لم تعتصم بحكمة الوحي، وجرّبت حكمة ساسـاتها، فأوقعتهـم عقولهم في العطب والهلاك والبوار.

قـال العلامـة محمـد الطاهر بن عاشـور رحمه الله[1]: «وعلـوم الحكمة هي مجموع ما أرشـد إليه هـدي الهداة من أهل الوحي الإلهـي الذي هو أصل إصلاح عقول البشر، فكان مبدأ ظهور الحكمة في الأديان، ثم ألحق بها ما أنتجـه ذكاء أهـل العقول من أنظارهم المتفرعة علـى أصول الهدي الأول، وقـد مهّـد قدماءالحكمـاء طرائق مـن الحكمة فنبعـت ينابيـع الحكمة في عصـور متقاربة كانت فيها مخلوطة بالأوهام والتخيلات والضلالات، بين الكلدانيين والمصريين والهنود والصين، ثم درسـها حكماء اليونان فهذّبوا وأبدعوا، وميّزوا علم الحكمة عن غيره، وتوخوا الحق ما استطاعوا فأزالوا أوهامـا عظيمة وأبقـوا كثيرا. وانحصـرت هذه العلوم في طريقتي سـقراط وهي نفسـية، وفيثاغـورس وهي رياضية عقليـة، والأولى يونانيـة، والثانية لإيطاليا اليونانية، وعنهما أخذ أفلاطون، واشـتهر أصحابه بالإشراقيين، ثم أخذ عنه أفضل تلامذته وهو أرسـطاليس وهذّب طريقته ووسّـع العلوم، وسُـميت أتباعه بالمشـائين، ولم تزل الحكمة من وقت ظهوره معولة على أصوله إلى يومنا هذا.

(١) التحرير والتنوير (٣/ ٦٣-٦٤)

﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهو الذي شـاء الله إيتاءه الحكمة، والخير الكثير منجر إليه من سـداد الرأي والهدي الإلهـي، ومـن تفاريع قواعـد الحكمـة التي تعصم مـن الوقوع فـي الغلط والضـلال بمقدار التوغل في فهمهما واسـتحضار مهمها، لأننا إذا تتبعنا ما يحل بالنـاس من المصائب نجد معظمها من جراء الجهالة والضلالة وأفن الرأي، وبعكس ذلـك نجد ما يجتنيه الناس من المنافع والملائمات منجرا مـن المعارف والعلم بالحقائق، ولوا أننا علمنـا الحقائق كلها لا جتنبنا كل ما نراه موقعا في البؤس والشقاء».

وربنا عز وجل خلق الخلق على الفطرة كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «جاءت الرسل وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع سـبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفضيله وزيادته حسـنا إلى حسـنه، فاتفقت شـريعته وفطرته وتطابقا، وتوافقا، وظهر أنهما من مشـكاة واحـدة، فعبدوه وأحبـوه ومجدوه وحمدوه بداعي الفطر، وداعي الشـرع، وداعـي العقل، فاجتمعت لهم الدواعي ونادتهم من كل جهة، ودعتهم إلى وليهم وإلههم وفاطرهم، فأقبلوا إليه بقلوب سليمة لم يعارض خبره عندها

---

(١) بدائع التفسير (٣/ ٣٩٢-٣٩٣)

شـبهة توجب ريبا وشكا، ولا أمره شهوة توجب رغبتها عنه وإيثارها سواه، فأجابـوا دواعي المحبـة والطاعة إذ نـادت بهم: حي على الفـلاح، وبذلوا أنفسهم في مرضاة مولاهم الحق بذل أخي السماح، وحمودا عن الوصول إليه مسـراهم، وإنما يحمد القوم السـرى عند الصبـاح، فدينهم دين الحب وهـو الدين الذي لا إكراه فيه، وسـيرهم سـير المحبين وهـو الذي لا وقفة تعتريه».

وقال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: في محاجة فرعون لما سأله عن ربه ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طـه: ٥٠]، فـكل مخلـوق فطره اللـه على معرفة وحب ما ينفعه، وكراهية وبغض ما يضره، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ [(١)]: «وهـذا الحب والإحسـاس الذي خلقه الله فـي النفوس هو الأصل في كل حسـن وقبـح، وكل حمـد وذم، فإنه لولا الإحسـاس الـذي يعتد به في حـب حبيب وبغض بغيض لما وجدت حركة إرادية أصلا تحرك شـيئا من الحيوان باختياره، ولما كان أمر ونهي وثواب وعقاب، فإن الثواب إنما هو بمـا تحبه النفـوس وتتنعم به، والعقاب إنما هو بمـا تكره النفوس وتتعذب بـه، وذلـك إنما يكون بعد الإحسـاس، فالإحسـاس والحـب والبغض هو أصـل مـا يوجد في الدنيا والآخرة من أمور الحي، وبه حسـن الأمر والنهي والوعد والوعيد.

---

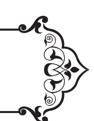
(١) جامع المسائل، المجموعة الخامسة ص١٩٨-١٩٩

وذاك الأمر والنهي والوعد والوعيد هو تكميل للفطرة الطبيعية، والفطرة الطبيعية مبدأ وعون على الإيمان بالشرع والعمل به، والعبد من دان بالدين الذي يصلحه فيكون من أهل العمل الصالح في الآخرة، والشقي من لم يتبع الدين ويعمل العمل الذي جاءت به الشريعة، فهذا هذا، والله أعلم».

فالشيوعيون والرأسماليون والعلمانيون والإلحاديون أتوا بما يضاد شرع الله ويخالف العقل الصريح والفطرة السليمة، فالفطرة السليمة والعقل الصريح يوافق الشرع لا يخالفه، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [هود: ١٧]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «قال ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾: بالوحي الذي أنزل الله فيه المسائل المهمة ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك البيّنة، ﴿وَيَتْلُوهُ ﴾، أي: يتلو هذه البيّنة والبرهان برهان آخر، ﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾: وهو **شاهد الفطرة المستقيمة والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه وعلم بعقله حسنه فازداد بذلك إيمانا إلى إيمانه**».



(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٢٥



الإسلام أسبق في صناعة الحضارة من الغرب



الإسـلام أسـبق إلى الحضارة من الغرب، وهذا بشهادة الغرب أنفسهم، وحضـارة المسـلمين في الأندلس شـاهدة بسـبق المسـلمين فـي العمارة والصناعة.

وآثار الحضارة الإسلامية في الأندلس مازالت باقية، يشاهدها الجميع، فقصر الحمراء بالأندلس مع أنه مبني قبل قرون من قصور الحضارة الغربية فإنه يفوقها جمالا وبناء، وحضارتها تبهر الغربيين، وقد بلغ زوار هذا القصر مليونين سنويا.

وهـذه الحضارة توقـظ بعضاً أو كثيراً من المسـلمين المهزومين نفسـيا كيف أن نور الوحي وعقيدة الإسـلام التي كان منبعه جزيرة العرب في مكة والمدينة قد بلغ قلب أوروبا، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٣٣ ﴾ [التوبة: ٣٣]، وهـذا الوعـد الإلهي باق ماتمسـكنا بالإسـلام وقمنا به، قـال تعالـى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقـال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠ ﴾ [فاطر: ١٠]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «المقصود من

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٤٣٦)

هـذا التهييج طلب العزة من جناب اللـه، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام فـي جملـة عباده المؤمنيـن الذين لهم النصـرة في هذه الحيـاة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد».

فواجب الأمة إستنهاض الهمم للعمل بجد لتحصيل أسباب العزة بتقوى اللـه أولا، ثـم الثقة بنصره ووعده بظهور هذا الدين، وكذلك بأخذ أسـباب الظهور من القوة المادية في صناعة الحضارة المدنية والعسكرية.

قـال العلامـة عبدالله بـن محمد بن حميـد رحمه الله[1]: «لله مـا أعظم هذه الشـريعة وأجلها وأسـماها، وكلما ازداد المرء معرفة بهـا ازداد لها احتراما وتعظيمـا وتوقيـرا، فلذلـك كان الصحابـة رضي الله عنهم لكمـال معرفتهم بها أشـد الناس تمسكا بها وتمشيا مع تعاليمها بكل جليل ودقيق.

وإنـه لمن العجب إعراض أكثـر الناس في هذه الأزمنـة عن تعاليم هذه الشـريعة السـامية الكاملـة، واسـتبدالها أو شـوبها بقوانين وضعيـة ظاهرة التناقـض، واضحة الجور، فاسـدة المعنى، فلذا كثيرا مـا يطرأ عليها التغيير والتبديـل، كل يـرى أنه أحسـن ممن تقدمـه، وأدرى بالمصالح والمفاسـد ممن سبقه، ثم يجري عليها تغييرا وتبديلا بحسب رأيه، وهكذا دواليك، ما بقيت هذه النظم المستمدة من نحاتة الأفكار، وزبالة الأذهان.

---

(١) كمال الشريعة وشمولها لكل ما يحتاجه البشر ص١٣٩ -١٤٤

أما الشريعة الإسلامية، فهي صالحة لكل زمان ومكان، مضى عليها أربعة عشر قرنا، وهي هي في كمالها، ومنا سبتها، وحفظها لكافة أنواع الحقوق لجميع الطبقات، وأهدأ الناس حالا، وأنعمهم بالا، وأقرهم عيشا، أشدهم تمسكابها، سواء في ذلك الأفراد، أو الشعوب، أو الحكومات، وهذا شيء يعرفه كل أحد إذا كان عاقلا منصفا وإن لم يكن من أهلها، بل وإن كان من المناوئين لها.

وقد سمعنا وقرأنا كثيرا مما يدل على ذلك، فقد ذكر بعض عقلاء المستشرقين الذين يكتبون لبيان الحقيقة والواقع لا للسياسة: **أن نشأة أوروبا الحديثة إنما كانت رشاشا من نور الإسلام فاض عليها من الأندلس،** ومن صفحات الكتب التي أخذوها في حروبهم مع المسلمين في الشرق والغرب، وقال القس تايلور: إن الإسلام يمتد في أفريقيا، وتسير الفضائل معه حيث سار، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره، والشجاعة والإقدام من نتائجه.

وقال كونتنس: يمتاز المسلمون على غيرهم برفعة في السجايا، وشرف في الأخلاق، قد طبعته في نفوسهم، ونفوس آبائهم وصايا القرآن، بخلاف غيرهم، فإنهم في سقوط تام من حيث ذلك.

وقال أيضا: إن من أهم النعوت التي يمتاز بها المسلم عزة في النفس، فهو سواء في حالة بؤسه ونعيمه لا يرى العزة إلا لله ولرسوله ﷺ وله،

وهذه الصفة التي غرسـها الإسـلام في نفوسـهم إذا توفرت معها الوسـائل كانـت أعظـم دافع إلى التسـابق إلـى غايـات المدنية الصحيحـة، ورقيات الكمال.

قال هانوتو، وزير خارجية فرنسـا في وقته: إن هذا الدين الإسلامي قائم الدعائـم، ثابت الأركان، وهـو الدين الوحيد الذي أمكـن اعتناق الناس له زمـرا وأفواجـا، وهو الدين الإسـلامي العظيم الذي تفوق شـدة الميل إلى التديـن به كل ميـل إلى اعتناق أي دين سـواه، فلا يوجد مكان على سـطح المعمورة إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده فانتشر في الآفاق.

وقـال بعضهـم: لما رغب المسـلمون عن تعاليم دينهـم وجهلوا حكمه وأحكامـه، وعدلـوا إلى القوانيـن الوضعيـة المتناقصة المسـتمدة من آراء الرجـال، فشـا فيهم فسـاد الأخلاق، فكثـر الكـذب، والنفاق، والتحاسـد والتباغـض، فتفرقـت كلمتهـم، وجهلوا أحوالهـم الحاضرة والمسـتقبلة، وغفلـوا عمـا يضرهـم وما ينفعهـم، وقنعـوا بحيـاة يأكلون فيها ويشـربون وينامـون، ثم لاينافسـون غيرهم في فضيلة، ولكن متـى أمكن لأحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به.

وأقوالهـم في هذا الموضوع كثيـرة جدا يعترفون فيها بعظمة الإسـلام، وشـموله لعمـوم المصالـح ودرء المفاسـد، وأن المسـلمين لـو تمسـكوا بإسـلامهم حقاً لصاروا أرقى الأمم وأسـعد الناس، ولكن ضيّعوا فضاعوا،

واكتفوا منه بمجرد التسمي بأنهم مسلمون.

ومناقب شهد العدو بفضلها، والفضل ما شهدت به الأعداء ولسنا – والحمد لله – في حاجة إلى شهادة هؤلاء وأمثالهم بفضل الإسلام وعلو مكانته، ولكن ذكرنا هذا لمّا قصر أهله في فهمه والعمل به، وعرف منه أعداؤه مالم يعرفه بنوه، إذ جهلوا مصالحه، وتطلعوا إلى غيره من النظم الفاسدة المتناقضة، وأعداؤه يفضلونه ويشهدون له بالكمال، وأنه فوق كل نظام ولا شك أنه الدين الصحيح الكفيل بكل ما يحتاجه البشر على وجه يكفل لهم المصالح، ويدرأ عنهم المفاسد، دين الفطرة السليمة، دين الرقي الحقيقي، دين العدالة بأسمى معانيها، **دين المدنية والحرية بمعناها الصحيح**، دين العمل دين الاجتماع، دين التوادد والتناصح والتحبب، دين رفع ألوية العلم والصنائع والحرف، **لم يقتصر على أحكام العبادات والمعاملات، بل شمل جميع منافع العباد ومصالحهم على مر السنين، وتعاقب الدهور إلى أن تقوم الساعة.**

ولكن ياللأسف ويالمصيبة، إن أبناء هذا الدين جهلوا قدره، وجهلوا حقيقته، بل كثير منهم عادوه، وأصبحوا يدسون عليه معاولهم ليهدموه، وليفرقوا أهله، ويفضلون أهل الغرب على المسلمين ظنا منهم بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة أن الدين هو الذي أخرهم، ولكنهم أخروا

أنفسهم بالإعراض عن تعاليم دينهم، وأخلدوا إلى الكسل وقنعوا بالجهل، فأصبحوا في حيرة من أمرهم.

إنهم لو عرفوا دينهم وطبقوا تعاليمه لوصلوا فوق ما وصل إليه غيرهم من التقدم الصناعي، ولكنهم تركوا دينهم، واقتنعوا بالترف والنعيم، وأهملوا العناية به، فو الله لو أن أهله قاموا بما يجب عليهم لحازوا شرف الدنيا والآخرة».






الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان

الإسلام دين صالح لكل زمان ومكان بلاريب، لأن نبينا محمدا ﷺ بعث للناس كافة، بخلاف النبيين عليهم السلام من قبله فإنهم كانوا يبعثون في أقوامهم خاصة، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾[سبأ: ٢٨]، وفي الصحيحين من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة».

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله مبينا الأصول الموجبة لصلاح الإسلام لكل زمان ومكان[1]: «**المظهر الأول**: إصلاح العقيدة بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، ثم بكون عقيدته مبنية على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختياريا، ثم لتصير تلك الكمالات مطمح أنظار المعتقد في التخلق بها ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتحد مبدأ التخلق فيهم:

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٩٤-١٩٦)

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وكان إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح، ولأنه لا يرجى صلاح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة: خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء، **وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي، لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه.**

ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي: عزة النفس، وأصالة الرأي، وحرية العقل، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل.

وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارًا لا يشبهه فيه دين آخر، بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة، فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلا.

المظهر الثاني: جمعه بين إصلاح النفوس بالتزكية وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع، في حين كان معظم الأديان لايتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفا إلى المواعظ والعبادات.

وقد قرن القرآن المصلحتين في غير ما آية، قال تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧].

المظهر الثالث: اختصاصه بإقامة الحجة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات، وتعليل أحكامه، بالترغيب والترهيب، وذلك رعي لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم، الذي لا يقتنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المرهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر.

المظهر الرابع: أنه جاء بعموم الدعوة لسائر البشر، وهذا شيء لم يسبق في دين الله قبله قط، وفي القرآن ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي الحديث الصحيح «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي - فذكر - وكان الرسول يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، وقد ذكر الله تعالى الرسل كلهم، فذكر أنه أرسلهم إلى أقوامهم.

والاختلاف في كون نوح رسولا إلى جميع أهل الأرض، إنما هو مبني: على أنه بعد الطوفان انحصر أهل الأرض في أتباع نوح، عند القائليتن بعموم الطوفان سائر الأرض، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [هود: ٢٥]، وأياً ما كان احتمال كون سكان الأرض في عصر نوح من ضمهم وطن نوح، فإن عموم دعوته حاصل غير مقصود.

المظهر الخامس: الدوام، ولم يدع رسول من الرسل عليهم السلام أن شريعته دائمة، بل ما من رسول، ولا كتاب، إلا تجد فيه بشارة برسول يأتي من بعده.

المظهر السادس: الإقلال من التفريع في الأحكام، بل تأتي بأصولها، ويترك الفريع لاستنباط المجتهدين، وقد بيّن ذلك أبو إسحاق الشاطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، لتكون الأحكام صالحة لكل زمان.

المظهر السابع: أن المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها، وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينهما وبين خواطر الشرور، لأن الشرور إذا تسربت إلى النفوس، تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين: طريقة مباشرة، وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل، وأحسبها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث «إن الحلال

بيّن، وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس».

المظهر الثامن: الرأفة بالناس حتى في حملهم على مصالحهم بالاقتصار في التشريع على موضع المصلحة، مع تطلب إبراز ذلك التشريع في صورة ليّنة، وفي القرآن ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ١٨٥﴾ [البقرة: ١٨٥]، وفي الحديث «بعثت بالحنيفية السمحة – ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه»، وكانت الشرائع السابقة تحمل على المتابعة بالشدة، فلذلك لم تكن صالحة للبقاء، لأنها روعي فيها حال قساوة أمم في عصور خاصة، ولم تكن بالتي يناسبها ما قُدِّر مصير البشر إليه من رقة الطباع وارتقاء – الأفهام.

المظهر التاسع: امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام، وذلك من خصائصه، إذ لا معنى للتشريع إلا تأسيس قانون للأمة، وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة.

وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة، واتحاد الأمة في العمل والنظام.

المظهر العاشر: صراحة أصول الدين، بحيث يتكرر في القرآن ما تستقرى منه قواطع الشريعة، حتى تكون الشريعة معصومة من التأويلات

الباطلة، والتحريفات التي طرأت على أهل الكتب السابقة، ويزداد هذا بيانا عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠]».

فأعداء الإسلام وشياطين الإنس والجن شنوا الغارة على شرع الله، ووسوسوا للولاة أن تطبيقه حرج وعنت ومشقة، فأورثوا حكام المسلمين الوحشة والنفرة من تطبيقه، وأورثوا الكافرين الإعراض عن الإيمان به وقبوله، وكل هذا من الصد عن سبيل الله، فشريعة الله أساسها العدل والرحمة بالخلق والهداية للتي هي أقوم، ولكن الناس أعداء ما جهلوا.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «ألا وإن من عداوة الشيطان أن يصور لكم دينكم أبشع تصوير، ويصوره لكم بأنه يحبس الحرية ويضيق على العبد ويكلفه بمالا يطيق، ويمنعه من التقدم والانطلاق، إلى غير ذلك مما يوسوس به لكم، ولكن العاقل إذا تأمل أقل تأمل تبيّن له أن دين الإسلام هو دين اليسر والسهولة والتعقل والتقدم النافع والانطلاق إلى الخير.

أيها المسلمون: لقد بني الإسلام على خمسة أركان شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا، وكل هذه الأركان يسيرة سهلة على من يسرها الله عليه، فهل من الصعب أن تشهد بلسانك معتقدا بقلبك بأنه لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

(١) الضياء اللامع من الخطب الجوامع (١/ ٨٦-٨٨)، ط - مكتبة السوادي - جدة

هـل من حبس الحرية أن تكون عبدا لربك الذي خلقك ورزقك وأمدك بمـا تحتاجـه وهيأك وأعدك لما يلزمك من شـؤونك، لا، والله، بل هذا هو الحريـة، وإنمـا حبس الحرية أن تكون عبدا لهـواك أو للدرهم والدينار، أو لفلان وفلان.

أم هـل مـن حبس الحرية أن تكون متبعا لرسـول اللـه ﷺ الذي كانت سنته أفضل سنة، سنة مبنية على القصد بلا غلو ولا تفريط، فليس فيها تهور تكون نتيجته عكسـية، وليس فيها تماوت وتفريط تفوت به الأمور، بل هي طريقة وسـط، لا وكس فيها ولا شـطط، وإن أي إنسـان يتجرد من متابعة نبيـه ﷺ فلابـد أن يكـون متبعا لغيره ممـن ضل عن الصراط المسـتقيم، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

أيهـا النـاس هل من الصعوبـة أن تقوم لله قانتا في كل يـوم وليلة خمس مرات فقط بهذه الصلوات الخمس تتنعم بذكر ربك، وتحيي قلبك بالصلة به، وتسأله ما شئت من حاجات دنياك وآخرتك، وأقرب ما تكون من ربك وأنـت سـاجد، ومع ذلـك فهذه الصلـوات الخمـس لا تسـتغرق إلا جزءاً يسـيراً من وقتك، وهي مفرقة على الساعات في اليوم والليلةحتى لا تتعب بأدائهـا دفعة واحدة، ولئلا تنقطـع الصلة بينك وبين ربك مدة أكثر، ثم هذه الصلـوات لها مـن النتائج الطيبة للقلـب والإيمان والثواب مـا هو معلوم، فالصلوات الخمس مكفرات لما بينهن من الذنوب ما اجتنبت الكبائر.

والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي نور في القلب والوجه والقبر والقيامة.

أيها الناس هل من الصعوبة أن يبذل الإنسان جزءاً من ماله الذي أنعم الله به عليه لمواساة إخوانه الفقراء والغارمين، أو من أجل مصلحة المسلمين والإسلام، فالزكاة أمر يسير من كل مائتي درهم خمسة دراهم، ومن كل عشرين دينارا نصف دينار، فهل في ذلك من مشقة؟! ألم يك في الأنظمة الجائرة أن يكون الإنسان مقيدا في ماله شاركا في كل جزء منه، فاحمدوا الله على نعمة الإسلام، واسألوه أن يثبتكم عليه ويحفظها لكم.

أيها المسلمون هل من المشقة أن يصوم الإنسان شهرا واحدا من السنة، تقربا إلى الله، وتقديرا لنعمته عليه بالغنى وتكميلا لعبوديته بترك ما تشتهيه نفسه لما يرضي ربه ثم مع ذلك للصيام فوائد كثيرة معلومة، أم هل من الصعوبة أن يؤدي العبد فريضة الحج مرة واحدة في العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلا، فيتعبد لله تعالى بأداء المناسك وتعظيم الحرمات والشعائر، ويحصل له الاجتماع بالمسلمين من كل قطر، فيتعرف عليهم ويفيدهم ويفيدونه، ثم من حج البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة.

أيها المسلمون، الإسلام يأمركم بكل تقدم نافع، قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: ١٥]، فأمرنا بالمشي في مناكب الأرض أي جهاتها ثم أمرنا بالأكل من رزقه،

ومعنى ذلك أن نسعى بطلب هذا الرزق، فمنهم من يحصله بالتجارة، ومنهم ومن يحصله بالصناعة، ومنهم من يحصله بالزراعة، ومنهم من يحصله بالعمل إلى غير ذلك من أسباب الرزق، ثم قال تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾، وهذا تحذير من الله لعباده أن يسلكوا في تحصيل رزقهم سبلا حرمها الله عليهم، فإنهم راجعون إليه ومحاسبهم عليها.

فالإسلام دين اليسر والسهولة والمصالح والانطلاق النافع لا صعوبة فيه ولا تهور، ولا خمول ولا فوضى، فنسأل الله تعالى الكريم المنان الواسع الفضل أن يمن عليكم بلزوم الإسلام، والوفاة على الإيمان، إنه جواد كريم».

والحكم في شريعتنا مقاصده عظيمة، أعظمها طاعة الرب ومصلحة الخلق، ليست ملكا يراد به تحقير الخلق، بل إستخلاف في الأرض بشرع الرب لتجري أحوال العباد على أحسن ما يكون، ولذلك من يلي الخلافة والحكم من ولاة المسلمين الناصحين إنما يتولى ذلك ديانة وقربة وطاعة لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله ﷺ من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حال أكثر الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها، وقدروى كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال أو الشرف لدينه»، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، فأخبر ﷺ أن حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه، مثل - أو أكثر - من فساد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن الذي يؤتى كتابه بشماله أنه يقول: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٨ - ٢٩].

وغاية مريد الرياسة أن يكون كفرعون، وجامع المال أن يكون كقارون، وقد بيّن الله سبحانه وتعالى في كتابه حال فرعون وقارون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ۝٢١﴾ [غافر: ٢١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص: ٨٣]، فإن الناس أربعة أقسام:

القسم الأول: يريدون العلو على الناس، والفساد في الأرض، وهو معصية الله، وهؤلاء الملوك والرؤساء المفسدون كفرعون وحزبه، وهؤلاء

(١) السياسة الشرعية ص٢٣١-٢٣٤

هم شـرار الخلق، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤ ﴾[القصص: ٤]، وروى مسـلم في صحيحه عن ابن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة كبر، ولا يدخل النارمن في قلبه ذرة من إيمان، فقال رجل: يارسـول الله! إني أحب أن يكون ثوبي حسنا، ونعلي حسنا، أفمن الكبر ذاك؟

قـال: لا، إن اللـه جميـل يحـب الجمـال، الكبـر: بطـر الحـق، وغمـط الناس».

فبطـر الحق: دفعه وجحده، وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم، وهذا حال من يريد العلو والفساد.

والقسم الثاني: الذين يريد الفساد بلا علو كالسراق المجرمين من سفلة الناس.

والقسـم الثالث: يريـد العلو بلا فسـاد، كالذين عندهم ديـن يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس.

وأما القسـم الرابع: فهـم أهل الجنة، الذين لا يريـدون علواً في الأرض ولا فسـادا، مـع أنهم قد يكونـون أعلى مـن غيرهم، كما قال الله سـبحانه وتعالـى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾[آل عمران:

١٣٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾ ﴾ [محمد: ٣٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون: ٨].

فكم ممن يريد العلو ولا يزيده ذلك إلا سفولا، وكم ممن جعل من الأعلين وهو لا يريد العلو والفساد، وذلك لأن إرادة العلو على الخلق ظلم، لأن الناس من جنس واحد، فإرادة الإنسان أن يكون هو الأعلى ونظيره تحته ظلم، ومع إنه ظلم فالناس يبغضون من يكون كذلك ويعادونه، لأن العادل منهم لا يحب أن يكون مقهورا لنظيره، وغير العادل منهم يؤثر أن يكون هو القاهر.

ثم إنه مع هذا لابد له في العقل والدين من أن يكون بعضهم فوق بعض، كما قدمناه، كما أن الجسد لا يصلح إلا برأس، قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فجاءت الشريعة بصرف السلطان والمال في سبيل الله، فإذا كان المقصود بالسلطان والمال هو التقرب إلى الله، وإنفاق ذلك في سبيله،

كان ذلك صلاح الدين والدنيا، **وإن انفرد السلطان عن الدين، أو الدين عن السلطان، فسدت أحوال الناس**».

فمن علم أن الشرع منزل من عند الله العزيز الحكيم واجبه الإنقياد له لا المحادة والمضادة وتشريع قانون يضاهي شرع الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورى: ٢١]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شيا طينهم من الجن والإنس من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، وتحليل أكل الميتة والدم والقمار إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي كانوا قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «رأيت عمرو ابن لحي بن قمعة يجري قصبه في النار»، لأنه أول من سيّب السوائب، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشا على عبادة الأصنام - لعنه الله وقبحه - ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۗ﴾، أي لعولجوا بالعقوبة ولولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد، ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير».

(١) تفسير القرآن العظيم ص١٢٢١

وقال شيخنا العلامة محمد الصالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «ليس لنا أن نشرع في دين الله ما ليس منه، لا في العبادات ولا في المعاملات، وأما من قال: إن لنا أن نشرع في المعاملات ما يناسب الوقت، فهذا قول باطل: لأنه على قولهم لنا أن نجوّز الربا، ولنا أن نجوّز الميسر، وأن نجوّز كل ما فيه الكسب ولو كان باطلا، فالشرع صالح في كل زمان ومكان ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها».



(١) تفسير سورة الكهف ص٥٤-٥٥



شهادة اليهود على كمال شريعة الإسلام

لا نحتاج إلى شهادة اليهود على كمال شريعتنا، فكمال الشريعة في صدق أخبارها وعدل أحكامها ينادي عليها بالكمال، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

ولا نحتاج لشهادة اليهود لأن شهادة الله وملائكته ورسله لا توازيها شهادة، قال تعالى: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦].

واليهود ليسوا عدولا حتى نشهدهم على شريعتنا، وإنما نذكر شهادتهم من باب إلزامهم الحجة بما شهدوا على أنفسهم، لأنهم أكثر عنادا ومعارضة للحق، وينسبون أنفسهم للعلم، ويزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه، فإذا جاءت من قبلهم الشهادة بكمال شريعة الإسلام كان ذلك أعظم إقرارا وإلزاما لكل كافر بما شهدوا به.

فقد جاء رجل من اليهود إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال له: إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لا تخذنا ذلك اليوم عيدا، قال: وأي آية؟ قال: قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]، فقال عمر رضي الله عنه: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت

على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ عشية عرفة في يوم جمعة[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «فإن الذي عند المسلمين: من توحيد الله ومعرفة أسمائه وصفاته، وملائكته وأنبيائه ورسله، ومعرفة اليوم الآخر، وصفة الجنة والنار والثواب والعقاب، والوعد والوعيد: أعظم وأجل بكثير مما عند اليهود والنصارى، وهذا بيّن لكل من يبحث عن ذلك.

وما عند المسلمين من العبادات الظاهرة والباطنة: مثل الصلوات الخمس، وغيرها من الصلوات، والأذكار والدعوات: أعظم وأجل مما عند أهل الكتاب، وما عندهم من الشريعة في المعاملات، والمناكحات والأحكام والحدود والعقوبات: أعظم وأجل مما عند أهل الكتاب.

فالمسلمون فوقهم في كل علم نافع، وعمل صالح، وهذا يظهر لكل أحد بأدنى نظر، لا يحتاج إلى كثير سعي.

والمسلمون متفقون على أن كل هدى وخير يحصل لهم: فإنما حصل بنبيهم ﷺ، فكيف يمكن مع هذا أن يكون موسى وعيسى

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه (ص ١١ - رقم ٤٥)، ومسلم كتاب التفسير باب في تفسير آيات متفرقة (ص ١٣٠٥ - رقم ٧٥٢٥)

(٢) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٠٢-٢٠٣)

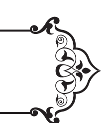
نبيين، ومحمد ﷺ ليس بنبي؟! وأن اليهود والنصارى على الحق؟ فماهم عليه من الهدى ودين الحق أعظم مما عند اليهود والنصارى، وذلك إنماتلقوه من نبيهم.

وهذا القدر يعترف به كل عاقل - من اليهود والنصارى - يعترفون بأن دين المسلمين حق، وأن محمدا رسول الله ﷺ، وأن من أطاعه منهم دخل الجنة، بل يعترفون بأن دين الإسلام خير من دينهم، كما أطبقت على ذلك الفلاسفة، كما قال ابن سينا وغيره: أجمع فلاسفة العالم على أنه لا يقرع العالم ناموس أعظم من هذا الناموس».

وهنا ننبّه ضرورة إلى وجوب أن يأتم أهل الكتاب بالقرآن الذي أنزله الله على خاتم الأنبياء ﷺ لأن كتبهم حرّفوها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴿١٥﴾ ﴾[المائدة: ١٥]،، ولأن أنبياؤهم بشروا برسولنا ﷺ وأمروا باتباعه ﴿ **ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ ﴿١٥٧﴾** ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ولأن الله نسخ بشريعة الإسلام الشرائع السابقة ﴿ **وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾** ﴾[آل عمران: ٨٥ - ٨٦]، وفي

صحيح مسلم من حديث أبي هريرة ﵁ قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

❊ ❊ ❊

حرية الأقوال والأفعال شقاء وضلال

الهدى نور وحكمة وصلاح، وهذا الذي شرعه الله لخلقه، والهوى شقاء وضلال لذلك حرّمه الله، وكل عاقل يدرك فرق ما بين نور الوحي وهداه، وشقاء الهوى وفساده، فآثار النبوة في الأرض خير وهدى وصلاح ورحمة، وآثار الهوى والحريات المذمومة شقاء وفساد في الأرض.

قال تعالى: في شأن القرآن ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧﴾ [النمل: ٧٧]، وقال تعالى: في شأن أحكامه وأوامره ونواهيه الشرعية ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ٧٨﴾ [الحج: ٧٨]، فما يأمر الله به وما ينهى عنه كله خير وصلاح ورحمة وليست أغلالا تقيد حريات الناس، بل هي أوامر ونواهي بلا أغلال وفق إستطاعة الخلق ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ٢٨٦﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وفوق هذا هي لمصلحتهم ورحمة بهم.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إن هذه الأحكام وغيرها من محاسن الدين الإسلامي، لما فيها من المنافع للعباد في قلوبهم وأبدانهم وأخلاقهم، والتقرب بها إلى الله، والتوسل بها إلى ثوابه العاجل والآجل، فجميع الأحكام من أكبر الأدلة على حسن دين الإسلام، وأنه الدين الحق الذي فيه الصلاح والإصلاح، وأن سعادة الدينا والآخرة منوطة به، مترتبة

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص١٠٢

عليه، فتأمل أحكام الله وما فيها من الحكم والأسرار والمنافع ودفع المضار تجد هذا مشاهدا فيها».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «والضلال والشقاء هو خلاف الهدى والفلاح الذي أخبر به عن المتقين الذين يهتدون بالكتاب، حيث قال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ٢-٥]، والضلال والشقاء هو أمر الضالين والمغضوب عليهم المذكورين في قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧]، وقد قال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون»، فإن اليهود عرفوا الحق ولم يعملوا به، والنصارى عبدوا الله بغير علم.

ومن عرف الحق ولم يعمل به كان متبعا لهواه، واتباع الهوى هو الغي، ومن عمل بغير علم كان ضالا.

ولهذا نزّه الله نبيه ﷺ عن الضلال والغي بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١ - ٢]، قال تعالى: في صفة أهل الغي ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ

(١) جامع المسائل، المجموعة الرابعة ص٤٩-٥١

سَبِيلًا ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥]، وقال في الضلال ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

والعبد إذا عمل بما علم ورثّه الله علم مالم يعلم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٦].

فإذا ترك العمل بعلمه عاقبه الله بأن أضله عن الهدى الذي يعرفه، كما قال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠]».

***





الأقوال الباطلة تفسد الأذهان والإدراكات

ترك الناس يهرفون بما لا يعرفون، ويتكلمون بالباطل والضلال بدعوى الحرية هذا يؤول إلى إفساد مدارك الناس وأذهانهم سواء قصد الإنسان ذلك أو لم يقصد، والواجب أن تصحح عقائد الناس وتصوراتهم وتعوّد تعلم الحق وقوله، وتصحح الأذهان على سلوك الطرق العاصمة من الضلال والزلل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «ففي الإدمان على معرفة ذلك تعتاد النفس العلم الصحيح، والقضايا الصحيحة الصادقة، والقياس المستقيم، فيكون في ذلك تصحيح الذهن والإدراك، وتعوّد النفس أنها تعلم الحق وتقوله، لتستعين بذلك على المعرفة التي هي فوق ذلك».

فالدعوة إلى الترخيص لضلالات الاعتقادات والمقالات بدعوى الحرية هي دعوة لإفساد مدارك الناس وعقولهم وأديانهم، وهي دعوة سفه وضلال مضادة للفطرة والعقل الصريح والوحي المعصوم، وإن من العجب أن يكسى هذا السفه والحمق زي الإصلاح والتنوير والتجديد!!! فالمؤمنون لا يرتابون أن الأحمق هو الذي يقول الباطل ويدعو إليه، وإن

---

(١) مجموع الفتاوى (٩/ ١٢٨)

السفيه هو الذي يقول القول المنكر الباطل، وأن من جعل هذا حضارة وطريقا للتقدم هو من أضل خلق الله، ولا يتبعه إلا ضعيف العقل سمع الناس يقولون شيئا فقاله، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه.





العلمانية قارونية

كيف يتعالى مخلوق على خالقه، ونسي أنه أوجده من العدم وأن الله هو الحي القيوم؟! قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧].

والله عز وجل له المنة على عباده في خلقهم وتعليمهم، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

وواجب الإنسان الذي علمه الله البيان، وخلق فيه أسباب الإدراك والعلم والفهم من حواس السمع والبصر والعقل شكر الله على نعمه واستعمالها في طاعته ولزوم أمره ونهيه، لا الغرور والتكبر عن الله والخروج عن نظامه الإلهي الذي جعله قانونا للبشرية لمصلحتها.

والعلمانيون أسوتهم في التنكر لتعليم الله لهم مالم يعلموا قارون فإنه كما قال الله عز وجل عنه ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [القصص: ٧٨].

واغترار العلمانيين بانجازاتهم العلمية بلغ ذروته في هذا العصر، فقد جالت سفنهم الفضائية في السماء، وساروا بها من أقصى الغرب إلى

الشـرق ومـع هذا فلا يمكنهم تغيير شـيء مـن ناموس الله وسـنته في كونه وخلقـه، وهذا كله دال بلاريب على أنهم عبيد للـه مقهورون بربوبيته، قال تعالـى: ﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ [ص: ١٠ - ١١].

قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله[١]: «﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾، حتـى يتَّكلوا في الأمور الربانيـة، ويتحكموا في الحكم الإلهية، ويتصرفوا في التدابير التي يختص بها الخالق المالك.

ثم رشـح ذلـك تهكما بهم فقـال تعالـى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾، أي: إن كانوا يصلحون لهذا الشـأن العظيم وبأيديهم الخزائن، ولهم الملك وزمام التصـرف والتدبيـر علـى وفق الحكمـة والمصلحـة، وهو مفـوض إليهم، فليرتقوا في الأسـباب، أي: فليصعدوا في معارج العالم العلوي، وليستووا علـى العرش ويتوصلـوا إلى ملكوت السـموات والأرض، وينزلوا الوحي على من يشاؤون، ويخصوا بالشرف من يختارون».

وهيهات لسـفن الكافرين الفضائية أن يبلغوا عرش الرحمن أو يستطعوا إليه سبيلا!!

فواجب الخلق جميعا والعلماء خصوصا استشعار منّة ونعمة الله عليهم في تعليمهم أنواع العلوم، واستعمالها في طاعة الله.

---

(١) رموز الكنوز (/ ٤٥٤-٤٥٥)

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٥]، لم تزل حقيقة الكهرباء ونتائجها الباهرة، وأعمالها العجيبة في طي الخفاء والكتمان، ولم يصل إليها في غابر الأزمان علم أي إنسان، حتى ترقت معارف الناس وعلومهم الطبيعية، فوصلوا إلى هذا الأمر العظيم والكنز الثمين، وهو استخراج الكهرباء من المواد الأرضية والمائية والنارية وغيرها من المواد المتنوعة، فحققوا علمها، وفرعو نتائجها، واخترعوا فروعها بعد ما أتقنوا أصولها، فأوجدوا بها المخترعات الباهرة، والصنائع الفائقة، وأوصلوا بها الأنوار والأصوات من المحال المتباعدة، والأقطار الشاسعة في أسرع من لمح البصر، وكم ولدوا بها من أمور تبهر عقول العالمين، ومازالوا، ولا يزالون في ترقية مخترعاتها وتفريعها».

فمن هدى الإنسان إلى هذه العلوم والمعارف؟!

إنه الله، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨]، فواجب الإنسان إستشعار منّة الله عليه في هدايته لهذه العلوم، وشكر الله على ذلك بإضافة الفضل إليه، وعدم الخروج عن شرعه، وإستعمال نعمه والمخترعات التي هدينا إليها في طاعة الله.

* * *

(١) المختارات الجلية ص٢١٠



الشريعة حراسة للفرد من الحرية المهلكة

الإنسان ولو ترك ونوازعه فإنه قد يصول على مجتمعه والناس بالعدوان والظلم والأذى، ويتحامق بعض الخلق في أذى نفسه فضلا عن أذى غيره، وقد يقول قائل: أو يعقل أن يسعى الإنسان في أذى نفسه؟

فنقول: نعم، بل قد يُلحق بها أعلى أنواع الأذى، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [النساء: ٢٩].

فالنفس أودع الله فيها نوازع الخير والشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ - ٨]، لذلك جاءت شريعة الإسلام لحراسة الفرد والمجتمع من الحرية المهلكة، ولأن بعض الخلائق لا يكفيه الوازع الديني عن الإنتهاء عن الممنوعات فإن الله جعل للخليفة في الأرض من السلطة والولاية ما يكف الناس عن الحريات المهلكة، كما قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[1]: «فلأجل ذلك كله كان الإصلاح بحاجة إلى ما يُشبه الحارس يذب عن النفس ما يتسرب إليها من دواعي نقض الإصلاح، وإن شئت فقل من دواعي الفساد».

(١) أصول النظام الإجتماعي في الإسلام ص٧٥

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور أيضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «هذه الحراسة هي إيجاد وازع في النفس يزعها أي: يمنعها عن الانحراف عما اكتسبته من الصلاح حتى يصير تخلقها بذلك دائما وشبيها بالاختياري.

الوازع اسم غلب إطلاقه على ما يزع من عمل السوء.

وقد تبيّن لي أن إيجاد هذا الوازع هو الذي تمحضت به الشرائع الإلهية المعصومة لدوام الصلاح المبثوث منها ولسرعة مفعوله في النفس، بخلاف بقية التعاليم والشرائع الوضعية، فإن الذي يأتيه المرء من الأفعال الذميمة الناقضة للأعمال الصالحة في أوقات قصيرة أو طويلة إما أن يكون مما شأنه أن لا يشعر به الناس كالأعمال الخاصة بالإنسان في نفسه، وهذا النوع محتاج إلى إقامة الوازع لا محالة، إذ لا حائل بين النفس وبين الوقوع فيه.

وإما أن يكون مما شأنه أن يظهر فينكره الناس، وهذا يقدم عليه الناس بطريقتين، فأما أصحاب الدعارة والجسارة فيقدمون عليه غير مكترثين بالقالة.

كما قال بشار:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته　　　وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

---

(١) أصول النظام الإجتماعي في الإسلام ص٧٦

وهذا القسم وازعه الحكومة وسنتكلم عليها في الإصلاح الإجتماعي.

وأما أهل البقية من المروءة والسيادة فقد يقدمون على الأفعال الذميمة مخفية في أعماد من المحاسن، ذلك أن النفوس البشرية مهما بلغت من الشر والشره لا تخلو في أصل الفطرة عن نزعات خيرية تصير إليها وتظهر آثارها منها عند عدم يعارضها من دواع نفسانية أو وساوس شيطانية، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٤ – ٥].



حقوق الإنسان

الحقوق في شريعة الله حقوق عدل ورحمة لأنها من عند الله، والله لا يأمر إلا بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴿٩٠﴾﴾[النحل: ٩٠]، ونجد أن الحقوق أنواع: حق الله الخالص في توحيده، فلا يشرك معه أحد، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾[لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴿٣﴾﴾[الزمر: ٣].

ونجد أن الله عظّم حرمات الخلق بقاعدة العدل وتحريم الظلم، فقال الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «ياعبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا»(١).

وقال نبيّنا ﷺ معظما حرمات الناس في أعظم جمع في حجة الوداع «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا»(٢).

وكذلك عظّم حرمة المعاهد من البشر ولو كان يخالفنا في الاعتقاد كما في حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة»(٣).

---

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة باب تحريم الظلم (ص ١١٢٨ – رقم ٦٥٧٢)

(٢) رواه البخاري كتاب الحج باب الخطبة أيام منى (ص ٢٨٠ – رقم ١٧٣٩)، ومسلم كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ (ص ٥١٥ – رقم ٢٩٥٠)

(٣) رواه البخاري كتاب الجزية والموادعة باب إثم من قتل معاهدا (ص ٥٢٧ – رقم ٣١٦٦)

وكذلك عظّم الإسلام حرمة الحيوان فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها، لا هي التي أطعمتها، ولا هي التي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[(١)].

وأحكام الله كما ترى غاية في العدل، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]، وجهد أعداء الإسلام في الطعن في تشريعات الإسلام فلم يظفروا بشيء، لأن الله هو الحق المبين.

وإذا كان الإنسان يطلب حقه ولا يرضى بالعدوان عليه، واجبه أن يحفظ حق الله في توحيده وأمره ونهيه ولا يبطل ذلك بدعوى الحرية، ففي الصحيحين من حديث معاذ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حق الله على العباد أن لا يشركوا به شيئا وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئا».

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري كتاب بدء الخلق باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه (ص ٥٥١ - رقم ٣٣١٨)، ومسلم كتاب البر والصلة باب تحريم تهذيب الهرة ونحوها (ص ١١٤٣ - رقم ٦٦٧٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما



الحد الفاصل بين الحرية النافعة والحرية الضارة

الشرع جاء بما يحفظ على الناس أديانهم خصوصا عقائدهم وأخلاقهم، وما يوجب كف عدوان الناس بعضهم عن بعض، فلم يطلق للناس الحرية أن يتكلموا بالكلام الباطل، ولا أن يشيعوا المقالات والاعتقادات الكفرية والبدعية، ولا أن يصول بعضهم على بعض في دم أو عرض، ولو حصل ذلك لفسدت الأرض.

فالله عز وجل أمرنا بسداد القول، وهو متضمن التحذير من كل قول ضال مبتدع غير سديد، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]، فكل قول غير سديد فليس من تقوى الله، وما كان كذلك فلا يكون صلاحا ولا إصلاحا، بل هو الفساد والغي والضلال.

فتأمل جواب الشرط ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾، فهو دال بوضوح على أنه لا صلاح مع الأقوال الغير سديدة.

والله عز وجل يقول: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢]، والحق هو الوحي شرع الله المعصوم، فما خالفه فهو باطل قطعا.

بل إن الشرع جاء بالأخذ على يد من قصد إلى المضارة بعقائد أو أخلاق الناس، أو صال على دمائهم وأعراضهم، فعن النعمان ابن

بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعا»[١].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «ومن الآيات المتعلقة بالسياسة الشرعية: جميع ما شرعه الله من الحدود على الجرائم، والعقوبات على المتجرئين على حقوقه وحقوق عباده، وهي في غاية العدالة والحسن، وردع المجرمين، والنكال والتخويف لأهل الشر والفساد، وفيها صيانة لدماء الخلق، وأموالهم، وأعراضهم، والآيات التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتكلم بالحق مع من كان، وفي أي حال من الأحوال، وكذلك ما فيه من النهي عن الظلم فيه **إرشاد للحرية النافعة، التي معناها التكلم بالحق، وفي الأمور التي لا محذور فيها، كما أن الحدود والعقوبات، والنهى عن الكلام القبيح، والفعل القبيح، فيها رد الحرية الباطلة، فإن ميزان الحرية الصحية النافعة: هو ما أرشد إليه القرآن، وأما إطلاق عنان الجهل والضلال، والأقوال الضارة للمجتمع، المحللة**

(١) رواه البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه؟ (ص٤٠٣ - رقم ٢٤٩٣)

(٢) القواعد الحسان ص٩٣

للأخلاق، فإنها من أكبر أسباب الشر والفساد، وانحلال الأمور، والفوضوية المحضة، فنتائج الحرية الصحيحة أحسن النتائج، ونتائج الحرية الفاسدة أقبح النتائج، فالشارع فتح الباب للأولى، وأغلقه عن الثانية، تحصيلا للمصالح، ودفعا للمضار والمفاسد، والله أعلم».

وقال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله[1]: «صرعى التقليد للحضارة الغربية الذين استرقتهم الشهوات فاستباحوا المحرمات، باسم الحرية فبغوا على الضعفاء وسلبوا أوطانهم، وسموا بغيهم استعمارا.

إن من الظلم والحيف والغش والفساد في الأرض تسمية الأشياء بغير أسمائها، لأنه قطع للأسباب عن مسبباتها، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧]، إن منه قطع الدوال عن مدلولاتها، وإن أعظم شرور هذه الحضارة الغربية أنها فتحت الباب لهذا النوع من المسخ وشجعت عليه، فأفسدت الفطرة، والضمير الذي سماه محمد ﷺ «وازع الله في نفس المؤمن».

والتحرير الذي جاء به الإسلام شامل لكل ما تقوم به الحياة وتصلح عليه المعاني والأشخاص، والدين الإسلامي لا يفهم التحرير بالمعنى الضيّق، وإنما يفهمه على أنه كل إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف، أو

(١) الآثار (٤/ ٣٥٨-٣٦١)

انصاف لضعيف من قوي، أو نقل شيء من غير نصابه إلى نصابه، قالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها حينما بعث لها أبوها بجارية تقوم لها بعلف الفرس: فكأنما أعتقني.

حرّر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفس البشرية، والعقل هو القوة المميّزة للمتضادات والمتنافرات التي بني عليها ولذلك جعله مناطا للتكاليف الدينية والدنيوية، وقد يطرأ عليه ما يطرأ على الموازين المادية من الاختلال فيتعطل أو ينعكس إدراكه، والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرر أن إدراك الحقائق العليا في الدين والكون إنما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسددة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية بل إلى أحط من الحيوانية، ففي القرآن العظيم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ولهذه المنزلة التي وضع الإسلام العقل فيها حماه من المؤثرات والأمراض والعوائق، وأحط دركة يرتكس فيها العقل هو الوثنية، فهي أكبر معطل له عن أداء وظيفته حين لا يسموا إلى الجولان في العوالم الروحية وحين تفتنه الماديات بظواهرها من طريق الجوارح الحسية.

أعلن الإسلام من أول يوم حربا شعواء على الوثنية بجميع أنواعها، وهي أشد ما كانت سلطانا على النفوس، وتغلغلا فيها، وإفسادا لفطرة الخير واطفاءً لنورها، حتى اجتثها ومحا آثارها من النفوس ومن الآفاق، وعمّر مكانها بالتوحيد.

أتدرون السر في تلك الحملات على الوثنية؟

هو تحرير العقل من نفوذها وسلطانها حتى يواجه أمانة الدين الجديد صحيحا معافى، ويؤدي الوظيفة التي خُلق لأدائها، وما هدم أصحاب محمد ﷺ. الأصنام بأيديهم إلا بعد أن هدم محمد الوثنية في نفوسهم، وبعد أن بنى عقولهم من جديد على صخرة التوحيد، ولولا ذلك لما أقدم خالد رضي الله عنه على هدم طاغية ثقيف.

وحرّر الخلطاء[1] بعضهم ببعض بما شرعه من أحكام عادلة تقوم بالقسط، وترفع الحيف والظلم، ووقف بكل واحد عند حده، وحفظ له حقوقه.

فحدّ الحدود بين المرأة والرجل، وبين المحكوم والحاكم، وبين الفقير والغني، وبين العبيد والسادة، وبين العمال وأصحاب المال، وهذه الأنواع من التحرير تناولتها النصوص القطعية من القرآن والأحاديث، واكتنفتها في صلب النصوص مؤثرات من الترغيب والترهيب تزيدها قوة ورسوخا في النفس، فأما تحرير المحكومين من الحاكمين فلا مطمع أن يأتي فيه على وجه الدهر ما جاء به الإسلام من شرائع العدل والإحسان والشورى والرفق والرحمة وعدم المحاباة حتى في النظرة والكلمة والمجلس.

---

(١) البشر.

وأول ما يسترعي النظر من ذلك سيرة محمد ﷺ وأقضيته في حياته، وما أدّبه به ربه من مثل قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴿٤٩﴾﴾ [المائدة: ٤٩]، ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنعام: ٦٦]، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢٢]، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥]، ثم سيرة الخلفاء الراشدين في الحكم، فإنها كانت مثالا من أحكام النبوة التي هي وحي يوحى، وإن الأمثلة التي ضربها عمر رضي الله عنه في إقامة العدل وقوة الأضطلاع، لأمثلة خالدة على الدهر، فاق بها من قبله، وأعجز من بعده، وما أروع قوله «من رأى منكم في أعوجاجا فليقومه»، وأروع منه قول مجيب من أفراد الرعية: لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا[1]، وأبلغ منهما في الروعة أن يحمد عمر رضي الله عنه ربه على أن يكون في أمة محمد ﷺ من يقوم عمر بسيفه.

والتشريع الإسلامي تشريع متصل الحلقات من العقائد والعبادات إلى الآداب والمعاملات، وكله يرمي إلى غاية واحدة، وهي انشاء أمة متحدة المباديء والغايات، متناسقة ما بينها، لتحمل الأمانة كاملة صحيحة إلى الأجيال اللاحقة، وقد تم للإسلام ما أراد عدة قرون، ومازلنا - بحمد الله - نحمل بقايا من ذلك، ولولاها لكنا في الغابرين.

(١) تواترت الأحاديث في صفة معاملة الولاة المسلمين بعدم الخروج عليهم والصبر عليهم ونصيحتهم بالمعروف، فأقوال الصحابة متأخرة الرتبة عن السنة لا تقدّم عليها، ولعل الصحابي أراد المبالغة في حمل الخليفة على حرف الشريعة.
وعمر رضي الله عنه نفسه قال لسويد بن غفلة: «لا أدري لعلّك أن تُخلَّف بعدي، فأطع الإمام، وإن أمَّر عليك عبد حبشي مُجدَّع، وإن ظلمك فاصبر، وإن حرمك فاصبر، وإن دعاك إلى أمر ينقصك في دنياك، فقل: سمعا وطاعة، دمي دون ديني». ومعنى «دمي دون ديني»، يعني أصبر على ديني فالطاعة في المعروف، ولا ننزع يدا من طاعة ولا نفارق الجماعة، لكن لا أطيعه في معصية الله، كما شرح الآجري عبارة عمر رضي الله عنه في الشريعة (١/ ١٦١ - ١٦٢).

وحرّر الإسلام الفقير من الغني، فجعل للفقراء حقا معلوما في أموال الأغنياء، ووجه التحرير هنا أن الفقير كان يسأل الغني فيعطيه أو يحرمه تبعا لخلقه من تسهيل أو كزازة، فإذا أعطاه شيئا أخذه على أنه مكرمة ممنونة، تجرح نفسه، وإن أشبعت بطنه، ولكن الإسلام ألزم الغني بدفع الزكاة للفقير وسماها حقا معلوما، وتسمية هذا المال حقا لله تشعر الغني بالرضا والتسليم والاطمئنان إلى إخلافه ومضاعفته، وترفع عن الفقير غضاضة الاستجداء وهانة السؤال، وتطهر نفسه مع ذلك من رذيلة الحقد على الغني، وهذا الحقد هو أساس الشيوعية، ومن عجائب الإسلام في إدخال التربية النفسية في الأحكام، أنه لا يأمر بشيء ولا ينهى عن شيء من العمليات إلا بعد أن يُمهّد للنفس ويعمرها بخوف الله وحده، ويقنعها بالآثار التي تترتب على المأمور به أو المنهي عنه، فإذا جاء دور العمل كانت النفس مطمئنة بالعلم وراضية بالعمل مهما شق، ولهذا كانت عقائد الإسلام وعباداته وأحكامه وآدابه كلها مترابطة وكلها متعاونة على تهذيب المسلم، ولهذا السر أيضا صلح شأن المسلمين الأولين، لأنهم أقاموا الدين كله، عينيا في العينيات، وكفائيا في الكفائيات، وكانوا لا يتهاونون في الصغيرة احتياطا للكبيرة، ومن أوامر القرآن ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

وحرّر الإسلام الحيوان الأعجم من الإنسان، وحرّم عليه أن يُحمّله مالا يطيق من الأحمال والأعمال، وأن يجيعه أو يعطشه، فإذا فعل به شيئا

مـن ذلك بيع عليـه جبرا بحكم الحاكم، وأوصى في الرفق بالحيوان وصايا زاجـرة، وفـي حديث نبوي أن امرأة دخلت النار بسـبب هرة أمسـكتها فلم تطعمهـا ولـم تدعها تـأكل خشـاش الأرض، وإن امرأة عاصيـة لله دخلت الجنة بسـبب كلب وجدته يلهث عطشا على حف بئر فأدلت خفها وسقته، **وما من شـيء تفعلـه جمعيات الرفق بالحيوان في هذا العصر إلا وقد سـبق الإسلام إلى أكمل منه.**

وحرّر الإسـلام المرأة من ظلم الرجال وتحكمهم، فقد كانت المرأة في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسـانية، بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكم فيها أهواء الرجـال، وتتصرف فيها الاعتبارات العادية المجردة من العقل، فهي حينا متاع يتخطف، وهي تارة كرة تتلقف، تعتبر أداة للنسـل أو مطية للشـهوات، وربما كانـت حالتها عند العرب أحسـن، ومنزلتها أرفع، يـرون فيه عاملا من عوامـل ترقيق العواطف وإرهاف النفس، ودواء لكثافة الطبـع وبلادة الحـس، ويجدون فيهـا معاني جليلة من السـمو الإنسـاني، وأشـعارهم - على كثرتها، - عامرة بالاعتراف بسلطان المرأة على قلوبهم وبشـرح المعاني العالية التي يجدونها فيها، ولا عبرة بما شاع عنهم من وأد البنـات، فإنـه لم يكن عاما فاشـيا فيهم، وتعليله عند فاعليه يشـعر أنه نتيجة حـب طغى حتـى انحرف، وأثر عقل أسـرف فـي تقدير العواقـب لا نتيجة كراهيـة نوع الأنثـى، وعلى كل حال فالـوأد خطأ كبير[1]، وجريمة شـنيعة،

(١) وأد أهل الجاهلية للبنات كان خشية العار، ولم يكن يفعله كلهم بدليل بقاء نسلهم ونساءهم.

وشـذوذ في أحكام الرجال خارج عن نطاق الانسـانية، وحسبه تسفيه قوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ۝٥٩﴾ [النحل: ٥٩].

فجـاء الإسـلام فنبّه على منزلتها وشـرفها وكـرّم جنسـها، وأعطاها كل ما يناسـب قوتها العقلية وتركيبها الجسـمي وسـوّى بينهـا وبين الرجل في التكاليف الدينية، وخاطبها بذلك استقلالا تشريفا لها، وإبرازا لشخصيتها، ولـم يجعـل للرجل عليها سـبيلا في كل ما يرجـع إلى دينهـا وفضائلها[١]، وراعـى ضعفها البدني بالنسـبة للرجـل، فأراحها من التكاليـف المادية في مراحـل حياتهـا الثـلاث، من يوم تولـد إلى يوم تمـوت، بنتـا وزوجا وأما، فأوجب على أبيها الإنفاق عليها وتأديبها ما دامت في حجره إلى أن تتزوج، وهذا حق تنفرد به البنت على الابن الذي يسـقط الإنفاق عليه ببلوغه قادرا علـى الكسـب، فإذا تزوجت انتقل كل مالها من حـق أدبي أو مادي من ذمة الأب إلـى ذمـة الزوج، فتأخذ منـه الصداق فريضة لازمة، ونحلة مسـوغة، وتسـتحق عليـه نفقتها ونفقه أولادها منه بالمعـروف، فإذا خلت من الزوج ولها أولاد مكتسبون وجبت الحقوق على أولادها، ولا تنفق شيئا من مالها إلا باختيارها، ووصايا القرآن والسنة وأحكامها في الأمهات معروفة، وهي أظهر من الشـمس، فالإسـلام أعطى المرأة وأولادها من الإعزاز والتكريم مالـم يعطهـا إياه دين آخـر ولا قانون وضعـي، وأعطاها حـق التصرف في أموالهـا، وحـق التملك مـن دون أن يجعل للـزوج عليها سـبيل، وأحاطها

(١) ليس بإطلاق بدليل اشتراط استئذان المرأة زوجها في صيام التطوع، وهكذا.

بالقلـوب الرحيمـة المتنوعة النـوازع، المتلونة العواطـف: قلب الأب وما يحمـل مـن حنان، إلى قلب الزوج وما يحمل من حب، إلى قلب الولد وما يحمـل مـن بر ورحمة، فهي لا تزال تنتقل من حضـن كرامة وبر إلى حضن كرامـة وبر، إلى أن تفارق الدنيا، وبين المهد واللحد تتبوأ المراتب الكاملة في الإنسانية.

نرى من هذه المعاملة الصريحة للمرأة في الإسـلام أنه سـلّحها بأحكام قطعية، وحماها بتشـريع سـماوي عادل ولـم يكلها إلى طبائـع الآباء الذين يلينون ويقسـون، ولا إلى أهواء الأزواج الذين يرضون ويغضبون، ولا إلى نزغات الأبناء الذين يبـرون ويعقون، وإنما هي أحكام إلهية واجبة التنفيذ، لا تدور مع الأهواء والعواطف والنزعات وجودا وعدما».



الحرية المذمومة هو التيه الذي عاقب الله به اليهود

عاقـب الله بني إسـرائيل بالتيـه لكفرهم، فـإن الله أمرهـم بدخول بيت

المقدس لجهاد العمالقة المتجبرين، فنكلوا عن الجهاد لجبنهم ولخور قلوبهم ولفساد إيمانهم، فصاروا يسيرون في الأرض بلا مقصد، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٤ - ٢٦]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله [١]: «عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض، يسيرون إلى غير مقصد، ليلا ونهارا، وصباحا ومساء»، فكل من سار في هذه الدنيا غير مستضيء بنور القرآن فهو تائه، فحريات الكافرين هو من التيه الذي عاقب الله به بني إسرائيل، فمن يختاره للأمة الإسلامة فهو ضال يريد بهم الضلالة.

فهؤلاء الكافرون أرسل الله إليهم رسولا كريما وأنزل عليه القرآن ليهتدوا به فأعرضوا واتبعوا أهوائهم فجرت فيهم سنة الله ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥]، وهذا شأن من اتبع هواه وأعرض عن شرع يجعل الله أمره منفرطا عليه لا يهتدي إلى الحق ولا يوفق إليه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]، فيالها من أضحوكة كبرى هذا التنظير الذي تنادى له القرضاوي والسويدان، جعلوا التيه سببا للنهضة والحضارة، وقدموه على شرع الله، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

(١) قصص الأنبياء ص٣٤٣، المستل من البداية والنهاية.

❊ ❊ ❊

إذكاء العلمانية للنعرات القومية

مـن أعظـم جنايـات العلمانيـة على الأمـة الإسـلامية تقويض أسـباب ومقومات قوتها، أول ذلك عزل شـريعة الإسلام عن أن يكون منهجا للأمة

الإسلاميين، وثانيها إذكاء النعرات القومية في الأمة الإسلامية وتفريقها.

قال سماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ[١]: «إن الدعوة إلى القومية العربية تفرّق بين المسلمين، وتفصل المسلم العجمي عن أخيه العربي، وتفرّق بين العرب أنفسهم، لأنهم كلهم ليسوا يرتضونها، وإنما يرضاها منهم قوم دون قوم، وكل فكرة تقسم المسلمين وتجعلهم أحزابا فكرة باطلة، تخالف مقاصد الإسلام وما يرمي إليه، وذلك لأنه يدعو إلى الاجتماع والوئام، والتواصي بالحق والتعاون على البر والتقوى، كما يدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٠٣﴾ [آل عمران: ١٠٢ – ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٣٢﴾ [الروم: ٣١ – ٣٢].

فانظر أيها المؤمن الراغب في الحق كيف يحارب الإسلام التفرق والاختلاف، ويدعو إلى الاجتماع والوئام، والتمسك بحبل الحق والوفاء عليه، تعلم بذلك أن هذه القومية غير هدف الإسلام، وأن مقاصدها تخالف

---

(١) الدرر البازية في الرد على الانحرافات العقدية والشرعية ص٢٧٤-٢٧٦.
يرجع بدلا من ذلك إلى كتاب نقد القومية العربية في مجموع الفتاوى.

مقاصد الإسلام، ويدل على ذلك أيضا أن هذه الفكرة، أعني الدعوة إلى القومية العربية وردت إلينا من أعدائنا الغربيين، وكادوا بها المسلمين، ويقصدون من ورائها فصل بعضهم عن بعض، وتحطيم كيانهم، وتفريق شملهم، على قاعدتهم المشؤومة [**فرِّق تسد**]، وكم نالوا من الإسلام وأهله بهذه القاعدة النحيسة، مما يحزن القلوب ويدمي العيون.

وذكر كثير من مؤرخي الدعوة إلى القومية العربية، ومنهم مؤلف الموسوعة العربية: أن أول من دعا إلى القومية العربية في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، هم الغربيون على أيدي بعثات التبشير في سوريا، ليفصلوا الترك عن العرب، ويفرّقوا بين المسلمين، ولم تزل الدعوة إليها في الشام والعراق ولبنان تزداد وتنمو، حتى عُقد لها أول مؤتمر في باريس من نحو ستين سنة وذلك ١٩١٠م، وكثرت بسبب ذلك الجمعيات العربية، وتعددت الاتجاهات، فحاول الأتراك إخمادها، بأحكام الإعدام التي نفذها جمال باشا في سورية في ذلك الوقت، إلى آخر ما ذكروا، فهل تظن أيها القاريء أن خصومنا وأعداءنا يسعون في مصالحنا، بابتداعهم الدعوة إلى القومية العربية، وعقد المؤتمرات لها، وابتعاث المبشرين بها، لا والله، إنهم لا يريدون بنا خيرا ولا يعملون لمصالحنا، إنما يعملون ويسعون لتحطيمنا وتمزيق شملنا، والقضاء على ما بقي من ديننا، وكفى بذلك دليلا لكل ذي لب، على ما يُراد من وراء الدعوة إلى القومية العربية، وأنها معول غربي استعماري، يراد من وراءه تفريقنا وإبعادنا عن ديننا كما سلف.

من العجب الذي لا ينقضي أن كثيرا من شبابنا وكتابنا – ألهمهم الله رشدهم – خفيت عليه هذه الحقيقة، حتى ظنوا أن التكتل والتجمع حول القومية العربية والمناصرة لها، أنفع للعرب وأضر للعدو، من التجمع والتكتل حول الإسلام ومناصرته، وهذا بلاشك ظن خاطيء، واعتقاد غير مطابق للحقيقة.

نعم لا شك أنه يحزن المستعمر ويقلق راحته كل تجمع وتكتل ضد مصلحته، ولكن خوفه من التجمع والتكتل حول الإسلام أعظم وأكبر، ولذلك رضي بالدعوة إلى القومية العربية، وحفّز العرب إليها، ليشغلهم بها عن الإسلام، وليقطع بها صلتهم بالله سبحانه، لأنهم إذا فقدوا الإسلام، حرموا ما ضمنه الله لهم من النصر الذي وعدهم به في الآيتين السابقتين، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج: ٤٠ – ٤١]».

كما أنه لابد في هذا المقام عند حديثنا عن النعرات الجاهلية، لابد أن نذكر أن أشنعها وأقبحها وأعظمها خطرا النعرات القومية الفارسية المضادة للإسلام وللغة القرآن التي أثارها ومازال ملالي الثورة الصفوية المجوسية الإيرانية، فمن قبيح شعاراتها تعظيم أبي لؤلوة المجوسي قاتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإستنكافها عن تسمية خليجنا بالخليج العربي وإصرارهم على تسميته بالخليج الفارسي وشحن نفوس مواطنيها بهذه

النعرة الجاهلية، والتداعي لقتال أهل السنة في جزير العرب من أجل ذلك.

وهذا في الحقيقة يظهر كذب شعار الإسلام الذي ترفعه الثورة الإيرانية، وأن حقيقـة ثورتها قرمطية مجوسـية صفوية، وإلا فكل مسـلم يحب اللغة العربية التي نزل بها القرآن، ويحب لغة الصحابة الكرام، قال شيخ الإسلام ابـن تيميـة رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «التكلـم بالعربية يورث مشـابهة لصدر هـذه الأمة من الصحابة والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقل والدين والخلق».

ولا بـد مـن وضع الأمور في نصابهـا، فإنه لا يتأتى التدين بالإسـلام إلا بتعلم اللغة العربية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «لم يكن سبيل إلى ضبط الدين ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، وصارت معرفته من الدين».

فالعربية ولغتها ليسـت معقد ولاء مجردة عن الإسـلام كما هو المفهوم الخاطيء للقومية، بل الإسـلام شعاره اللغة العربية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ[٣]: «فإن اللسان العربي شعار الإسلام وأهله، واللغات من أعظم شعائر الأمم التي يتميزون بها».

ومن أقبح النعرات الجاهلية التي أوقعها العلمانيون في الأمة الإسلامية محاربتهـا للغـة العربية كما فعـل أتاتورك وحزبـه بتركيا مـن محاربة اللغة العربيـة والتعصـب للغة التورانيـة التركية، وقـد بلغوا في ذلـك مراحل لم

(١) إقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٢٧)
(٢) إقتضاء الصراط المستقيم (ص ١٦٢)
(٣) إقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥١٩)

يبلغها أحدهم لدرجة منع أذان الصلاة باللغة العربية.

قال علامة مصر محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللَّهُ متحدثا عما جرى في تركيا في زمن تحولها إلى العلمانية:[١]: «وقد بلّغ صلوات الله وسلامه عليه دعوة ربه كما أمر، فبدأ بأم القرى ثم بما حولها من جزيرة العرب وشعوب العجم، باللسان العربي الذي قضى الله أن يوحّد به ألسنة جميع الأمم، فيجعلهم أمة واحدة بالعقائد والعبادات والآداب والشرع واللغة، ليكونوا بنعمته إخوانا، لامثار بينهم للعداوات التي تفرّق بين الناس بعصبيات الأنساب والأقوام والأوطان والألسنة، فكتب ﷺ إلى قيصر الروم، وكسرى الفرس، ومقوقس مصر، بلغة الإسلام العربية ككتبه إلى ملوك العرب وأمرائهم، وبلّغ أصحابه ما أمر الله به أمته من تعميم الدعوة، وبشّرهم بأن نورها سينتشر ما بين المشرق والمغرب، فصدع الصحابة والتابعون لهديهم، وجميع دول الإسلام من بعدهم، بما أمروا به من نشر هذا الدين بلغته، في كلا قسمي شريعته، عبادته وحكومته.

فكان الإسلام ينتشر في شعوب الأعاجم من قارات الأرض الثلاث (آسيا، وافريقيا، وأوروبا) بلغته العربية فيقبل الداخلون فيه على تعلم هذه اللغة بباعث العقيدة، وضرورة اقامة الفريضة، ولاسيما فريضة الصلاة التي هي عماد الدين، وأعظم أركانه بعد التصريح بالشهادتين، اللتين هما عنوان الدخول فيه، على أنهما من أعمال الصلاة أيضا، **فكان تعلم العربية من**

(١) تفسير المنار (٩/ ٣١٦-٣١٩)

ضروريات الإسلام، عند جميع تلك الشعوب والأقوام، بالاجماع العلمي العملي، التعبدي والسياسي، لاماكان من تقصير دولة الترك العثمانيين، بعدم جعل العربية لغة رسمية للدواوين، كسلفهم من السلجوقيين والبويهيين، حتى بعد تنحلهم للخلافة الإسلامية، ورفع ألويتهم على مهد الإسلام من البلاد الحجازية، فآل ذلك إلى التعارض والتعادي بين العصبية التركية اللغوية ورابطة الإسلام، فالتفرق والتقاتل بين الترك والعرب، فإلغاء الخلافة العثمانية فاسقاط دولة آل عثمان، وتأليف جمهورية تركية العصبية والتربية والتعليم، أوربية العادات والتقنين والتشريع، وإبطال ما كان في الدولة من المصالح الإسلامية، كمشيخة الإسلام، والأوقاف، والمدارس الدينية، والمحاكم الشرعية، وصرّحوا بأن حكومتهم هذه مدنية غربية لادينية، وأنهم فصلوا بين الدين والدولة فصلا بائنا كما فعلت الشعوب الافرنجية، على أنهم لما وضعوا قانون هذه الجمهورية قبل التجرؤ على كل ماذكر، وضعوا في مواده أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام مراعاة للشعب التركي المسلم، كما وضعوا فيه مواد أخرى تنافي الإسلام من استقلال المجلس الوطني المنتخب بالتشريع، بلا قيد ولا شرط، **ومن إباحة الردة** واستحلال ما حرّم الشرع، وظهر أثر ذلك بالقول والفعل، كالطعن الصريح في الدين والاستهزاء به حتى في الصحف العامة، وكاباحة الزنا والسكر للمسلمين والمسلمات، وبروز النساء التركيات في معاهد الفسق ومحافل الرقص كاسيات عاريات، مائلات مميلات، إلى غير ذلك من

منافيات الدين.

ولكن هذا كله لم يرو غليل العصبية اللغوية التورانية، ولم يذهب بحقدها على الرابطة الإسلامية، وآدابها الدينية العربية، بل كان من كيدها لها السعي لإزالة كل ما هو عربي من نفس الشعب التركي ولسانه، وعقله ووجدانه، ليسهل عليهم سله من الاسلام، بمعونة التربية الجديدة والتعليم العام، بل عمدوا إلى هذه الشجرة الطيبة الثابت أصلها، الراسخ في أرض الحق والعدل والفضل عرقها، الممتد في أعالي السماء فرعها، التي تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، عمدوا إليها لاجتثاث أصلها واقتلاع جذرها بعدما كان من التحاء عودها، وامتلاخ أملودها، وخضد شوكتها وعضد خصلتها، بعد أن نعموا بضعة قرون بثمرتها، وإنما تلك الشجرة الطيبة في القرآن الكريم الحكيم المجيد العربي المبين، هي الزيتونة المباركة الموصوفة بأنها لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، فاذا مسته نار الايمان بحرارتها اشتعل نورا على نور ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: ٣٥].

وانما أعني بقطع هذه الشجرة المباركة من أرض الشعب التركي محاولة حرمانه، ذلك بأنهم ترجموا القرآن بالتركية لا ليفهمه الترك، فان تفاسيره بلغتهم كثيرة، وكان من مقاصد أبطال المدارس الدينية ابطال دراستها (أي التفاسير حتى التركية)، وحظر مدارسه كتب السنة وكتب الفقه ونحوها،

لأنها مشحونة بآيات القرآن العربية، وبالأحاديث النبوية العربية، وبآثار السلف الصالح العربية، وبالحكم والأمثال وشواهد اللغة العربية، وهم يريدون محو كل ما هو عربي من اللغة التركية، ومن أنفس الأمة التركية، حتى إنهم ألفوا جمعية خاصة لما عبروا عنه «بتطهير اللغة التركية» من اللغة العربية، واقترح بعضهم كتابة لغتهم بالحروف اللاتينية، وإذا طال أمر نفوذ الملاحدة في هذا الشعب الاسلامي الكريم فانهم سينفذون هذا الاقتراح قطعا كما نفذوا غيره حتى استبدال قرآن تركي يلفقه بعض ملاحدة التورانيين بالقرآن الذي نزل به الروح الأمين، على قلب خاتم النبيين، بلسان عربي مبين، المتعبد بألفاظه العربية باجماع المسلمين، والمعجز ببلاغته العربية لجميع العالمين، وكونه حجة الله تعالى عليهم إلى يوم الدين».



الإسلام يزيل العوائق لا يشيّد أركانها

الإسلام تشريع محكم من حكيم حميد، يحفظ على الناس أديانهم وعقولهم وأخلاقهم، فلا يأمر الإسلام بالتوحيد إلا وينهى عن ضده وهو الشرك بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكذلك نجد الإسلام يحيط كل تشريع بتشريعات تحفظه تماما، فإذا نهى عن الزنا تجده كذلك نهى عن الإختلاط، وأمر باحتشام النساء عن الرجال، وأمر النساء بلبس الجلباب، وغض البصر، أما هوى العلمانية فتناقض يعود على المصالح بالفساد والإضرار، فكل شيء عندهم إلا ماندر جائز، مع أنهم يجعلون لذلك حدودا لا يسمحون لأحد بالإخلال به، وهو الأمن العام.

ولله المثل الأعلى فإن حدوده محارمه، كما جاء في الصحيحين من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

فالإسلام يزيل الأذى، لا يشيّد أركانه كما يريد القرضاوي والسويدان بدعوى الحرية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لقد رأيت رجلا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»[١].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٢]: «في هذا الحديث دليل على

(١) رواه مسلم كتاب البر والصلة باب فضل إزالة الأذى عن الطريق (ص١١٤٣- رقم ٦٦٧١)
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٧٥-١٧٧)

أن مـن أزال عن المسـلمين الأذى فله هـذا الثواب العظيم في أمر حسِّـيٍّ، فكيف بالأمر المعنوي؟

هناك بعض الناس والعياذ بالله – أهل شر وبلاء، وأفكار خبيثة، وأخلاق سيئة، يصدون الناس عن دين الله، فإزالة هؤلاء عن طريق المسلمين أفضل بكثيـر وأعظم أجـرا عند الله، فإذا أزيل أذى هؤلاء إذا كانوا أصحاب أفكار خبيثة سيئة إلحادية، يرد عليها، وتبطل أفكارهم.

فـإن لم يجد ذلك شـيئاقطعت أعناقهـم، لأن الله يقول فـي كتابه العزيز ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المائـدة: ٣٣]، و«أو» هنا، قال بعض العلماء: إنها للتنويع، يعني أنهم يقتلون ويصلبـون وتقطع أيديهـم وأرجلهم من خلاف وينفوا من الأرض حسـب جريمتهم.

وقال بعض أهل العلم: بل إن «أو» هنا للتخيير، أي أن ولي الأمر مخير: إن شـاء نفاهم من الأرض، حسـب ما يرى فيه المصلحة، وهذا القول جيد جداً، أعني أن تكون «أو» هنا للتخيير، لأنه ربما يكون هذا الإنسـان جرمه ظاهر سـهل، ولكنـه على المدى البعيد يكون صعبـا، ويكون مضلاً للأمة، فهنـا مثلا هـل نقول لولي الأمر أن هذا الإنسـان سـهل، أنفـه من الأرض، أطرده يكفي، أو أقطع يده اليمنى ورجله اليسرى يكفي، قد يقول: لا يكفي،

هذا أمر يخشى منه في المستقبل، هذا لا يكفي المسلمين شره إلا أن أقتله، نقول: نعم، لك ذلك. فكون «أو»هنا للتخيير أقرب للصواب من كونها تنزل على حسب الجريمة.

والواجب على ولاة الأمور أن يزيلوا الأذى عن طريق المسلمين، أي أن يزيلوا كل داعية إلى شر، أو إلى إلحاد، أو إلى مجون، أو إلى فسوق بحيث يمنع من نشر ما يريد من أي شيء كان من الشر والفساد، هذا هو الواجب.

ولكن لا شك أن ولاة الأمور الذين ولاهم الله على المسلمين في بعضهم تقصير، وفي بعضهم تهاون، يتهاونون بالأمر في أوله حتى ينمو ويزداد، وحينئذ يعجزون عن صده، فالواجب أن يقابل الشر من أول أمره بقطع دابره، حتى لا ينتشر ولا يضل الناس به.

المهم أن إزالة الأذى عن الطريق الحسيِّ، طريق الأقدام، والطريق المعنوي، طريق القلوب، والعمل على إزالة الأذى عن طريق القلوب والعمل الصالح أعظم أجرا، وأشد إلحاحا من إزالة الأذى عن طريق الأقدام».

❊ ❊ ❊

القرآن نزل لضبط الآراء المضطربة

لم يسمع المسلمون أضحوكة في التنظير كأضحوكة العلمانية، حرية

الأفكار والآراء بدون زمام الشرع، فبات الإلحاد فكرا يجب أن يحترم، والكفر رأيا يجب أن ينزل والحق منزلة سواء، بالأمس اشتراكية، واليوم علمانية، فاضطربت مشارب الناس وأهواؤهم وأفكارهم وعقائدهم، وأورث هذا الاضطراب تبعا لذلك نزاعات وحروب راح ضحيتها الملايين، وذهبت في سبيلها الأموال الطائلة.

والقرآن نزل ليدل الناس على صراط الله المستقيم، فتكون أهواؤهم تبعا للشرع، فيذهب الضلال، ويعيش الناس في كنف الحق، ويستضيئوا بنور الوحي، وتتحقق مصالح دينهم ودنياهم، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

فالقول بالترخيص للاعتقادات الشركية والكفرية وأنواع الضلالات في الأفعال والمقالات بدعوى الحرية عود على مقصود إنزال الكتب وإرسال الرسل بالنقض، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل: ٦٤].

* * *

الباطل الذي يعارض الحق يجب إخماده لا الإذن فيه

ضلال البعض ودعوته إلى الترخيص للضلال والباطل ولو كان كفرا وبدعة وضلالا بدعوى الحرية هو في حقيقته دعوة لمعارضة الحق، ودعوة للترويج والظهور للباطل، لأنه لا يشك عاقل أن من اعتقد قولا أو انتحل رأيا ومذهبا فإنه يعتقد الحق فيه، وسيدعو إليه، ويحارب ما يخالفه ويضاده، فالدعوة لحرية الأقوال والأفعال والضلال هي حقيقتها دعوة لإطفاء نور الله، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة: ٣٢]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهاهم من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم التي ليس عليها دليل أصلا. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾، لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفّل بحفظه من كل من يريده بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئا».

ولا يقول قائل: أكثر الأقوال الباطلة ضعيفة دعها من باب الحرية فإنه لا يخشى ضررها!!

فهذا قول جاهل بأحوال الخلق، واعتبر بما جرى لأهل مكة، فإنهم كانوا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٧١

على ملة إبراهيم، ثم مع حرية الأقوال والأفعال عبدوا الحجر والشجر.

❊ ❊ ❊

أوضح معالم العلمانية تنزيل الحق والباطل، والإيمان والكفر منزلة

سواء، وهذا فساد للأديان، واضطراب لأحوال الدنيا، فالله أنزل كتبه وأرسل رسله لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة: ٣٣].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «فكل ما بعث الله به محمدا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مشتمل على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة، فأرسله الله بالهدى ودين الحق، ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾، أي ليعليه على سائر الأديان، بالمحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكرهم، فإن المكر السيء لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لابد أن ينجزه وما ضمنه لابد أن يقوم به».

والله عز وجل ما خلق خلقه وأورثهم الأرض واستخلفهم فيها إلا وهو

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٧١-٣٧٢

أعلـم بما يصلح لهـم ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وما كان الله ليترك عباده هملا، بل أرسـل إليهم رسـله وأنزل إليهم وحيه هداية ونـورا، قـال تعالـى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف: ٥٢]، فـلا يجـوز لأحد أن يخرج عـن هذا الهدى بدعـوى الحريـة.

فـلا يجـوز لأحـد كائنا مـن كان أن يتقـدم بين يدي اللـه عز وجل ورسـوله ﷺ، قـال تعالـى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١]، وقـال تعالـى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «قال مجاهد وغير واحد من السلف، إي: إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهذا أمر من الله عـز وجـل بأن كل شـيء تنازع الناس فيـه من أصول الديـن وفروعه أن يرد التنـازع في ذلـك إلى الكتاب والسـنة كما قال تعالـى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴿١٠﴾﴾ [الشورى: ١٠]، فما حكم به الكتاب والسـنة وشهدا لـه بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال، ولهذا قال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] فدلّ علـى أن من لـم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر».

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص٣٣٧-٣٣٨

قال الإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله[١]: «بيّنت الرسل عليهم السلام أسماء الله وصفاته، ودلوا عليه، وأرشدوا إليه، وقامت الدلائل على صدقهم، وعلى رأسهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، أصدق الأنبياء وأفضلهم، قد بعثه الله بكتابه العظيم، والرسالة العامة التي أوضح بها كل شيء، ثم يأتي دعاة الماسونية الذين يريدون أن يردوا الناس إلى الأحوال البهيمية، والمساواة في كل شيء، ويحاربوا مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ليجعلوهم كالبهائم لا يميّزون حقا من باطل، ولا خيرا من شر، وهذا كله خلاف مادعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وخلاف مادلّ عليه القرآن الكريم المعجز، وهو أيضا خلاف مادلّت عليه العقول الصحيحة، والفطر السليمة التي فطر الله العباد عليها، فإن الله سبحانه فطر الناس على الاعتراف بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال والعدل والحق، وكراهة الظلم والعدوان والأذى.

لقد فطر الله العباد على تمييز الأب من الإبن، والأخ من الأخت، والزوجة من الزوج، حتى البهائم ميّزوا هذا عن هذا.

كذلك من ادعى الإباحية، وأنه لاحرج على الإنسان في أي حال أن يعمل مايشاء ويستبيح ما يشاء من مهازل ومساويء، كلهم ملحدون وضالون، وقد أبطل الله هذا المذهب، وبيّن سبحانه وتعالى أنه أرسل الرسل، وأنزل الكتب

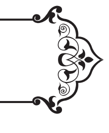
(١) مجموع الفتاوى البازية (٤/ ٦٧-٦٨)

لبيان حقه على عباده، وما أحل من الطيبات، وما حرّم من الخبائث، وما أوصى به سبحانه وتعالى عباده من التمسك بما جاءت به الرسل، ونبذ ما خالفه.

ولقد أوضح سبحانه في الكتب المنزلة من السماء تفصيل الحلال من الحرام، والهدى من الضلال، والمعروف من المنكر، والخير من الشر.

فالإباحيون والماسونيون قد أعرضوا عن ذلك كله، ونبذوه وراء ظهورهم، فلا خلقا كريما استقاموا عليه، ولا عقلا صحيحا تمسكوا به، فلم يأخذوا بما جاءت به الرسل من الهدى والتمييز بين الحق والباطل، والهدى والضلال، ومن تأمل كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وتأمل أحوال العالم، عرف أن الحق كله فيما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، من بيان ما أباح الله وبيان ما حرّمه سبحانه، وأنهم بُعثوا ليميّزوا بين الطيّب والخبيث، وبين الحلال والحرام، بما شرع الله حتى تسير المجتمعات على هدى وبيان، وعلى خير ورشاد، وعلى الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة، التي تحفظ للإنسان عقله ودينه، وماله ونفسه، وذريته وزوجته، وغير ذلك، ولا يتعدى عليه غيره فيأمن المجتمع، وتستقيم الأحوال والأخلاق، ويأمن الناس، **وتحصل لكل إنسان حريته، في أخذه وعطائه، وبيعه وشرائه، وتعاطي مايسر الله له من الحلال وتملكه ما كسب بالطرق الشرعية، وتصرفه بما ينفعه ولا يضره»**.

***



الرجعية في الكفر والبدع



مـارس العلمانيـون إرهابا فكريا ضد من يلزم شـرع الله وأمـره، فنعتوه بالرجعـي، وهـذا مـن التنفير عن الحـق بوصفـه بأقبح الأوصـاف، ونحن ولله الحمـد نرجع إلى كتاب ربنا وسـنة نبينا ﷺ ففيهمـا الهدى والنور، فمرجعيتنـا وحـي معصـوم، والعلمانيون هم الرجعيون حقـا لأنهم رجعوا إلـى أهوائهم وضلالاتهم، فشـتان بين من ائتم بشـرع الله، وشـتان بين من ائتم بهواه بغير هدى من الله.

فالرجعـي حقـا هـو الـذي رجع عـن الصـراط المسـتقيم إلـى الضلال والهـوى، ولذلـك يذاد هؤلاء عـن الحوض يوم القيامـة ويقال للنبي ﷺ فيهم «رجعوا القهقري».

قـال العلامـة عبدالرحمـن السـعدي رحمه الله[1]: «لمـا علم المسـتعمرون الملحـدون أن الإسـلام الحقيقي والدين الإسـلامي أقوى وأعظم سـلاح لمقاومتهـم، وقد عرفوا ذلـك من قديم الزمان، وحملـوا حملات متنوعة، فرجعـوا علـى أعقابهـم مهزومين لم ينالـوا خيرا، وعرفوا حـق المعرفة أنه من المحال السـيطرة على الإسـلام وعقائـدة وأخلاقه، فعملـوا مؤامرات واسـعة متنوعة، وسـاعدوها بالقـوة، ودرّسـوا الإلحاد في المـدارس التي اغتفلوا أهلها، وذهبوا يهجنون جميع تعليمات الإسـلام، وما يدعو إليه من

---

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين ص٦٩-٧٠

الأخلاق، وما يحكم به من الأحكام، وقالوا إنها رجعية، ترجع بالناس إلى الوراء عن التقدم المطلوب، وأوجدوا لهم من أرباب المطامع المأجورين ومن البلهاء المغرورين من يستعينون به على مطلوبهم والتزهيد في الدين من كل وجه.

ولكن - ولله الحمد - قد علم أهل البصائر مقاصدهم، وعرفوا الخونة ممن ينتسب إلى ملة الإسلام، وهو أعظم عدو للإسلام في صورة صديق، وبرهن العلماء العارفون أن كل ما قيل في توهين الدين وتخديره فهو باطل، وأن القائلين بذلك زنادقة منافقون، يقولون ما يعلمون خلافه، **وأن السبيل الوحيد إلى الصلاح والتقدم الصحيح النافع من جميع الجهالات هو الأخذ بتعاليم الإسلام بعقائده وأخلاقه وأعماله وأحكامه**، وأن البشر لا يمكن أن يحيوا حياة طيبة ويعيشوا في الدنيا عيشة هادئة إلا بالدين، وأن الإلحاد أعظم نكبة طرقت البشر، وأن آثاره الشر الكبير، والإباحية والفوضوية، وتقويض دعائم العمران، والسير إلى الهلاك والشقاء.

فمتى رأيت من ينعق بذم الرجعية، وذم كل قديم، ويأمر بنبذ ذلك، فاعلم أنه أحد رجلين: إما ملحد قصده بذلك التوسل إلى جحد أديان الرسل، ونبذ ما جاءوا به، وإما مغرور مخدوع مقلد لهم، قد غرّته هذه المدنية الزائفة، وأعجبه رونقها، ظن بجهله أنها شيء، وهؤلاء كاذبون في ذلك، فإن أقوال زنادقتهم الأولين عندهم بالمحل الأعلى، ولا يكادون يخالفونهم،

ويعظمونهم أكبر مما يعظمون الأنبياء، بل ليس للأنبياء في قلوبهم شيء من التعظيم الصحيح، وإذا أردت أن تعرف كذبهم بالبداهة، فهل العلوم النافعة والأعمال الصالحة والعقائد الصادقة والأخلاق الفاضلة إلا وقد جاء بها الدين على أكمل الوجوه وأحسنها وأنفعها؟!

وتتبع ذلك في أصول الدين وفروعه وظاهره وباطنه، هل تجده إلا مشتملا على كل خير، هاديا إلى كل رشد وصلاح، حاثا على كل فلاح؟!».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن التقدم حقيقة إنما يكون بالإسلام، **وأن الرجعية حقيقة إنما تكون بمخالفة الإسلام**، لقوله تعالى: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣]، فإن هذا حقيقة الرجوع على غير هدى، لأن الذي ينقلب على عقبيه لا يبصر ما وراءه، فمن قال للمتمسكين بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ رجعيون، قلنا له: بل أنت الرجعي حقيقة، لأن الله سمى مخالفة الرسول ﷺ انقلابا على العقب، ولا أبلغ من هذا الرجوع أن الإنسان يرجع على عقبيه رجوعا أعمى - والعياذ بالله - لا يدري ما وراءه».

وقال العلامة محمود محمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ[2]: «ينبغي أن أؤرخ لهذا اللغط كيف أتى؟ ومن أين أتى؟ ومن أين؟ وما معناه؟

---

(١) تفسير سورة البقرة (٢/ ١١٩)

(٢) أباطيل وأسمار ص٣٩٩-٤٠١

لأن هذه الألفاظ المبهمة التي لا يجد لها الإنسان حدا، شديدة الضرر، ولكن يؤسفني أن أكثر الذين يلجأون إليها، إنما هم القوم الذين يدّعون «الثقافة»، ويدّعون «الاتجاه العلمي»، ويدّعون «الدقة العلمية»، ويدّعون «المنهج»، ويدّعون ما شئت من الزيف الذي لا حدود له، فأنت إذا شئت أن تستقصي معنى «الرجعية»، في كلام من يتكلمون ويهضبون ويثرثرون، وقعت في مثل «ردغة الخبال»: من الحيرة في فهم المراد منها، (وردغة الخبال: الطين والوحل الكثيف، وهو يوم القيامة: عصارة أهل النار تنحل عنها جلودهم).

وقد رأيت من الخير أن أتتبع تاريخ هذه اللفظة، بقدر ما تحتمله ذاكرتي، وقد كنت خليقاً، أو كانت هذه الأمة خليقة أن تعمد إلى هذه الألفاظ المستحدثة، فتعرف تاريخ مجيئها إلى استعمال أهل اللسان العربي، ومن أول من استعملها؟ ولم استعملها؟ وفي أي غرض كانت تقال؟ وأي زيادة لحقت معناها الأول؟ وذلك لا يتم إلا بتتبع الصحف والكتب، واستخراج المواضع التي ذُكرت فيها مؤرخة.

وإذا فعلنا ذلك عرفنا مصادر هذا اللفظ، وحدّدنا معانيه في زمن بعد زمن، وأدركنا أثر استعماله في تجلية المعاني، أو زيادتها غموضا وفسادا، ولكن هذا شيء لا أستطيع بيانه في أسطر قلائل، فمن الخير أن أنصرف عنه إلى ما أريد و«الرجعية»، لفظ يألفه الناس اليوم، على غموضه المتلف

للفهـم، المـؤدي إلى اختلاط الإدراك، الممهد لـكل ذي هوى أن يبلغ إلى هواه باستعماله، لأنه يحمل معنى من معاني الفساد في مفهومه الغامض.

ولكني شـهدت مولده قديمـا، فمن المفيد أن أسـجل بعض تاريخه بلا تحيّـز، حتـى يتحرى القاريء لنفسـه إذا قـرأه، ويتجنبه الكاتـب الذي يريد الإفهام دون الإبهام.

كنـا يومئـذ في زمان صراع، وذلك من نحو من خمسـين سـنة، نشـأت طفلا في صـراع ثقافي وصراع اجتماعي، وصـراع فكري، وصراع ديني، وصراع سياسـي.

وكان لـكل صـراع طابعـه وألفاظه وكتّابـه وجماهيره، قلـت أو كثرت، وتمـادت بي الأيام حتى عقلت، وذلك في مطلع الثورة التي شـملت مصر والسودان في سنة ١٩١٩م.

وأظـن أنـه قد بقي فـي ذاكرتي شـيء من الألفـاظ التي كانـت تدور في هـذا الصراع الضخم، ولكني لا أجد بينهمـا لفظ «الرجعية»، ولا أعيه كان ظاهرا يومئذ، أي في سنة ١٩١٩، أو ما قبلها، إلا أن يكون شيئا نادرا لا يكاد يسـتقيم أو يسـتبين، أو لا يكاد يستقيم أو يسـتبين لي أنا على الأقل، ولكني أذكر أن أكبر صراع كان قائما يومئذ بين أهل هذا الدين، أعني الإسلام، كان يستخدم لفظا اشتقته الكتّاب، أو أوتوا به على النسبة إلى «السلف»، فكانت

طائفة كبيرة تسمي نفسها «السلفيون»، وهو لفظ يراد به رجوع أصحابه إلى سيرة «السلف» من أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم على الحق في العقيدة، وفي تجريد الإيمان من شوائب الشرك، وفي العمل بالسنة، وفي إحياء منهج «السلف» في الرجوع إلى الكتاب والسنة دون سواهما.

وكان للسلفيين ظهور وغلبة في فترة من الفترات، وكان أكثرهم من أهل الحميّة والجد والثبات والإخلاص في القول والعمل، وإن شابهم من ينتسب إليهم، ويدعي دعواهم، ولكنه لا يقوم مقامهم، ولا يلتزم التزامهم، بل ربما خالفهم، وأقام على البدع وسوّغها وجعلها من سنة السلف».

ثم قال العلامة محمود شاكر رحمه الله[1]: «فنشأ من بين هذا الصراع بين الحضارة الغازية وبقايا الحضارة الإسلامية العربية التي ذكرتها جيل دخل في الصراع الديني، بين «السلفيين»، ومن ناوأهم من أهل البدع والأهواء، ولكنه تكلم في الشئون التي هي عند المسلمين «دين» بلسان آخر غير لسان أهل هذا الدين من سلفيين ومبتدعة، وأدرك الذين كانو يقودون حركة الصراع بين الحضارتين، أن أقوى الفريقين المتصارعين من سلفيين ومبتدعة، هو فريق «السلفيين»، لا من حيث كثرتهم وغلبتهم، بل من حيث القوة التي تشتمل عليها دعوتهم، لأنها تؤدي إلى إعادة بناء لغة الأمة، إذ لا معنى للانتساب إلى طريقة «السلف»، إلا بأن يتملك «السلفي» ناصية

(١) أباطيل وأسمار ص٤٠٢-٤٠٣

اللغة وآدابها تملكا يمكنه من الاستمداد المباشر من «القرآن» و«السنة»، على نفس النهج الذي كان «السلف» يستمدون به من القرآن والسنة في آدابهم، وأخلاقهم، وثقافتهم، وفقههم، وعلمهم، وتفكيرهم، وفي سائر ما يكون به الإنسان حيا رشيدا قادرا على بناء الحضارة، ولأنها تؤدي أيضا إلى اتخاذ سمت نابع من القرآن والسنة، تكون به حضارة الكتاب والسنة ممثلة في رجال يغدون بين الناس ويروحون، ويغضبون ويرضون، ويتنازعون ويصطلحون، ويعيشون عيشة كاملة ممثلة لخلاصة الرحلة الطويلة العميقة في استنباط طريق للحياة الإنسانية الصحيحة، من الفطرة التي جعلها الله كامنة في الطبيعة البشرية، ومطوية في هذا التنزيل المعجز الذي جاء من عند الله، وهو «القرآن»، في جوامع الكلم التي أوتيها نبي الله ﷺ، مبينا عن كتاب الله مفصلاً لجمله، وهو «الحديث». وهذه الفطرة هي التي ذكرها الله سبحانه في سورة الروم فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

فهذه القوة التي اشتملت عليها دعوة «السلفيين» كانت مصدرا لمخاوف «الاستعمار» و«التبشير»، فأرادوا أن يقاوموا هذه الدعوة القليل عدد أصحابها، والذين هم مع قلتهم يصارعون جمهورا غالبا من «المبتدعة»، يؤيدهم إلف العامة، وهم الكثرة، ما عندهم من البدع المنكرة التي ينكرها

«السـلفيون» أشد الإنكار، فعمدوا إلى بث فكرة قريبة إلى النفوس، سريعة إليها، تؤيدها جميع الظواهر، وهي أن «السـلفيين» قوم متشـددون يريدون أن يرهقوا الناس بمالا طاقة لهم به من التكاليف.

وهذه المهارة في إدراك الوسـائل التي تقاوم بها الأفكار، كانت معروفة مدروسـةً في دوائر «الاسـتعمار»، و«التبشـير»، وإن كان كثيـر منّا لا يزال غافلا عنها، غير قادر على إدراك المحيط الذي تستعمل فيها هذه الوسائل، وذلك لما طبعنا عليه المسـتعمرون والمبشـرون من التهـاون والغفلة وقلة الصبـر على جلاد الفكـر ومعاناته، والتغلغل به إلى غاياتـه البعيدة المغرقة في البعد».





العلمانية صناعة يهودية لسيادة العالم

كان اليهود في أوروبا يعانون من اضطهاد الكنيسة لهم، حيث كانت هي الحاكمة المسيطرة على شؤون البلاد.

وتسلط الكنيسة في أوروبا كان تخلفا في كل النواحي الدينية والدنيوية، فشرعهم مبدّل حرفوا الإنجيل، وكانوا في تخلف عن النهضة الحضارية، وكان المسلمون في الأندلس أسبق وأنهض بالحضارة والصناعة منهم.

فدعم اليهود الثورات الأوروبية للتخلص من التسلط الكنسي، وقامت ثورات أوروبا على العلمانية وفصل الدين عن الدولة، وكان واضحا مناورة اليهود لحظوظهم ومصالحهم، وإلا فإن اليهود سقوا الغرب العلمانية وهم مقيمون لدولتهم العبرية بدينهم المحرف.

وهنا لا بد لنا من محاذرة إسقاط دولنا في علمانية الغرب التي توجب هواننا وضعفنا وإنحرافنا وتحللنا عن شريعة ربنا، فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وإسلامنا هو مصدر قوتنا، ولينصرن الله من ينصره، لا من يكفره ويعزل شرعه عن أن يتدين الناس به، ويجري فيهم حكم غير الله.

الأمة الإسلامية لن يعود لها مجدها وعزها وسيادتها وعلوها إلا بقوة إيمانها وإعتزازها بإسلامها، ولن تعود لها قيادتها للعالم إلا بأخذها بدينها بقوة كما قال تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ ﴿٦٣﴾﴾ [البقرة: ٦٣]، ومن أسباب

أخذها بدينها بقوة أخذها بما كان عليه الصدر الأول الذين دانت لهم الدنيا كما قال النبي ﷺ «ما أنا عليه وأصحابي»، فالمحدثات والبدع هي التي أفسدت عقول المسلمين وأضرت بهم، والعلم النافع هو الوسيلة للأخذ بالقرآن والسنة بقوة، وإلا فأمة جاهلة بشرع ربها كيف تقوم به؟!

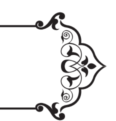
فنحن أمة أنعم الله علينا بالصراط المستقيم كيف نضيّعه ونتركه ونسلك السبل المعوجه ثم نبتغي النصر، قال تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [الفاتحة: ٧]، قال العلامة ابن القيم رحمه الله[١] مبينا أسباب ظهور النبي عليه السلام على الكفارمستدلا بقوله تعالى: ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ ﴾ [الفتح: ٢ - ٣][٢]: «إعطاء النصر العزيز، وجمع سبحانه له بين الهدى والنصر لأن هذين الأصلين بهما كمال السعادة والفلاح فإن الهدى هو العلم بالله ودينه والعمل بمرضاته وطاعته، فهو العلم النافع والعمل الصالح والنصر والقدرة التامة على تنفيذ دينه.

فالحجة والبيان والسيف والسنان فهو النصر بالحجة واليد، وقهر قلوب المخالفين له بالحجة وقهر أبدانهم باليد، وهو سبحانه كثيرا ما يجمع بين هذين الأصلين إذ بهما تمام الدعوة، وظهور دينه على الدين كله، كقوله

(١) بدائع التفسير (١/ ٢٣٠)
(٢)

تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]، في موضعين في سورة براءة، وفي سورة الصف، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]، فهذا الهدى، ثم قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥]، فهذا النصر، فذكر الكتاب الهادي والحديد الناصر».



سقوط الشيوعية والرأسمالية

شأن الحق الإستمرار والبقاء، لأن الله تكفّل بحفظه، وشأن الباطل الظهور فترة ثم الإضمحلال، قال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «لا يهولنك الباطل، فإن للباطل جولة ثم يتلاشى».

وواجب على المؤمن الصبر على عقيدة الإسلام حين إرتفاع رايات الكفر والضلال، فالأيام يداولها الله بين الناس لحكم عظيمة، فإرتفاع الزبد لابد أن يتيقن أنه إلى زوال ولابد، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٧].

فيجب على أهل الإسلام لزوم شريعة الإسلام وملازمة عقيدته لأنه لا يصح الإيمان إلا بذلك أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، لذلك قيل للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ أيام تسلط المعتزلة على أهل السنة: يا أبا عبدالله! ألا ترى الباطل كيف ظهر على الحق؟

فقال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق[٢].

(١) تقدمة الجرح والتعديل (١/ ٣٢٤)
(٢) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٣١٠

وكل عاقل يتعظ بما جرى في زمننا الحاضر في شأن إرتفاع الباطل ثم اضمحلاله أو تلاشيه، فهذه بريطانيا التي كانت تسمى بالامبراطورية العظمى التي لا تغيب عنها الشمس لإحتلالها أكثر دول العالم، ذهب سلطانها واضمحلت امبراطوريتها، بل انقسمت على نفسها فانفصلت عنها إيرلندا وكذلك اسكوتلندا وكذلك شاهد الناس انقسام الإتحاد السوفيتي وسقوط الشيوعية التي سامت المسلمين أنواع الذل والقهر.

وسبب رواج العلمانية هو باعث الهوى وداعية الشهوة، فصار أكثر الغربيين فرح للحرية المتاحة له، يفعل ويذر ما يريد، وإلا فمساويء هذه الحرية تنادي على فسادها، والعلمانية في نظريتها شبيهة بمذهب قوم شعيب، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(١): «إن العبد في حركات بدنه وتصرفاته وفي معاملاته المالية داخل تحت حجر الشريعة، فما أبيح له منها فعله، وما منعه الشرع تعيّن عليه تركه، ومن يزعم أنه في ماله حر له أن يفعل ما يشاء من معاملات طيبة وخبيثة، فهو بمنزلة من يرى أن عمل بدنه كذلك، وأنه لا فرق عنده بين الكفر والإيمان، والصدق والكذب، وفعل الخير والشرع الكل مباح، ومن المعلوم أن هذا هو مذهب الإباحيين الذين هم شر الخليقة، ومذهب قوم شعيب يشبه هذا، لأنهم أنكروا على شعيب لما نهاهم عن المعاملات الظالمة، وأباح لهم سواها، فردوا عليه

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص٢٤٨ - ٢٤٩

أنهـم أحرار في أموالهم لهم أن يفعلـوا فيها ما يريدون، ونظير هذا قول من قـال: ﴿إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ ﴿٢٧٥﴾﴾ [البقرة: ٢٧٥]، فمن سـوى بين ما أباحه وبين ما حرّمه الله فقد انحرف في فطرته وعقله بعدما انحرف في دينه».

وقال سـماحة الإمام عبدالعزيز بن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ مستشـرفا مستقبل الإسلام مقابل التيارات الفكريةالمنحرفة[1]: «إن الإسلام سوف ينتصر بإذن الله على تلك التيارات والنحل الزائفة التي ابتلي بها العالم في عصرنا الحاضر، وأن كل ما يوّجه إلى الإسـلام من عداء ماكر للنيل منه وإزاحته عن قيادة العالم سـوف يعـود في النهاية بإذن الله تعالى على نحـور أصحابه، وذلك أن الله جلّ شأنه قد تكفّل بحفظ القرآن الكريم الذي هو الأساس العظيم للإسلام، حيث يقول سـبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩]، وقد هيّأ الله سبحانه - وله الحمد والمنة لدينه أنصارا، كما قال النبي ﷺ: «لا تـزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله»، وفي رواية أخرى «لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة».

ومما يُبشـر بما ذكرنا ما انتشـر في العالم الإسلامي وغيره من الحركات التـي توصـي باتباع الكتاب والسـنة والسير عليهما، ثم إن تلـك المباديء والمذاهب من شـيوعية ورأسـمالية غربية وغيرها من المذاهب التي يروّج لها اليوم أصحابها قد ثبت بالتجربة زيفها وفشـلها، وأنها لا تسعد البشرية،

(١) الدرر البازية في الرد على الانحرافات العقدية والشرعية ص١٨٩ - ١٩٠

بل تضرها في دينها وأخلاقها واقتصادها، حيث إنها من صنع البشر الذي طبيعته القصور والجهل والهوى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

وقد بدأت البشرية تلتفت يمنةً ويسرة علّها تجد منهجا صالحا ينقذها من الهاوية التي تردّت فيها جميع شؤون حياته، والإسلام وحده هو القادر على إنقاذ البشرية من تلك المهالك، وستكتشف البشرية بإذن الله تلك الحقيقة إن عاجلا أو آجلا، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧].

وكلامنا هذا هو في الإسلام النقي من شوائب الشرك والبدع الذي أخذ به النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح من بعده، فأفلحوا ونجحوا، وفتحوا البلاد، وقادوا العباد إلى سبيل الرشاد، وشاطيء السلام».

ديننا الحنيف وشرع ربنا القويم كلما ظهرت أنواع العلوم والصناعات ظهر من صحة الوحي ما يبهر عقول المنصفين وما يقودهم إلى الإيمان بالله والإذعان لصدق الوحي كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]:

(١) تيسير اللطيف المنان ص٣٣٢ - ٣٣٣

«فلم يبق من العلوم النافعة علم إلا بيّنه لهم، فإن القرآن تبيان لكل شيء، فعلوم الأصول وعلوم الفروع والأحكام، وعلوم الأخلاق والآداب، وعلوم الكون، وكل ما يحتاجه الخلق من ذلك اليوم إلى أن تقوم الساعة، ففي القرآن بيانه والإرشاد إليه، وهو الذي إليه المرجع في جميع الحقائق الشرعية والعقلية، ومحال وممتنع أن يأتي علم صحيح لا محسوس ولا معقول ينقض شيئا مما جاء به القرآن، فإنه ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾ [الأحزاب: ٤]».

وهذا الذي قاله ابن سعدي رحمه الله مقطوع به يجزم به المؤمنون ويعتقدونه إعتقادا يقينيا لأن القرآن كما نعته الله سبحانه: ﴿لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «وكذلك نفى عن كتابه القرآن الريب والعوّج والشك ونحوها، وذلك يدل على أنه الحق في أخباره وأحكامه، فأخباره أصدق الأخبار وأحكمها وأنفعها للعباد، وأحكامه كلها محكمة في كمال العدل والحسن والاستقامة على الصراط المستقيم».

* * *

(١) تيسير اللطيف المنان ص٣٤٣



موجب الهلاك توهمه العلمانيون سببا للنهضة

العلمانيون تنادوا بموجب هلاك الأمة ومادة ضعفها، فقالوا بتعدد الآراء بدعوى الحرية، والله يقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

فالعلمانيون يرون نهضة الأمة في الذي أخبرنا الله ورسوله ﷺ أنه هلاك، **عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال «ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة، سؤالهم واختلافهم في أنبيائهم، فما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فائتوا منه ما استطعتم**[1]».

فهذا الحديث واضح الدلالة في أن الخلاف موجب الهلاك.

وقد نهى الله عن تعدد الآراء وتشرذم الأقوال والإختلاف، وبيّن الله أن كثير الناس ضالون إلا من اعتصم بالوحي، قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2]: «يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذرا عن طاعة أكثر الناس ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ (ص٢٥٤ - رقم٧٢٨٨)

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٢٩١

﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾، فـإن أكثرهـم قـد انحرفـوا فـي أديانهـم وأعمالهم وعلومهم، فأديانهم فاسـدة، وأعمالهم تبـع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيـق، ولا إيصال لسـواء الطريق، بل غايتهم أنهم يتبعـون الظن الذي لا يغني من الحق شيئا، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون.

ومـن كان بهـذه المثابة، فحـري أن يحذّر اللـه منه عبـاده ويصف لهم أحوالـه، لأن هذا وإن كان خطابا للنبي ﷺ، فإن أمته أسـوة له في سـائر الأحـكام التـي ليسـت من خصائصـه، واللـه تعالى أصدق قيـلا وأصدق حديثـا، و﴿هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ ١١٧﴾ [الأنعـام: ١١٧]، وأعلـم بمـن يهتـدي ويهـدي، فيجب عليكم أيهـا المؤمنون أن تتبعـوا نصائحه وأوامره ونواهيه، لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلّت هذه الآية على أنه لا يسـتدل علـى الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السـالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهـل الحق هم الأقلون عددا الأعظمون عند اللـه قدرا وأجرا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل بالطرق الموصلة إليه».

والنبي ﷺ حذّر من الفرقة، وبيّن أنها كانت سـببا في هلاك من سـبق، ففـي حديث عبدالله بن مسـعود رضي الله عنه قال النبـي ﷺ «لا تختلفوا، فإن من

كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[١].

والنبي ﷺ أخبر أمته أنه لو وقع فيها الإختلاف فإن واجبها أن تعتصم بما عليه الصحابة حيث قال ﷺ: «كلها في النار إلا واحدة: ما أنا عليه وأصحابي»[٢].

قال الشاطبي رحمه الله[٣]: «قوله عليه السلام «إلا واحدة»، قد أعطى بنصه أن الحق واحد لا يختلف، إذ لو كان للحق فرق أيضا، لم يقل: «إلا واحدة»».

وقال مطرف بن الشخير رحمه الله[٤]: «لو كانت هذه الأهواء كلها هوى واحدا لقال القائل الحق فيه، فلما تشعبت واختلفت عرف كل ذي عقل أن الحق لا يتفرق».

فالواجب أن نعتصم بالحق وهو نور القرآن والسنة، ونحذر الباطل والضلالات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم

(١) رواه البخاري كتاب الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة (ص ٣٨٧رقم٢٤١٠)

(٢) رواه أحمد (٤ / ١٠٢)، وأبو داود (رقم ٤٥٩٦)، والترمذي (رقم ٢٦٤٠)، وابن حبان (٨ / ٢٥٨)، وصححه الترمذي والحاكم وابن حبان والبغوي والبيهقي وابن تيمية وابن القيم والشاطبي والعراقي وابن حجر وابن كثير والذهبي والبوصيري، وغيرهم كثير كما ذكرته في دفع المراء عن حديث الافتراق

(٣) الاعتصام (٢/ ٢٤٩)

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٦٩ - رقم ٣١٢)

بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال ابن السيد البطليوسي رحمه الله(١): «إن اختلاف الناس في الحق لا يوجب اختلاف الحق في نفسه».

وإن تعجب فعجب حال العلمانيين يناديهم ربنا بمحاذرة الفرقة، وهم يجعلونها أساسا في دعوتهم وسياستهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وبيّن الله صراحة أن تعدد الآراء والإختلاف شر، فقال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله(٢): «خلق أهل رحمته لئلا يختلفوا»، وقال الإمام مالك رحمه الله(٣): «الذين رحمهم الله لم يختلفوا».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٤): «فأخبر أن أهل الرحمة لا يختلفون، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولا وفعلا، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة، فمن خالفهم في شيء، فاته من الرحمة بقدر ذلك».

---

(١) الإنصاف ص٢٧
(٢) أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي (٣/ ١٠٧٢)
(٣) إحكام الأحكام (٥/ ٦٦)
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٥)

وقال النبي ﷺ في حديث النعمان بن بشـير رضي الله عنه[١]: «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب».

وقا ابن مسعود رضي الله عنه «الخلاف شر»[٢].

❊ ❊ ❊

(١) رواه أحمد وحسنه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٠١٤)
(٢) رواه أبو داود في سننه كتاب المناسك باب الصلاة بمنى (رقم ١٩٦٠)، بإسناد صحيح، وأصل هذا الحديث مخرج في الصحيحين



عمارة الأرض بالطرق المشروعة

إمتن الله على عباده بمنافع المعمورة فقال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٢٩﴾ ﴾ البقرة: ٢٩، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١): «في هذه الآية الكريمة دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سيقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخبائث فإن تحريمها أيضا يؤخذ من فحوى الآية، وبيان المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر، فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخبائث تنزيها لنا».

وهذا مما إتفقت عليه الشرائع، وقال تعالى: في شأن أهل الكتاب ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ويدل لذلك عموم قوله تعالى: ﴿ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقول النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٧

(٢) رواه أحمد (١/ ٣١٣)، وابن ماجة كتاب الأحكام باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (ص ٣٣٥ - رقم ٣٣٤٠)، والبيهقي (٦ / ٧٠) وحسنه ابن الصلاح والنووي وابن رجب الحنبلي

قال حرملة: كان الشافعي رحمه الله يتلهف على ما ضيع المسلمون من الطب، ويقول: ضيّعوا ثلث العلم، ووكلوه إلى اليهود والنصارى[١].

وهذا التضييع من المسلمين تهاون وتفريط، وإلا فإن شرعنا القويم قد حثّ على طلب علم الطب، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء»[٢]، وفي صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم «لكل داء دواء»[٣]، قال ابن القيم رحمه الله في فوائد الحديث[٤]: «فيه حث على طلب ذلك الدواء والتفتيش عليه».

وواجب الخلق عموما والمؤمنين خصوصا إذا أنعم الله عليم بعلم ديني أو دنيوي نافع أن يشكروا الله على نعمة العلم والهداية إليه، وأن يحذروا من استعمالها في مساخط الله، وأن يستعملوها فيما يرضي الله، وهذا من شكر النعمة أيضا ومن أسباب أن يمن الله ويتفضل على عباده بمزيد من العلم، ولهذا إذا تأملت آيات القرآن تجد فيها الأمر بالشكر بعد ذكر نعم الله، كما قال تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٢]، قال العلامة

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١١٦)، مناقب الإمام الشافعي لابن كثير ص٢٣٨
(٢) رواه البخاري كتاب الطب باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاءً (ص ١٠٠٥ - رقم ٥٦٧٨)
(٣) رواه مسلم كتاب السلام باب لكل داء دواء (ص ٩٧٧ - رقم ٥٧٤١)
(٤) زاد المعاد ص٦٧٣

عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وفي الإتيان بالأمر بالشكر بعد النعم الدينية من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وإنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل أن يشكروا الله على ذلك ليزيدهم من فضله وليندفع عنهم الإعجاب فيشتغلوا بالشكر».

وإنظر هذا في سيرة نبي الله داود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كيف ألان الله له الحديد يستعمله فيما ينفع البشرية دون المضارة بهم وأوجب الله عليه شكر هذه النعمة خصوصا وسائر نعمه عموما.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠ – ١١].

قوله تعالى ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾، قال الحسن البصري وقتادة والأعمش وغيرهم: كان لا يحتاج أن يدخله نارا ولا يضربه بمطرقة، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط، ولهذا قال تعالى: ﴿ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ ﴾، وهي الدروع، قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح[٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧١

(٢) تفسير القرآن العظيم ص١١١٦

وقولـه تعالى ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، قال الحافظ ابـن كثير رحمه الله[1]: «أي في الذي أعطاكم الله تعالى من النعم ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، أي: مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى علي من ذلك شيء».

هكـذا كانت صناعـة النبيين عليهم السلام، عمل مشـروع للنهضـة بمصالح أهل الأرض دون مضارة بالأرض والبشر والحرث والنسل كما فعل الأمريكان في القنبلة النووية التي ألقوها على اليابان فأبادت ديارهم، ومازالت أجيال البشر والشجر والحجر متضرر من وحشيتهم.

قـال إمـام الحرم المكـي العلامـة عبدالظاهر أبو السـمح رحمه الله[2]: «قال الله تعالـى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريـات: ٥٦]، أيها الإنسـان العاقل، بربك أخبرني بعد أن تفكر وتنظر، ولو قليلا، في ملكوت السـموات والأرض، أنا شـدك الله الذي خلق السـموات والأرض والذي تؤمـن بوجـوده، لا أخاطب غيـرك ممن يجحده جل وعـلا، أليس قد خلق الشـمس والقمـر، وسـخر مـا فـي السـموات وما فـي الأرض جميعـا منه لخدمتك ومنفعتك؟

فالشـمس تضيء لك بالنهار فتبصر السبل، وتميّز بين الأشياء، وهي في الوقت نفسه تنضج لك الفواكه وتصلح لك سائر النبات، وتدفع عنا جيوش

(١) تفسير القرآن العظيم ص١١١٦
(٢) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة (١/ ١٤٢/ ١٤٥)

البرد والرطوبة التي لو تركت لهجمت علينا وتركتنا حصيدا خامدين.

وانظر إلى القمر ومنافعه وتأثيره أيضا والكواكب، وإلي ذلك النظام البديع، ثم تأمل قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل: ٨].

فإذا كان كل شيء في السموات والأرض مسخر لك أيها الإنسان ومخلوق لخدمتك ومنافعك، فلماذا إذن أنت مخلوق؟ وما منفعتك؟ أترى مخلوقا أفضل منك، وقد أخبر الله أنك مسخر له ومخلوق لطاعته؟ كلا، بل أنت أيها الإنسان سيد المخلوقات، أنت الذي شرّفك الله بعبادته والقرب منه، فجعل كل شيء يخدمك، وجعل كل شيء مطيعا لك، وطلب منك أن تطيعه، وأعطاك اختيارا وقدرة وإرادة وعقلا تميّز به، كي تكون حرا فيما تأتي وما تذر، وخصك بخطابه ومناجاته.

أفليس من الخسة والدناءة أن تذهب بعد ذلك التكريم والتشريف تعبد غيره، وتطيع سواه، وتخضع لقانون بشر مثلك، تقدسه وتحكم به على غيرك؟

بأي حق استحق هذا المخلوق خضوعك له، والنزول على حكمه من دون الذي خلقك وسواك، وجعل لك من لدنه قانونا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

إن هذا المخلوق جاهل بمصالح نفسه فضلا عن مصالح غيره من بني جنسه، فضلا عن مصالح العالم كله على اختلاف طباعه وأجناسه ولهجاته وعاداته، أهذا أحق بك أم الله العليم الحكيم الذي خلق كل شيء، وعلّم كل شيء، الذي قدّر فهدى، الذي لا تخفى عليه خافية، والذي سواك وخلقك في أحسن تقويم، ومكنك من كل شيء، وجعلك خليفة في أرضه؟

حقا إنك أيها الإنسان ظالم لنفسك جاهل بمصالحها، أيها الإنسان، فكر في نفسك فأنت أحق من فكر، أأنت مؤمن بالله واليوم الآخر أم أنت في ريب؟

وأخبرني من ذلك، فإن كنت مؤمنا فما لك لا تعمل للآخرة، ومالك لا تطيع من آمنت به؟

إن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

وإن كنت غير مؤمن بالله تعالى ولا مصدّق بوجوده عرّفناك به وأقمنا لك الأدلة من نفسك على وجوده.

انظر بعين عقلك، هل ترى في هذه الدنيا فعلا بغير فاعل؟ وانظر وتفكر ثم أخبر واسأل المنكرين، أخلقوا من غير شيء، أم هم الخالقون؟ أم خلقوا السموات والأرض؟ فإن لم يجيبوا وأصروا على الإنكار، أجابت

عنهم المخلوقات: ما خلقنا إلا الله.

وإن من أدل الأدلة أن ترى ذا ذكاء، وعلوم دنيوية، ومعارف كونية، ومنطق فصيح، وشكل مليح، ينكر وجود ربه ويخاصم فيه وجدانه المعرّف به ويخاصم المؤمنين.

فهذا دليل على أن الله موجود، وأنه حليم وعدل وحكيم.

أما دليل وجوده فقد حدثناك به، وهو أن هذا المنكر بين أحد أمرين، لا ثالث لهما: فإما أن يكون مخلوقا من غير خالق وحادثا من غير محدث، وهذا محال.

وإما أن يكون هو الذي خلق نفسه، وهذا أبعد في الإحالة. ولا سبيل له إلا أن يقول: إنني مخلوق، والمخلوق مفعول، فلابد له من خالق، إذ لا يوجد مفعول بلا فاعل.

وإذا ثبت أن للمخلوق خالقا انتقلنا إلى تعرّف صفاته، فترى القدرة والعلم، والحكمة والحلم، والرحمة والعدل في لوح هذه المخلوقات، كلما أنعمت النظر فيها وتركت المجاحدة.

فمن العدل أن الله تعالى يعذب الأمم العاصية، ويمتع المطيعة على قدر طاعتها وسيرها في سبيل النظام الكوني المسمى: سنة الله في القرآن.

وهذا الخسف والمسخ والحروب التي تراها أو تسمع بها لم تكن إلا لخروج الناس عن الصراط السوي والأوامر الإلهية الكونية والشرعية، وإذا رأيت أمة عاصية في نعمة فاعلم أنها تعيش في سعة الحلم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، كما قال تعالى: لرسوله ﷺ ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣]، ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨].

وانظر قدرة الله في تلك البحار الزاخرة، والجبال الشاهقة، والشمس الباهرة، والقمر الزاهر، والنجوم الطوالع، التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

ثم انظر تلك القدرة القاهرة عند احتضار ملك من ملوك الدنيا، حيث يسلم نفسه من بين جنبيه وحوله نطس الأطباء، والأهل والأصدقاء، بين العدد والعُدد، والقوى المختلفة من أساطيل في البحر ماخرة وطيارات في الهواء سابحة ومدافع وقنابل ودبابات وغواصات وقواد وضباط وخيل وركاب، وكل ذلك لم يغن عنه شيئا، ولم يدفع عنه تلفا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

وأما الرحمة فانظرها في الأمهات حيث ترى الواحدة منهن ترضع أبناءها وتحنو عليهم وتدافع دونهم، وليس هذا في بني آدم فحسب، بل في كل نوع من أنواع الحيوانات، وتجد مثله إذا دققت النظر في النباتات.

وهكذا إذا أنعمت النظر في كتاب الكون وقلّبت أية صحيفة منه ظهرت لك صفات الباري جل وعلا بآثارها واضحة ناطقة بأن الله واحد.

وفي كل شيء له آية *** تدل على أنه واحد

وأن الحمد في السموات والأرض، وأن لا شريك له في ملكه وهو المستحق للعبادة والحب كله، وأن العبودية لا تليق إلا له جل شأنه».

ومع ما سبق بيانه من ضرورة عمارة الأرض بالوسائل المباحة على الوجه الذي ينفع الخلق فلابد من إستحضار مقصود تسخير الله لنا منافع الدنيا وهو التأله له وعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[1]: «إذا تأملت القرآن تجد أنه غالبا يقدم الشرع على الخلق، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣﴾ [الرحمن: ١ - ٣]، وتأمل الآيات في هذا المعنى تجد أن الله يبدأ بالشرائع قبل ذكر الخلق وما يتعلق به، لأن المخلوقات إنما

(١) تفسير سورة الكهف ص١٧

سُـخرت للقيـام بطاعة الله عز وجل، قال الله تبـارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريـات: ٥٦]، إذًا المهم القيام بطاعة الله عز وجـل، وتأمل هذه النكتة حتى يتبين لـك أن أصل الدنيا وإيجاد الدنيا، إنما هو للقيام بشريعة الله عز وجل».

وقـال العلامـة عبدالرحمـن السـعدي رحمه الله[1]: «إنما جعل اللـه التفكر والنظر والتدبّر مقصودا لغيره، مقصودا لتحصيل أمرين عظيمين:

أحدهمـا: ثمـرة ذلك التفكـر والتعقل، وهو حصول العلـوم والمعارف الدالة علـى المطالب العالية، ومعرفة قدرة الله، وتوحيده، وسـعة رحمته، وكمـال علمه، وشـمول حكمته، والدالـة على ما فيها من أصنـاف المنافع التي لا تزال تستخرج شيئا فشيئا.

والأمـر الثانـي: ثمرة هذه العلـوم من عبوديـة الله وإخـلاص الدين له، ومن تحصيل منافعها التي تفيد العباد، وتصلح أحوالهم وتتم بها أحوالهم، ويستجلبون بها المصالح ويدفعون المضار».



(١) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة (١/ ٢٨٠)

وحشية الحضارة الغربية

الإسلام دين عظيم، تشريعاته من عند الله العزيز الحكيم، والله عز وجل رحيم ولطيف بعباده فإنه أمر بكل ما فيه سعادة البشرية، وحفظ لكل كائن في هذه الخليقة حقه، وأمر عباده بما يوجب الحضارة والنهضة والبناء والإنتاج وعمارة الأرض، لذلك قال النبي ﷺ «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها»[١].

ونهى الله عز وجل القوي عن العدوان على الضعيف مهما كان الفارق واضحا وكبيرا بين الطرفين، ونهى ربنا عن العدوان على من في هذه الأرض ولو كان حقيرا كالنملة، فإن نبيا من الأنبياء قرصته نملة فأمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: أفلا نملة[٢].

فأي حضارة تنسلخ عن تشريع الإسلام فإنها تكون وحشية لا يزجرها عن عدوانها على الخليقة شيء.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله[٣]: «والمؤسف والعياذ بالله أن كفرة الإفرنج في هذا الزمن قادة وسادة في الضلال، يدعون الناس إلى

(١) رواه أحمد (٣/ ١٨٤) والبخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٤٢ - رقم ١٤٧٩)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله.
(٢) رواه البخاري كتاب بدء الخلق باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه (ص ٥٥١ - رقم ٣٣١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) العذب النمير (٣/ ١١٣١-١١٣٣)

الكفـر والإلحاد في آيات اللـه، والطعن في الدين بأنه تقاليد قديمة لا فائدة فيها ولا تسـاير ركب الحضارة، ولا يمكن أن تنظم علاقات العالـم بحسب تطورات الدنيا الراهنة.

وكثير من الخفافيش الذين ليس عندهم نور العقل يتبعونهم والعياذ بالله، ويقلدونهم في كل شـيء، فيوم القيامة إذا ماتوا تبرأ أولئك الرؤسـاء الكفرة المتبوعون من أولئك الأتباع الضعفاء المساكين العمي الذين يقلدونهم في كل ما يجرهم إلى النار، فعلى المسلمين أن يعلموا أن ما يسميه الإفرنج اليوم بالحضـارة الغربية والتقدم هو حقيقته الدعاء إلى الكفر بالله، والإلحاد في آياته، والطعن في كتابه وفي رسوله ﷺ فهم قادة النار، وسادة أهل جهنم الذين يتّبعهم كثير من الرعاع الذين لا عقول لهم، ولـم تتنور بصائرهم بنور الوحي، فهـم أتباع لأولئك في طريق جهنم، وعن قريب يقف الجميع أمام اللـه، وهؤلاء متبوعون سـادة فـي الكفر، وهؤلاء أتباع مسـاكين مغرورون خدعهـم أولئك حتـى جروهم إلى الكفـر بالله، والطعن في رسـله وكتبه، والإلحاد في آياته، وزينوا لهم أن الدين مسخرة لا فائدة فيه.

وبعضهم يقول لهم: إنه أفيون الشـعوب، فليحذر المسـلم أن يكون من أتباع الكفرة إلى نار جهنم.

واعلموا أن هذا الذي يطلقون عليه اسم الحضارة والتقدم أنه شعار يحمل في داخله حقيقة الكفر والإلحاد بالله، والتمرد على نظام السماء، والطعن في الدين، وفي الرسول ﷺ، والازدراء بالإيمان، والاستخفاف بأوامر الله ونواهيه، فهذا الشباب المنتشر في أقطار الدنيا الذي يقلد أولئك في كل ما يقولون ويفعلون ويعتقدون، مع أنهم يتسمون باسم المسلمين، هم أتباع، وأولئك متبوعون، ويوم القيامة قد علتم مصير المتبوعين الداعين إلى النار، ومصير الأتباع الذين يتبعونهم، فعلى المسلم في دار الدنيا قبل أن تضيع عليه الفرصة أن لا يغتر باسم الحضارة واسم التمدن واسم التقدم، وأن ينظر في الوحي السماوي، وما هي أوامر رب العالمين الذي خلق السموات والأرض، وما هي نواهيه، فيخضع لأوامر ربه، ويمتثل أمر الله، ويجتنب نهيه، ويقتدي بالرسول الكريم ﷺ لئلا يكون تبعا لكفرة فجرة يتبرؤون منه يوم القيامة ويندم، ويصير الجميع إلى النار.

ودين الإسلام الذي نتكلم باسمه - الذي هو تشريع رب العالمين جل وعلا - لا يمكن أن يكون صخرة تعثر في طريق التقدم، بل هو دين كل تقدم في كل ميادين الحياة، فدين الإسلام يدعو إلى التقدم والقوة في جميع ميادين الحياة، فما يخيله الكفرة الإفرنج من أنه دين ركود وجمود ودعة وخلاد إلى الأرض، وأن المتمسك به لا يمكن أن ينهض، ولا يساير ركب الحضارة، كلها فلسفات شيطانية لا أساس لها، تروج على ضعاف العقول.

أمـا دين الإسـلام فهو فـي حقيقة ذاتـه دين التقـدم في جميـع الميادين الحيوية، فيدعو إلى كل تقدم في جميع الميادين الحيوية، إلا أنه يعلم الناس أن هذه الدنيا ليست فوضى، وأن عليها ربا حكما عدلا هو خالق كل شيء، ومدبر كل شيء، ومنه كل شيء، وإليه مصير كل شيء، هو الذي خلق هذه الأرض والبحار، ونصب هذه الجبال ورفع السـموات، وخلق هذا الخلق، وشق أعينهم، وصبغ بعضها بصبغ أسود، وبعضها بصبغ أبيض، وفعل بهم ما هو معروف،هذا الرب هو الذي له السـلطان الأكبر، والكلمة العليا، فلا يصـدر إلا عن أمره، فهو - جل وعـلا - أنزل كتابا مبينا محفوظا من كلامه - جـل وعلا - وسـنة نبويـة على نبي كريـم ﷺ، بيّن فيها معالـم الحياة، وأقام فيها أسس الدنيا التي إذا مشت عليها قامت بالعدالة التي لا نظير لها، والأمـن والطمأنينـة والرفاهيـة، وانتظمت علاقاتها علـى أكمل وجه، ومع إرضاء خالق السـموات والأرض، والعمل لدار الكرامة والخلود في الجنة في الدار الأخرى».

وقـال العلامـة محمد الشـنقيطي رحمه الله مبينا خـواء الحضـارة الأوروبية والأمريكيـة مـن الـروح الحقيقة للحيـاة وهي نـور الوحـي[(١)]: «لا تقطعوا صلتكـم بمـن خلقكم لتأكيـد حظ أجسـادكم وحظ أرواحكـم، ومن أخل بأحد الطرفين ظهر فيه ما ظهر.

---

(١) العذب النمير (٢/ ٨٨٢-٨٨٣)

الآن الكفرة كالكتلة الشرقية والغربية نجحوا في خدمة الإنسان من حيث كونه حيوانا جسديا، وأنتجوا من القوة المادية والتنظيمية ما كان لا يدخل في حسبان أحد حتى في النوم، ولكنهم أفلسوا كل الإفلاس في الناحية الروحية، لأن أرواحهم خبيثة كأرواح البهائم والسباع، ليست مرباة على ضوء نور سماوي، ولا تعليم إلهي، فصارت هذه القوة الطاغية كأنها في يد سفيه جاهل لا يدري ماذا يفعل بها، ولذا تجد العالم كله في قلق من أن تنفجر هذه القوة وتفني كثيرا من الدنيا، وتراهم يعقدون المؤتمر بعد المؤتمر، والمجلس بعد المجلس ليتخلصوا من تلك القوة التي بذلوا فيها النفس والنفيس.

وأنا أؤكد لكم تماما أنه لو كان أحد الطرفين يعلم أنه لو بادر فدمّر ما عنده من القوة الفتاكة لفعل الثاني كما فعل، أنهم يبادرون ليتخلصوا من شرها وحوقها والقلق بها، ولكن الكل يخاف إن بدأ بإتلاف ما عنده أن يحتفظ الثاني بالقوة التي عنده ليهلكه بها، في الوقت الذي ليس عنده قوة تدافعها، كل هذا إنما جاءهم من أنهم أهملوا ناحية الروح، واعتنوا بناحية الجسد.

والاهتمام بناحية الجسد لا ينفع ولا يصلح إلا إذا كان مزدوجا مع الاهتمام بالروح، فلو كانت الأيادي التي صنعت هذه القوة مرباة تربية سماوية على ضوء نور إلهي لكانت في غاية العدالة، وكان الناس في أمر

تـام أنهم لا يبطشـون بها إلا في أمر يرضي اللـه، ويكون في مصلحة العالـم البشـري، ولـذا فهم كأنيـاب الأسـد وأظفاره، أنياب الأسـد وأظفـاره قوة حيوانيـة بهيمية طبيعتها الافتـراس والابتزاز والهدم، فـلا مصلحة بها لبني الدنيـا، لأن الـذي يديرها يوجهها توحيهـا لا فائدة فيه، كذلك المسـلمون عندهم تراث عظيم روحي، ضيّعوا هذا التراث».

ومن تأمل شـرور الحضارة الغربية المتطايرة على أرجاء المعمورة علم ما في هذه الحضارة من الأضرار المفسـدة لأديان الناس وأمنهم وتماسك مجتمعاتهم، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «ليس بغريب ارتقاء الأمـم الأخـرى - الكافرة -، في هـذه الأوقات في الصناعات المدهشـة، والاختراعـات الخارقـة المعجزة، والقوة الضخمة، أنهم لـم يزداوا بها إلا شقاء، حتى صارت حضارتهم التي يعجبون بها ويخضع لها غيرهم مهددةً كل وقت بالتدمير العام.

وجميع ساساتهم وعلمائهم في حيرة عظيمة من تلافي هذا الخطر، ولن يتلافـى إلا بإتباع ماجاء به القرآن والاسترشـاد بهدي محمد ﷺ، الجامع بين العلم والعمل والعدل، والرحمة، والحكمة، ومصلحة الروح والجسد، وإصلاح الديـن والدنيا والآخرة، فالعلوم الماديـة والقوة المادية المحضة

(١) فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد ص٩٤-٩٥

ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، حيث لم تبن على الدين الحق، وانظر بعينك ترى العجائب، فهذا الارتقاء المادي الذي لم يشاهد له نظير إذ خلا من روح الدين هو الحبوط والهبوط الحقيقي، والدنيا الآن كلها في خطر مزعج لا يعلم مدى ضرره وفظائعه إلا الله تعالى».





عودة إلى الأصالة بعد تجربة الضلالة

الأمـة جرّبت المناهج المنحرفة الخارجة عن شـرع الله وهداه، وكانت من أسـباب تقهقـر الأمة الإسـلامية وتسـلط عدوهـا عليها، كالاشـتراكية والقوميـة الناصريـة، والعلمانية، ولا نعرف لأمتنا عزة فـي تاريخها كله إلا لما قامت بالإسلام.

قال العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن آل الشيخ رحمه الله[1]: «وقد حصل باتبـاع محمـد ﷺ لمن آمن به من العـرب الأميين، وغيرهـم من أجناس الآدميـن من الملـك وميراث الأرض فوق ما حصل لبني إسـرائيل، فإنهم ملكـوا الدنيا من أقصى المغرب إلى أقصى المشـرق، وحُملت إليهم كنوز كسـرى ملك الفرس وقيصر ملك الروم، وصـارت بلادهم وبلاد المغرب والمشـرق ولاية لهم ورعية تنفذ فيهم أحكامهـم، ويجبى إليهم خراجهم، وقد مكثوا على ذلك ظاهرين قاهرين لمن سواهم من الأمم حتى وقع فيهم مـا وقـع في بني إسـرائيل من الخروج عـن اتباع الأنبياء، وترك سياسـتهم، والانهماك في أهوائهم وشـهواتهم، فجاء الخلل وسُـلط، العدو، وتشـتت الناس وتفرقت الكلمة».

وقال العلامة محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله[2]: «جربت الأمم الإسلامية - بعـد الصـدر الفاضـل - أنواعا من القيـادة، فما أوقعتهـا إلا في المهالك

(١) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة (١/ ٣٤)
(٢) الآثار (٢/ ٣٠٨-٣١٠)

والبلايا، وما كانت عواقبها إلا عقوبات، وقد أفلست جميع التجارب، واستشرف المسلمون إلى هداة وحداة من علماء الدين يستردون ما أضاعوه من سلطان، حتى يردوا هذا السواد المنتشر المتخبط في داجية من الضلال في الدين والدنيا، إلى الحظيرة الجامعة والقلعة المنيعة، والاسترداد لهذا الحق الضائع الأقرب منالا إذا اجتمعتم مثل اجتماعكم اليوم، وفكرتم في المسألة حق التفكير، وإن في زمنكم وأحداثه وفي أمتكم وتجاربها لأعوانا لكم على تقريب الغاية وصدق الآية.

إن في العالم الديني الموفق شمائل من الدين ونفحات من روح الله وآثارا من قوته، وفي الإسلام القوة والرحمة، والعدل والحكمة، والصدق والنصيحة، والعفة والأمانة، والإيثار والتضحية، وهذه - لعمركم - هي جوامع المؤهلات للقيادة حتى في هذا الزمن الطافر، وفي هذا العالم الكافر، وقد أصبحت الأمم التي جافت الدين وصدت عن تلمس شعاعه تهتدي به في ظلمات الحياة، وأسبابه لتعتصم به من هذه السيول الجارفة من الآراء والأحداث، فكيف بأمة لم تنقطع بينها وبين دينها الأسباب».

ثم قال «إن للثقافة الإسلامية ماضيا مشرقا وحاضرا مظلما، فهل لكم يا أنصار الثقافة أن لا تقصروا جهودكم وأبحاثكم على ماضيها، وهل لكم أن تعطوا مستقبلها الحظ الأوفر من عنايتكم، فتخطوا لمستقبل الثقافة الإسلامية معالم جديدة يهتدي بها الجيل الجديد.

إن هذا الجيل الجديد من أبنائنا وقف في مفترق طرق لا يدري أيها يسلك وقد فتح عينيه على زخارف تستهوى من الثقافة الغربية، وقد أصبحت هذه الثقافة أقرب إلى عقله وذوقه لما مهدّ أهلها ودعاتها من المسالك إلى النفوس، ولما تنطوي عليه من المغريات والمعاني الحيوانية، ولما فيها من موجبات التحلل والانطلاق، وما تزخر به من الشهوات وحظوظ الجسد، ولما يشهد لأهلها من شهود العلم، وهو يفتح عينيه كل يوم منها على جديد.

أما الثقافة الإسلامية التي هي أحق به وهو أحق بها فقد أصابها من الجمود والركود ما جعلها بعيده من عقله، غريبة عن ذوقه، نافرة من إحساسه، وما ذلك كله إلا من سوء ماصنع الأب، وما صنعت الأم، وما أثر الكتاب، وما طبع المعلم، وما اقترف المجتمع، حتى أصبح الناشيء يحتقر أبويه، ويستحي من جنسه، ويسخر من دينه، وما بينه وبين أن يتنكر لهؤلاء جميعا إلا أن يطلع على شيء من آداب الغرب، أو يلم بشيء من لغات الغرب ومجتمعات الغرب.

إن المظهر البارز للثقافة الإسلامية، هو كتبنا وعلومنا ومناهج الدراسة عندنا وأساليب البحث وطرائق التربية، ومن الكذب على الله وعلى الحق أن نزعم أن الكتب التي ندرسها، والمناهج التي نسلكها تحقق المعنى العالي للثقافة الإسلامية وإن الثقافة إذا تحقق معناها العرفي الواسع مسايرا

لمأ خذها اللغوي الضيق، تلابس النفوس، وتتغلغل إلى المكامن، وتدب إلى السرائر، فتبحث من الفرد أسباب النقص ومن الجماعة آثار الركود، وتفيض على الجميع روح الحياة يصبحون بها صالحين للحياة.

وإن أكبر امتحان تمتحن به الثقافة الإسلامية في أدوارها الأخيرة أن نقتطع في تاريخ الإسلام صحائفه الأخيرة، وهي خمسة قرون ونصف قرن، وننظر ماذا تحدر إلينا من أهلها من الآثار والأعمال، وقد نجد عشرات الألوف من المؤلفات، أقلها السمين، وأكثرها الغث، فتكون النتيجة أننا أضعنا خمسة قرون ونصف قرن في الأقوال من غير أن نعمل شيئا.

هذه الآثار القولية ظاهرة في الشروح والحواشي والتعاليق المملوءة بالجدل اللفظي العقيم، فأين الآثار العلمية في هذا الانحطاط المريع في الأخلاق، وهذا الزيغ الملحد في العقائد، وهذا الوهن في العزائم، وهذا الاستسلام الذي أفضى بنا إلى الاستعباد.

أيها الإخوان: أعندكم بالله وبشرف الثقافة[١] وبروح الجد من عصركم أن تهتموا بالماضي دون الحاضر، أو بالحاضر دون المستقبل.

صلوا مستقبل الثقافة الإسلامية بماضيها البعيد، واقطعوا من هذه السلسلة الطويلة عدة حلقات هي هذه القرون الخمس، فلا تمروا بها إلا للعظة والاعتبار، إذ ليس فيها ما يشرف ولا ما يحسن سمعة المسلمين.

(١) الاستعاذة لا تكون بمخلوق

ستفترقون غدا،وسيقول الناس عنكم ما يقولون، فاحذروا أن يقولوا عنكم بعد الآن ما كانوا يقولون: إنهم قوالون، وإنهم مازالوا حيث كانوا وكان أسلافهم الأقربون، يقولون كثيرا ولا يعملون شيئا، وإن عالم بلا عمل لم يعرف لعلماء الدين منهم فضيلة إلا التلقيب بـ«صاحب الفضيلة»».

وما رزئت الأمة الإسلامية في عقيدتها وحضارتها وأخلاقها إلا على حين غفلة من أهلها، ودروس العلم، وفشو الجهل، **والاغترار بتجربة كل جديد دون عرضه على الشريعة ووزنه بميزانها، فانظر كيف ركب المسلمون موجة الشيوعية وسهلوا قبولها لدى العامة والدهماء بتسميتها بالإشتراكية والبعثية، واغتر بها الجهال ظنا منهم أنها ستنصف الفقراء.**

وإن شئت أن تعرف حقيقة فساد الشيوعية الإشتراكية الإلحادية فانظر إلى أثرها في العالم الإسلامي، فقد تمكنت البعثية من أعظم ديار المسلمين ديناً وقوة وحضارة واقتصادا، فأحلت بها الخراب والدمار، فقد تسلط البعثيون الكفرة على معقل الإسلام، ودور خلافته، تمكنوا لبضعة عقود من الشام وبغداد، فأفسدوا العقيدة، وصار التمسك بالإسلام والتدين به عقوبة يعاقب عليها قانون البعث الإلحادي، قوّضوا مكامن القوة في الشام، وفي بلاد الرافدين، وأورثوا أهلها الذل والفقر والقهر.

والعامة الدهماء أتباع كل ناعق لما قام القذافي بثورته الشيطانية في ليبيا ناصروه ومكنوه من إسقاط الملك الصالح إدريس السنوسي، فنجحت

ثورته في معيار من يغتر بالبدايات ويغفل عن المآلات، ومن لا يجعل أساس وميزان الإصلاح شريعة الله، فتسلط القذافي على ليبيا وسام أهلها سوء العذاب، وكلهم عرف بعد أن ذهبت فتنته أن اشتراكيته شر ووبال على الإسلام والمسلمين.

قال العلامة مقبل الوادعي رحمه الله[(١)]: «جربت الثورات والانقلابات فكانت سببا لضعف المسلمين، وسببا لهزيمة المسلمين فما أكثر ما جُربت من زمن قديم، فالإخوة المصريون هم الذين قاموا على فاروق وعلى غيره، ثم بعد ذلك وضع أعداء الإسلام لهم الطاغية جمال عبدالناصر، الإخوة بعدن هم الذين - أي المسلمون - طرودا من عدن، وما شعروا إلا وعدن شيوعية حمراء».

وقال الإمام عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله[(٢)]: «وقد أجمعت الرسل عليهم الصلاة والسلام في شرائعهم المتنوعة على عصمة مال المسلم، وتحريم دمه وعرضه إلا بحق، وأجمع علماء المسلمين على ذلك، ومع هذا كله فدعاة الاشتراكية والشيوعية، وأعوانهم على الظلم والعدوان استباحوا أموال الناس، ودماءهم بغير حق، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وراءهم ظهريا، ولو أنهم قالوا: قد عرفنا أنه ظلم وعدوان، وأقدمنا عليه، لكان أسهل عند الله وعند المؤمنين، ولكن بعضهم مع

---

(١) إجابة السائل على أهم المسائل ص٢٨٢

(٢) الدرر البازية في الرد على الانحرافات العقدية والشرعية ص٣٠٢-٣٠٣

الظلم السافر، والكفر الظاهر يزعمون أن أعمالهم الماركسية، وتصرفاتهم الشيوعية، وسيرتهم الكفرية الإلحادية من الإسلام، ويزعم لهم أذنابهم وعبيدهم تلبسا وتضليلا أن الإسلام جاء بذلك ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥﴾ [الكهف: ٥]، ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾ [البقرة: ١٧١]، ولقد صدق الله حيث يقول وهو أصدق القائلين ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۝٤٣ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ۝٤٤﴾ [الفرقان: ٤٣ - ٤٤].

ومن زعم أن ما يفعله دعاة الإشتراكية والشيوعية من الظلم، والاستبداد والتعدي على حرمات المسلمين من الإسلام، فهو كافر ضال كاذب على الله ورسوله وعلى شرعه، كما أن من أنكر الحدود كحد السرقة أو غيره، وزعم أنها ليست من شرع الله، كما ينعق بذلك دعاة الإلحاد من الشيوعية وغيرهم، فهو كافر مكابر مكذب لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة: ٣٨]، ومن زعم أن الإشتراكية والماركسية من الإسلام، أو أنها خير من الإسلام، أو أرحم من الإسلام فهو أكفر عباد لله وأضلهم عن سواء السبيل.

والاشتراكية استوردها أربابها، ليغنوا بها الفقراء بزعمهم، وإنما جلبوها في الحقيقة، ليفقروا بها الأغنياء، ويسلبوا بها أموال الناس بالباطل باسم

رحمة الفقراء، ويصرفوها في مطامعهم وأغراضهم الدنيئة وشهواتهم البهيمية، ويخمدوا بها جذوة الحركة والعمل، ويصدو بها الناس عن التفكير في حق رب العالمين، والتنافس في مصالح الحياة، والثورة على الكفرة والطغاة الملحدين.

هذه حال الإشتراكية وأهلها، حسدوا الناس على ما آتاهم من فضله، وتجرؤوا على شرعه، وظلموا العباد، واستبدوا بالأموال العتاد، وحاربوا الله في أرضه واستكبروا عن طاعته وحقه، تباً لهم ما أخسر صفقتهم، وأخس مروءتهم وأسوأ عاقبتهم، فالحذر الحذر أيها المسلمون من أرباب هذه الفتنة العمياء، والبدعة النكراء، والكفر الصريح، والمعاداة لله ورسوله وشرعه، لعلكم تفلحون».

وقال إمام الحرم المكي العلامة عبدالظاهر أبو السمح رحمه الله[1]: «إن المسلمين لما تركوا الدعوة إلى الله وانصرفوا إلى شهواتهم مكّن الله منهم عدوهم فأذلهم واستباح أموالهم وأعراضهم وسامهم كما تسام البهائم العجماوات، وذلك جزاء من تشبّه بالبهائم في اتباع الشهوات، وعصى رب الأرض والسموات ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ۝٢٠﴾ [المجادلة: ٢٠].

ولا عجب أن يُسلط الله تعالى على المسلمين من يذلهم ويستعبدهم لما تركوا الدعوة إلى الله والعمل الصالح، فقد سُلّط الكفار المشركين

(١) مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة (١/ ١٢٨)

على من كانوا أبر منهم قلوبا وأفضل إيمانا وأعظم شجاعة وهم مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فأوقعوا فيهم القتل والذبح، حتى بقروا بطن حمزة ابن عم رسول الله ﷺ، حيث قال لهم «لا تبرحوا أماكنكم غَلبنا أم غُلبنا»، فغلبوا المشركين أولا، ثم تركوا أماكنهم يجمعون الغنائم، فلما فعلوا ذلك انقلب عليهم المشركون ثانية، وكان ما كان، فكيف بمن خالفوا الدين كله أصولا وفروعا وفعلوا جميع المنهيات، وعصوا جميع الأوامر حتى ما كان منها متعلقا بنظام الدنيا والسيادة فيها؟!

وإن من أعظم المصائب، وأشد الكوارث نسيان الغياث الحق عند حلول الخطوب وفجاءة النقم، **وأذل من الذل أن تطلب الحرية ممن عزه في إذلالك، وسعادته في إشقائك.**

إن المسلمين لا يحيون حياة طيبة، ولا ينالون العزة والسيادة إلا بأن يدعوا أنفسهم أولا إلى الله، فإذا أفردوه بالإلهية وأبوا أن يكونوا لغيره عبيدا، وتواصوا على ذلك، وصبروا عليه لم يلبثوا عشية أو ضحاها حتى يحيا منهم من حيّ عزيزا، ويموت منهم من يموت شهيدا شريفا، إن شاء الله تعالى».

❊ ❊ ❊

الباب الثاني

نقض تأسيس القرضاوي والسويدان



الحرية مراغمة للشريعة

الحرية التي ينادي بها الكفار الذين سوّغوا في مجتمعاتهم فعل ما شاءوا، والتدين بأي نحلة أو ملة أرادوا، وتدينوا بالكفر والشرك والضلال، فالكل يفعل ما شاء، ويقول ما شاء، ويتدين بما شاء، هو مراغمة لشريعة الله، وخروج عن مقتضى العبودية لله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأعجب من ذلك أن يحمل لواء هذه الدعوة العلمانية الإلحادية من ينتسب إلى الدعوة لله، وأعجب من ذلك كله أن يسمي الجهلة من كان هذا شأنه «مجددا».

الدعوة إلى أن يقول من شاء ما شاء هي مراغمة للشريعة ومضادة لها، فالقرآن كما وصفه الله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة: ٢]، فالتنكب للعاصم من الغواية هو دعوة ضلالة لا يرتاب في ذلك مسلم فضلا عن عاقل سوي.

فهذه الدعوة الفاجرة في الحقيقة هي دعوة لإسقاط الشريعة، **قال العلامة الشاطبي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «**حاصل الأمر مع القول بالتخيير، أن للمكلف أن يفعل إن شاء ويترك إن شاء، وهو عين إسقاط التكليف**».

إذا: لماذا بعث الله الرسل وأنزل الكتب؟!!

فالله أنزل كتبه وأرسل رسله ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، قال تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

---

(١) الموافقات (٤/ ١٣٤)

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[(١)]: «أي هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول ﷺ بعثه الله في الأرض إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم، ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴿٩﴾﴾ [الحديد: ٩]».

فالدعوة إلى الخروج على شريعة الله، وترك الإهتداء بنور القرآن، وركوب أنواع الضلالات والأهواء، والحرية لمن شاء أن يقول ما شاء إلغاء للشريعة وتعطيل ونقض لها، وهذا هو الهلاك والشر والضلال، قال العلامة الشاطبي رحمه الله[(٢)]: «إن فائدة وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، وتخييره بين القولين نقض لذلك الأصل، وهو غير جائز».

❊ ❊ ❊

(١) تفسير القرآن العظيم ص٧٢٧
(٢) الموافقات (٤/ ١٣١)



التوحيد حق الله الخالص لا حرية لأحد في الكفر

هذا الضلال الذي يهرف به هذا المتعالم السويدان بدعوى الحرية حيث قال: «اعبد ماشـئت، كيف شئت، ما عندي مشكلة»!! ضلال مبين، وغواية مهلكة، فإن التوحيد حق الله الخالص، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ (٣)﴾ [الزمر: ٣]، والشرك والكفر أعظم الظلم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣)﴾ [لقمان: ١٣]، وهو أعظم الظلم وعدوان على حق الله الخالص، لا حرية لأحد في العدوان على حق الله الخالص، هذا لا يقوله مسلم، ولا يرخـص فيـه من قـدر الله حق قدره، ولا يـأذن فيه من ميّز بيـن حق الخالق وحق المخلوق، فالواجب الدعوة للتوحيد والتحذير من الشرك.

عـن معـاذ بن جبل ﷺ قال: كنـت رديف النبي ﷺ علـى حمار، فقال لي: يا معاذ!

أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟

قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شـيئا، وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشـرك به شـيئا، قلت: يا رسول الله!

أفلا أبشر الناس؟

قال: لا تبشـرهم فيتكلوا[١].

فالتوحيـد حـق اللـه الخالص لا حـق لأحد فـي أن يأذن بحرية الشـرك والكفر، وبهذا يتبين ضلال طارق سـويدان في قوله: «اعبد ما شـئت، كيف شئت، ما عندي مشكلة»!!!

فالأمر ليس إلى السـويدان، والرسـل عليهم السلام ينكرون أن يكون لهم حق في الإذن في الشرك، فمن يجسر على هذا إلا من هو من أضل خلق الله.

قـال تعالـى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦﴾ [المائدة: ١١٦].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «أي: ماينبغي لي ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي».

لذلـك تجد الشـرع أمر بقتـل المرتد، فقـال النبي صلى الله عليه وسلم: «مـن بدل دينه فاقتلوه»[٣]، فلم يكن لأحد الحرية في الكفر بعد الإسـلام، فهذا من اختيار

(١) رواه البخاري باب (اسم الفرس والحمار (ص رقم ٢٨٥٦)، ومسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا (ص ٣٦ رقم ١٤٠).
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٢٦٥.
(٣) رواه البخاري كتاب الجهاد والسير باب لا يعذب بعذاب الله (ص ٤٩٨ – رقم ٣٠١٧)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

الكفر على الإيمان، والغواية على الهداية، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥ – ٨٦] .

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[١]: «المرتد لا يقر على ردته، بل يجبر على أن يعود إلى الإسلام أو يقتل، لقول النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»».

وتجد الشرع أمر بجهاد الناس حتى يوحدوا الله، فإن وحدوه عُصمت دمائهم وأموالهم، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين: أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان».

فهذا القتال لمصلحة الكافر، ليس مقصوده إفناء الكافر، بل مقصوده نجاته من نار جهنم وسوء العاقبة في الدار الآخرة، فإن الكافر إذا كان مضارا بنفسه ساعيا في هلاكها ماضيا في تقحم جهنم لم تنفعه موعظة في إنقاذه

(١) تفسير سورة آل عمران (١/ ٥٠٢-٥٠٣)
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٣٥٤

من هلاكه، فليس لنا سبيل إلى إنقاذه إلا بجذبه بقوة عن طريق جهنم، فهذا الجهاد كالدواء المر يكرهه المريض وفيه شفاءه وسلامته ونجاته.

وأوضح دليل على أن جهاد الكفار بالسيف هو لمصلحتهم هو أنهم لو أطبقوا على الكفر ولم يؤمنوا كان ذلك موجبا لنزول عذاب الله بهم، وهو أشد، قال الحافظ البغوي رحمه الله[1]: «إن الله أمر نبيه ﷺ بجهادهم بالسيف، ليرتدعوا عن الكفر، ولم يجتاحوا بالسيف، فإن للسيف بقية، وليس مع العذاب المنزل بقية».

ولاحظ في تشريع الإسلام الإلهي كيف حفظ الله للكافر كافة أسباب بلوغ الحجة إليه وكيف كفل الله له مأمنه على نفسه وأهله وماله، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ٦].

* * *

(١) شرح السنة (١٣/ ٢١٤)



شرائع الله تفصيل لكلمة التوحيد لا تنقضها الحرية

بيّنا فيما سبق أن التوحيد حق الله الخالص، وأنه لا حق لأحد في حرية الكفر والشرك والعدوان على حق الله الخالص،وشرائع الله من أوامره ونواهيه هي تفاصيل لكلمة التوحيد لا تنقضها حرية الخارجين عن شرع الله وشرائعه، وأوضح دليل على ذلك قتال أبي بكر الصديق ﵁ والصحابة للمرتدين لما منعوا زكاة أموالهم، فعن أبي هريرة ﵁ قال: لما توفي رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر ﵁، وكفر من كفر من العرب، فقال عمر ﵁: كيف تقاتل الناس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله، فقال: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله! لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها، قال عمر ﵁: فو الله! ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر ﵁، فعرفت أنه الحق[1].

قول الصديق ﵁ هذا موافق لقول النبي ﷺ: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق

(١) رواه البخاري كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة (ص٢٢٥- رقم ١٤٠٠،١٣٩٩)

الإسلام وحسابهم على الله[١].

وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ الحجر: [٩٢-٩٣]، قال البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان[٢]: «قال عدة من أهل العلم: عن قول لا إله إلا الله».

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله[٣]: «ففسروا العمل بقول كلمة التوحيد، وممن روي عنه هذا التفسير: ابن عمر رضي الله عنهما، ومجاهد رحمه الله».

وقال ابن القيم رحمه الله[٤]: «شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، هو تفصيل لا إله إلا الله، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله، وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها، فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها».

* * *

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سليلهم): «التوبة:٥»، ص٧رقم ٢٥، ورواه مسلم كتاب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (ص ٣٢ - رقم ١٢٥)

(٢) فتح الباري (١/ ١٢٠)

(٣) فتح الباري (١/ ١٢١)

(٤) بدائع التفسير (٥/ ٢٤٣)



النصارى مقرون أن المسلمين حقا لا يرتدون

عجيب أمر السويدان والقرضاوي وأعوانهم على تضليل المسلمين وترقيق الردة لهم بدعوى الحرية زعموا، وكان الواجب عليهم وعلى كل مسلم تحذيرهم من الحرية التي تهلك أصحابها وتكون سببا في خلودهم في نار جهنم.

وهذا شأن أهل الأهواء تتجارى بهم أهواؤهم إلى ما يكون سببا في مروق المسلمين من الإسلام، أعاذنا الله أن نكون من أسباب ردة المسلمين.

والنصارى فضلا عن المسلمين يعلمون أن المسلم حقا لا يرتد عن دينه، ففي حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له: سألتك هل يزيدون - أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتمَّ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد[1].

فكل مسلم يعرف أن المسلم حقا لا يرتد لأنه دين الله الذي اصطفاه لخلقه، وختم به الرسالات السابقة ونسخها، ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾[آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان باب (ص ١٢ - رقم ٥١).

ﭐلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة من يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار».

وإقرار هرقل ليس هو الحجة، وإنما الحجة في رواية الصحابة للأثر وتداوله، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله(١): «وكلام هرقل - وإن كان لا يحتجُّ به في مثل هذه المسائل العظيمة من أصول الديانات التي وقع الاضطراب فيها - فإن ابن عباس رضي الله عنهما روى هذا الكلام مقرراً له مستحنا، وتلقّاه عنه التابعون وعن التابعين أتباعهم كالزهري».

فالاستدلال إنما هو بتداول الصحابة ومن بعدهم لهذا الكلام، وروايته واستحسانه، وما يقع من ردة البعض فهذا أحد أصناف ثلاثة:

١ - من يعبد الله على حرف، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ ﴾ [الحج: ١١]، وإلا فالمسلم حقا لا يرتد، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) فتح الباري (١/ ٢٢٣).

٢- المبتدعة بدع مكفرة كالرافضة والجهمية ونحوهم، قال محمد ابن سيرين رحمه الله: «أسرع الناس ردة أهل الأهواء».

٣- من لا يعرف دين الإسلام حقا، كبعض الجهال في بعض نواحي إفريقيا، وإلا فمن يعرف الإسلام حقا لا يمكن أن يرتد، وهو يرى كمال الإسلام في عدل أحكامه وصدق أخباره، قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

فواجب المسلم أن يعلم الجاهلين، ويرد على المبتدعين لحفظ دين الله من التغيير، وأن يرسخ الإسلام في قلوب أهله بتعليم شرائعه هذا شأن أهل الحق، أما الضالون فيزلزلون الإسلام من قلوب المؤمنين بترخيص الردة لهم.





حرية الكافرين والمبتدعين كير يحرق الأمة الإسلامية

النبي ﷺ الناصح الأمين حذرنا من كل ما يوجب فساد ديننا وإبطال عقيدتنا ومسخ أخلاقنا، وقد نعت دعاة الكفر والضلالة بالكير الذي يحرق من يصغي إلى ضلاله، فقال ﷺ «ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة»[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «وهذه الأمور مما تعظم بها المحنة على المؤمنين، فإنهم يحتاجون إلى شيئين: أي: لدفع الفتنة التي ابتلي بها نظراؤهم من فتنة - الدين والدنيا - عن نفوسهم، مع قيام المقتضي لها، فإن معهم نفوسا وشياطين كما مع غيرهم، فمع وجود ذلك من نظرائهم يقوى المقتضي عندهم - كما هو الواقع - فيقوى الداعي الذي في نفس الإنسان وشيطانه ودواعي الخير كذلك، وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير، فكم من الناس لم يرد خيرا، ولا شرا، حتى رأى غيره - لاسيما إن كان نظيره - يفعله ففعله، فإن الناس كأسراب القطا مجبولون على تشبه بعضهم ببعض».

فالإذن والترخيص لأصحاب الحريات المذمومة بدعوى الحرية هو من إشاعة الشر ومن أسباب إفساد باقي الخلق، وهذا الحريق الذي يوقعه دعاة الحرية يجب إطفاؤه هكذا يفعل العقلاء كما يفعل دعاة الحريات المذمومة بالإبقاء عليه أو زيادة وقوده.

***

(١) رواه البخاري كتاب البيوع في العطَّار وبيع المسك من حديث أبي موسى رضي الله عنه (ص ٣٣٨ - رقم٢١٠١)

(٢) الإستقامة (٢/ ٢٥٤-٢٥٥)



الله نفى الحرية عن أولي العزم من الرسل فغيرهم أولى

الدعـوة لإطلاق العنان للحريات المذمومة بأن يعتقد الخلق ما شـاءوا، ويقولـوا ما شـاءوا دعوة شـر، فأولوا العزم من الرسـل ليسـوا أحرارا وهم أفضل الخلق، فسائر البشر من باب أولى.

قـال تعالـى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ النساء: ١٧٢، والمسـيح عيسـى ابن مريم عليه السلام أول ما أنطقه الله أمره أن يعلن للخلق جميعا أنه عبد لله لا حرية له في التفسخ عن أمر الله ونهيه وشرعه، ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [مريم: ٣٠].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسـى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسـوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربـه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها، لا هو ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، فنزههم عن الاسـتنكاف، وتنزيههم عن الاسـتكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبـات ضـده، أي: فعيسـى والملائكة المقربـون قد رغبوا فـي عبادة ربهم وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيدا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٢٥

ولـو أراد مخلـوق أن يتأله لغيـر الله فإنه لا يمكـن أن يخرج عن عبودية القهـر للـه، فيجري فيه أمر اللـه وقضاءه وقدره، قـال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريـم: ٩٣]، وقـال تعالـى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣].





الحريات المذمومة متاع الغرور عاقبتها الخسار والبوار

حريات الكافرين والضالين نزغات الشياطين وغرور المعرضين عن الدار الباقية المتهالكين على الدار الفانية، لعب ولهو ومرح، وكأنهم لم يخلقوا لعبادة الله، ولم يخلقوا ليجعلوا الدنيا حرثا للآخرة، فاختاروا أن تعجل لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، على أن يجمعوا بين الحسنتين في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۝٢٠٠﴾ [البقرة: ٢٠٠]، فهذا شأن من بخس نفسه حقها، أما من قدر نفسه حق قدرها ووفّاها حقها وكرامتها فهم الذين يقولون: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١]، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحسنة في الدنيا العمل الصالح، والحسنة في الآخرة: الجنة.

فمن يحيا في الدنيا حياة طيبة وتكون عاقبته الجنة هو الفائز حقا، أما من يلهو ويتمتع في دنياه فلهوه منغص ثم تكون عاقبته النار فهو الظالم لنفسه الخاسر قطعا، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل: ٩٧].

وقـال تعالـى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾ [الحديد: ٢٠].

فتأمل عاقبة الحريات الذمومة واللهو الباطل ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾.

فالعاقـل لا يأذن فيما تعقبه الحسـرة والندامة وفسـاد الأخلاق والدين، وما يورث الفساد في الأرض، فضلا عما يلحقه من العذاب الأبدي في نار جهنم والعياذ بالله، فما قيمة استمتاع أهل الباطل بحرياتهم المذمومة ؟!!

قـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «أفليسـت الدنيـا من أولها إلى آخرها لا نسـبة لها فـي الآخرة؟! فما مقدار عمر الإنسـان القصير جدا مـن الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها فيجعل سـعيه وكدّه وهمّه وإرادتـه لا يتعـدى الحيـاة الدنيـا القصيـرة المملـوءة بالأكدار المشـحونة بالأخطار؟! فبأي رأي رأيتم إيثارها على الدار الآخرة، الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون؟

فـو الله ما آثر الدنيا على الآخرة من وقـر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُدّ من أولي الألباب».

❊ ❊ ❊

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٧٤

الله لا يأذن بالكفر والبدع

الله عز وجل قضى كونا وقوع الكفر والبدع كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾ [التغابن: ٢]، وذلك لمصالح عظيمة، ليقوم أهل الإيمان بالجهاد والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة.

والله عز وجل لا يحب ولا يرضى ولا يأذن بالكفر والبدع، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته.

وهو سبحانه يحب المتقين، والمحسنين والمقسطين، ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين، ولا يرضى عن القوم الفاسقين، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد».

وما حرّمه الله من الكفر والشرك والفواحش وسيء الأقوال والأفعال

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ١٤٩)

حرّمـه لحكـم بالغة، وتأمل ذلك في شـأن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، قـال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «إنه لولا المعصية من أبي البشر - بأكله من الشجرة - لما ترتب على ذلك مـا ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى، من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسـال رسـله،وإنزال كتبه، وإظهـار آياته وعجائبـه وتنويعها وتصريفهـا، وإكـرام أوليائـه، وإهانة أعدائـه، وظهور عدلـه وفضله وعزته وإنتقامه وعفوه ومغفرته، وصفحه وحلمه، وظهور من يعبده ويحبه، ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الإبتلاء والامتحان.

فلو قدر أن آدم لم يأكل من الشـجرة، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده: لم يكن شـيء من تلك، ولا ظهر من القوة إلى الفعل ما كان كامنا في قلب إبليـس يعلمه الله ولا تعلمـه الملائكة، ولـم يتميّز خبيث الخلق من طيّبهم، ولـم تتم المملكـة، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب، وعقوبة وإهانة، ودار سعادة وفضل، ودار شقاوة وعدل».

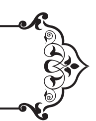
وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «إن الطبيعة البشـرية مشتملة على الخير والشر، والطيب والخبيث، وذلك كامن فيها كمون النار في الزناد، فخلق الشـيطان مستخرجا لما في طبائع أهل الشر من القوة إلى الفعل.

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٣٠)
(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٦٣)

وأرسلت الرسـل تستخرج ما في طبيعة أهل الخير من القوة إلى الفعل، فاسـتخرج أحكـم الحاكميـن ما في قـوى هؤلاء مـن الخير الكامـن فيها، ليترتب عليه آثاره، وما في قوى أولئك من الشـر، يترتب عليه آثاره، وتظهر حكمته في الفريقين، وينفذ حكمه فيهما».

فالمرخّصـون للحريات المذمومة سـاعون في اسـتخراج مـا في طبيعة البشر من الشر إلى الفعل، فهم خلفاء إبليس في الأرض، والعياذ بالله.



اتفاق الشرائع على صيانة النساء

المرأة صيرّها الغرب سلعة لحرياتهم المذمومة، فابتذلوها وامتهنوا كرامتها وأركسوها في ضلالهم وجعلوها مادة حريتهم، والشرائع كلها متفقة على صيانة المرأة ووجوب استتارها ومنع إختلاطها بالرجال.

قال تعالى: في شأن نبي الله موسى عليه السلام مع الرجل الصالح من مدين شعيب: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص: ٢٣ - ٢٤]، فاحتشام النساء عن الرجال وعدم الاختلاط هذا مما لم تنفرد به شريعتنا، بل هو مما اتفقت عليه الشرائع.

ومما يدل على اتفاق الشرائع على حفظ المرأة وصيانتها، وحفظ المجتمع من الإنحلال والتدمير والهلاك التحذير من جعل المرأة مادة فتنة الناس وغوايتهم وإضلالهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم «اتقوا الدنيا، واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[1].

وجاء الإسلام بشرائعه المنزلة من رب العالمين بصيانة المرأة وتوظيف طاقاتها لتكون مادة بناء المجتمع بناء قويا صحيحا فيتماسك المجتمع

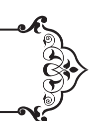
(١) رواه مسلم كتاب الرقاق باب أكثر أهل الجنة الفقراء، وأكثر أهل النار النساء، وبيان الفتنة بالنساء (ص ١١٨٧ رقم ٦٩٤٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ويقـوى ويحقـق العبودية لله، وينشـأ في كنـف المرأة فتيـان الأمة، وهكذا يكون المجتمع صالحا قائما بأمر الله وشرعه.

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء، وهي أعظم فتنة، وهناك أناس الآن يحيكون كل حياكة من أجل أن يهـدروا كرامـة المرأة، من أجل أن يجعلوها كالصـورة، كالدمى، مجرد شـهوة وزهرة يتمتع بها الفسـاق والسـفلاء من الناس، ينظرون إلى وجهها كل حين وكل ساعة، والعياذ بالله - ولكن بحول الله - أن دعاء المسلمين سـوف يحيط بهم، وسـوف يكبتهم ويردهم على أعقابهم خائبين، وسوف تكون المرأة السعودية - بل المرأة في كل مكان من بلاد الإسلام - محترمة مصونة، حيث وضعها الله عز وجل».



(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ١٩)

حماية الناس من الضلال والباطل مصلحة محضة

خلق الله الخلق وهو أعلم بما ينفعهم وما يضرهم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، فأمرهم بما يجب عليهم من حقه الخالص وهو توحيده وحده لا شريك له، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣]، ونهاهم عن كل ما يضرهم من الاعتقادات الباطلة والأقوال والأفعال الفاسدة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١]، وبيَّن الله حكمته في تحريم المحرمات وأنها مصلحة متمحضة أو راجحة فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴿٢١٩﴾﴾ [البقرة: ٢١٩]، فالأوامر والنواهي الشرعية التي يأنف أهل الضلال من لزومها وتحقيق العبودية لله فيها بدعوى الحرية هي من تشريع أرحم الراحمين الذي أراد مصلحة عباده لا العنت والمشقة لهم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨]، وأمر الله بلزوم صراطه وحذّر من اتباع الأهواء الردية والسبل المعوجة التي هي سبب فساد الدنيا وخرابها فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ

ﵟذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣ﵞ [الأنعام: ١٥٣]، وقال سبحانه: ﵟوَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا ٥٦ﵞ [الأعراف: ٥٦]. وقال تعالى: ﵟوَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ ٥٠ﵞ [القصص: ٥٠].

قال الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إنما سميت الأهواء لأنها تهوي بصاحبها في النار، ألا ترى في القرآن أنه ليس من هوى جر إلى خير».

فإذا كانت بعض حريات الناس تجر إلى الشر، خصوصا مقالات العلمانيين والمبتدعة، فمنعها مصلحة محضة للمبتدع نفسه وللمسلمين عموما، فالمبتدع منعه من نشر ضلاله خير له فيتخفف من آثام من يعمل بضلاله، والناس يصان دينهم عن ضلال المبتدعين وأهواء الزائغين.

فلا يجوز التهاون مع المبتدعين خصوصا من كان منهم داعية إلى بدعة وضلال، قال أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كما لا يجوز في سياسة الملك العفو عمن خرج على السلطان، لا يجوز في سياسة الشرع العفو عمن ابتدع في الأديان».

وهكذا الجهاد شرعه الله لحفظ أديان الناس من المفسدين في الأرض بالكفر والشرك، ولإنقاذ الكافرين من أسباب عذاب الله الأخروي الدائم، قال تعالى: ﵟوَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ١٩٣ﵞ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) مختصر الحجة على تارك الحجة (١/ ٢٩٠)

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله[١]: «ألا ترى أن الجهاد في صورته مفسدة إتلاف النفوس والأموال، وهو آئل إلى حماية البيضة وحفظ سلامة الأمة وبقائها في أمن، فكان من أعظم الواجبات، إذ لو تركوه لأعقبهم تلفا أعظم بكثير مما يتلفهم الجهاد».

فكل ما يأمر الله به فهو خير وصلاح للأرض والأفراد وللبشرية بمجموعها، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [النساء: ١٧٠]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «فأخبر أنه ﴿خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، والخير ضد الشر، فالإيمان خير للؤمنين في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم ودنياهم وأخراهم، وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وآجل فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم والعمل الصالح والسرور والأفراح والجنة وما اشتملت عليه من النعيم كل ذلك سبب عن الأيمان، كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه».

وقال تعالى: في شأن كمال القرآن: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٣]: «هيمنته على

(١) مقاصد الشريعة الإسلامية ص٣٧٠
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٢٢٤
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٥٧٨

الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول. ثم مسايرة إرشاداته، وهدايته، وأحكامه، لكل حال وكل زمان، بحيث لا تصلح الأمور إلا به».

❊ ❊ ❊

دعاة على أبواب جهنم

دعاة جهنم هم دعاة الضلال، الذين ضادوا شـرع الله، واتبعوا أهواءهم بغير هدى من الله، وحذيفة رضي الله عنه **سأل النبي ﷺ وقال له: هل بعد هذا الشر مـن خير؟ قال: نعـم، وفيه دخن، قلـت: وما دخنه؟ قال: قـوم يهتدون بغير هداي، تعرف منهم وتنكر، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟**

قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها، قلت: يا رسول الله! صفهم لنا، قال: هم من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا[1].

فدعـاة الباطل دعـاة على أبواب جهنم كما قـال النبي ﷺ، وماذاك إلا لأنهـم يهدونهم إلى صـراط الجحيم، فالواجب على المسـلم ملازمة دين الله وشرعه، ومعرفة الحق وقصده ولزومه، ومحاذرة الباطل ودعاته.

وفي الحديث تنبيه إلى أن دعاة جهنم سيظهرون الإنتساب إلى ديننا لقوله عليه السلام: «هم من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا»، ففيه تحذير من الإغترار بهم وإن كانوا من بني جلدتنا، فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله كما قال النبي ﷺ.

وفـي قول النبي ﷺ عن دعـاة جهنم «هم من جلدتنـا» بيان عظم خطر هؤلاء فإن الناس يقبلون من بني جلدتهم مالا يقبلون من الأجانب.

(١) رواه البخاري كتاب الفتن باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة (ص١٢٢١- رقم ٧٠٨٤)، ومسلم كتاب الإمارة باب وجوب ملازمة الجماعة (ص٨٢٩ - رقم ٤٧٨٤).

قال الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله[١]: «إن هؤلاء الدعاة اليوم، الذين يدعون إلى أنواع من الباطل كالقومية العربية، والاشتراكية، والرأسمالية الغاشمة، وإلي الخلاعة، والحرية المطلقة، وأنوع الفساد، كلهم دعاة على أبواب جهنم، سواء علموا أم لم يعلموا، من أجابهم إلى باطلهم قذفوه في جهنم، ولا شك أن هذا الحديث الجليل من أعلام النبوة، ودلائل صحة رسالة النبي ﷺ حيث أخبر بالواقع قبل وقوعه فوقع كما أخبر».



(١) الدرر البازية في الرد على الانحرافات العقدية ص٢٨٤-٢٨٥



كل حرية تخالف الإسلام مردودة

الشرائع السماوية السابقة دخلها التغيير والتبديل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٥]، من أجل ذلك نسخها الله بشريعة الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، **وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة من يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»**[١]، فالشرع المبدل كاليهودية والنصرانية لا يجوز التدين به، فالأهواء المحضة أولى.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي ﵀[٢]: «إن كل قول أو عقيدة أو خلق أوعمل ليس عليه أمر الدين فهو مردود شرعا وعقلا وفطرة، ليس هذا مجرد دعوى، وإنما هو مما يتفق عليه العقلاء، فالدين الإسلامي الذي هو دين محمد ﷺ وجميع الرسل يدعو إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والاعتراف بوحدانية الله وتفرده بكل كمال، وتفرده بالخلق والرزق والنعم الظاهرة والباطنة، والقيام بعبودية الله ظاهرا وباطنا، والتوجه إليه وحده، وخوفه ورجائه وحده، والإنابة إليه في جميع النوائب

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (ص ٧٧ رقم ٣٨٥)
(٢) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول المحلدين ص٧٤-٧٦

والملمات، والشكوى إليه في كل المهمات، والقيام بحمده وشكره، واللهج بذكره ودعائه، والتعلق به وحده في كل شيء، وترك التعلق بالمخلوقين، فهل هذا خير، أم الكفر بالله والجحود والتعطيل لأوصافه، وكفر نعمه، والطغيان والاستكبار عن عبادته، وتعلق القلوب بالمخلوقين رغبة ورهبة ورجاء، كما هو حال الملحدين؟

والدين الإسلامي يدعو إلى الصدق في الأقوال والأفعال، وإلي البر والنصح للخلق كلهم، والقيام بحق الوالدين والأقارب ومَن للإنسان بهم تعلق وصلة، ومن لهم حق عليه، ويأمر بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاء، وصيام رمضان، وحج بيت الله الحرام، والقيام بشرائع الدين، وأهل الإلحاد يقولون ويفعلون ما يناقض ذلك.

والدين الإسلامي يأمر بالعدل في المعاملات كلها، والقيام بالحقوق كلها، وينهى عن الظلم في الدماء والأموال والأعراض، والوفاء بالعهود والعقود، ومراقبة الله في حال قيام العبد بها ليوفيها حقها، ويبتعد عن شرورها ومفاسدها خوفا من الله ورجاء لثوابه.

وأهل الإلحاد بضد ذلك، وليس في ضمائرهم خوف ولا مراقبة لله. وإنما هي تشبه أفئدة البهائم بل أضل، فحيث ما دفعتهم إلى الأغراض الخسيسة والظلم، واغتنام الخيانات، وتضييع الأمانات، اندفعوا إليها،

ليس عندهم دين ولا خلق ولا مراعاة ذمة،إنما هي الإباحية المحضة، وليس عندهم خشية إلا من مخلوق أقوى منهم، فهؤلاء كالأنعام بل هم أضل، وهؤلاء لم تنفعهم إدراكاتهم ولا مشاعرهم نفعا يجدي.

وبالجملة: الدين الإسلامي يدعو إلى كل خلق جميل، وعمل صالح، وهدي مستقيم، وطريق قويم، وصلاح متنوع، فكل من خالفه وقع في ضد هذه الأمور الجميلة، وسقط في مهاوي الهلاك والأخلاق الرذيلة، فلقد تعس وانتكس من عبّر عن عقائد الدين وأخلاقه وأعماله التي لا حياة للوجود إلا بها بالرجعية، والرجوع إلى القديم، والعبادات الوسخة التي هي أكبر معبر عن سخافة عقول معبريها، وسقوطهم في كل رذيلة، وخلوها من كل فضيلة، ولقد قال إخوانهم السابقون عن القرآن ومن جاء به ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾ [الأنعام: ٧]، ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾ [الفرقان: ٤١]، ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠]».



الشرع العادل

شـريعة الإسـلام شـريعة إلهية، أنزلها ربنا سبحانه وتعالى على رسـولنا محمـد ﷺ، ليهتـدي بهـا الخلـق، وتصلـح أمورهم وتجرى على أحسـن سـبيل وأقـوم طريـق، قـال تعالـى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء: ٩]،

وقـال تعالـى﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾[الأنعام: ١١٥]، وقـال تعالـى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾[النحل: ٩٠]، قـال العلامـة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[(١)]: «فالعـدل الذي أمر الله به يشـمل العـدل في حقه وفي حق عبـاده، فالعدل فـي ذلك أداء الحقوق كاملـة موفورة، بأن يؤدي العبد مـا أوجب الله عليه مـن الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهمـا في حقه وحق عباده، ويعامل الخلـق بالعدل التام، فيـؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سـواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى وولاية القضاء ونواب الخليفة ونواب القاضي.

والعدل: هو ما فرضه الله عليهم في كتابه وعلى لسـان رسـوله وأمرهم بسـلوكه، ومن العـدل من المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشـراء، وسائر المعاوضات بإبقاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقا، ولا تغشهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥١٣

ولا تخدعهم وتظلمهم، فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره، وخص الله إتياء ذا القربي وإن كان داخلا في العموم، لتأكد حقه وتعيّن صلتهم وبرهم والحرص على ذلك، ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم، لكن كل من كان أقرب كان أحق بالبر، وقوله ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش، ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى، وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض، فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إتياء ذي القربي، فهي مما أمر الله به، وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي، فهي مما نهى الله عنه، وبها يعلم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء، ولهذا قال ﴿يَعِظُكُمْ﴾، أي: بما بيّنه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم، ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها».

وإذا ذهبت تستقريء الشريعة في كل مواردها وجدت أحكامها غاية في العـدل، لأن اللـه عدل حكيم عليـم رؤوف ودود قـدوس، فانظر إلى عدل الإسلام مع البهائم فضلا عن بني آدم، انظر كيف نهى النبي ﷺ عن صبر البهائـم، ونهى عـن التحريش بين البهائم، وأمر بالإحسـان إليها، وكيف نبّـه ﷺ أن امـرأة سـقت كلبـا كان يلهث مـن العطش فدخلـت الجنة، وأدخل الله النار امرأة في هرة حبسـتها، لا هي التي أطعمتها، ولا هي التي تركتها تأكل من خشاش الأرض.

وانظر إلى عدل أحكام الإسلام مع الكافرين، كيف أمرنا الله بدعوتهم إلى الإسـلام رحمـة بهم ليدخلـوا الجنة ويسـلموا من النار، قـال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ [الأنبيـاء: ١٠٧]، وانظـر كيـف حرّم نبينـا ﷺ العـدوان علـى غيـر المحاربيـن منهـم، فعـن عبداللـه ابـن عمـرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من قتل معاهدا لم يرح رائحة الجنة[1]»، ونهـى عـن اللقطة من مـال المعاهد كما في حديـث المقدام ابن معدي كرب رضي الله عنه فـضلا عن أموالهم في حرزها، وكان من عدل الإسلام أن جلس أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عند القاضي شريح رحمه الله ليقضي فيه في شكوى يهودي.

وانظر إلى عدل الإسـلام في تشـريع الحدود والتعزيرات صيانة للأفراد والمجتمعات، قـال تعالى: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧٩ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

(١) رواه البخاري كتاب الجزية والموادعة باب إثم من قتل معاهدا بغير جرم (ص ٥٢٧ - رقم ٣١٦٦)

وانظر إلى عدل الإسلام في الإقتصاد في نهيه عن الربا لئلا يتمانع الناس الإحسان، ونهيه عن الغرر والميسر حتى لا يأكل الناس أموالهم بينهم بالباطل وبالبطالة، مما يورث العداوة والبغضاء.

وانظر إلى عدل الإسلام في الشؤون الاجتماعية فقد قال النبي ﷺ: «الناس شركاء في ثلاثة: الماء، والكلأ، والنار[1]».

وانظر كيف حثّ الإسلام على الإحسان للخلق ورعاية أقدارهم، فقد قال النبي ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه[2]».

وانظر إلى عدل الإسلام في حفظ أمن الناس، قال النبي ﷺ «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم[3]»، وانظر كيف غلّظ الله عقوبة قطاع الطرق، حفظا لأمن الناس ومنعا أن يكون الضعيف نهبا للقوي.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ

---

(١) رواه أبو داود (رقم ٣٤٧٧)، وابن ماجة (رقم ٢٤٨٣)، من طريق أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً، قال ابن الملقن: «اسناد على شرط الشيخين»، وقال الضياء المقدسي: «اسناد جيد»، وصححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند لما في غير الصحيحين (٢/ ٣٥٤).

(٢) رواه الترمذي كتاب البر والصلة - باب ما جاء في رحمة الصبيان (ص ٤٤٨ - رقم ١٩٢١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال حسن غريب وصححه النووي في رياض الصالحين ص ١٠٢.

(٣) رواه البخاري كتاب الحج باب الخطبة أيام منى (ص ٢٨٠ - رقم ١٧٣٩)، وورواه مسلم كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ (ص ٥١٥ - رقم ٢٩٥٠).

فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ [المائدة: ٣٣].

وكان الخلفاء يسألون العلماء والناصحين النصيحة في ولايتهم، فقد التفت الخليفة العباسي المنصور رحمه الله إلى جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين وسأله النصيحة، فقال جعفر: حدثني أبي عن جدي عن أبيه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من ملك يصل رحمه وذا قرابته، ويعدل على رعيته إلا شد الله له ملكه، وأجزل له ثوابه، وأكرم مآبه، وخفف حسابه»(١).

وقال الشيخ أحمد بن علي بن أبي الحسين ناصحا الخليفة أبا أحمد المستنجد بالله العباسي الهاشمي(٢): «يا أمير المؤمنين إن أنت أنفذت أحكام كتاب الله – تعالى وتقدس – في نفسك، نفذت أحكام كتبك في ملكك، وإن عظّمت أمر الله تعالى باتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، واحتفلت بشأنه الكريم، عظّم الناس عمالك وولاة الأمور من قبلك، ولا تنظر يا أمير المؤمنين ما عليه القياصرة وملوك المجوس من القوة في ملكهم – مع انسلاخهم وبعدهم عن كل ما ذكرته لك – فإنهم جهلوا الحق فأبعدهم

(١) رموز الكنوز (٣/ ٤٧٥).
(٢) نقل هذه النصيحة إمام الحرم المكي العلامة عبدالظاهر أبو السمح، مقالات كبار العلماء في الصحف السعودية القديمة(١/ ٢٢٥-٢٢٩)

الحق عنه، وقرّبهم من الدنيا، وقرّبها منهم، وولاهم أمر من شاء من خلقه، فإن ساسوهم بما تسكن إليه أفئدتهم، وتطمئن له طباعهم دام أمرهم في حجاب دنياهم إلى أن تنقطع حبال آجالهم، وإن لم يسوسوهم بالرفق والمداراة، وأوقعوا فيهم ما يثقل عليهم، فسلب دنيا قوم بقوم، والنار مأوى الكافرين.

وأما أنت يا أمير المؤمنين، فحافظ ثغور، وحارس دماء وأموال عزت بكل مفازاتها بسيوف الإسلام، لا علماً بقدومك بعد حين، ولا تمهيدا لك لتفعل برأيك، إنما كان ذلك لله ولرسوله ﷺ، فافزع في كل أمورك إلى الله، وعظّم في كل شؤونك أمر رسول الله ﷺ، وأنت حينئذ في أمان الله، نافذ الأمر، ثابت السلطان، مؤيدا بجند الله وكلماته، ولا تبديل لكلمات الله.

ثم إن – يا أمير المؤمنين – كل ما يصل إلى خويصة نفسك في هذه الدار من طعام تأكله، وشراب تشربه، ورداء ترتديه، وظل تستظله، واجعل الشره على الدنيا بقدر ذلك، وإياك وظلم العباد، وإذا استفزك الشيطان ورام نزغك إلى الظلم، فسل نفسك لو كنت مسجونا أو مظلوما، أو مقهورا، أو مكذوبا عليك ما الذي تريده لنفسك من سلطانك؟

وعامل الناس بما تريده لنفسك، فإنك إن فعلت ذلك وفيت العدل والآدمية حقها.

واعلم أن ما أنت فيه من الملك والدولة شيء يسير من ملك الله، وأنت جزء صغير منه، فإن رأيت لك شيئا، ونسيته، وقمت تفعل فعل من يزعم مشاركة في ملكه فأهملت حقه، وغدرت خلقه، يصرف عنك عونه ونصره، ولك فيمن مات عبرة، ولا تنظر - يا أمير المؤمنين- إلى من صرفهم عن مشغلة الدنيا من أحبابه المقربين إليه، كبغض الصحابة الذين نازعهم الناس، وانتزعوا أزمة الدنيا من أيديهم، لأن أولئك قوم اجتذبهم إليه، وولى على الناس من يشاكلهم في أعمالهم، وكل عن عمله مسؤول، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

يا أمير المؤمنين: ظلك ما أظلك، ورداؤك ما سترك، وطعامك ما أشبعك، ومالك مالك منه شيء، وليس لك من الأمر شيء، إن ربي على ما يشاء قدير.

نعم أنت خاتم من خواتم القدر، يطبع على ألواح الصور، فيرفع الله به ويضع، ويصل ويقطع، فإن أنت لزمت الأدب مع الفعال المطلق برعاية حق شرعه الذي شرع لعباده أثابك وأدار محور الواجب بك، وبأهلك بعدك، وإن أهملت أمره وهتكت ستر خلقه، دخلت في عداد الظالمين ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾ [البقرة: ٢٧٠].

يا أمير المؤمنين: أهل الفهم السليم والذوق الصالح تجتمع هيئتهم على الحق، ويترعرعون في بحبوحة العدل والإحسان، فكبيرهم وصغيرهم،

وأميرهـم ومأمورهم، وحرهم وعبدهم في الدين سـواء، ولكل منهم مقام معلـوم، لاتشـب فيه نار الشـقاق، ولا يتحكم فيه سـلطان سـوء الأخلاق، يحكمـون بمـا أنزل اللـه، ولا يزالون في أمان الله، ولـو احتالوا في الحكم فجعلـوا له وجهـا في الظاهـر، وأبطنوا الباطـل، يقول لهـم الحكيم العدل ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائـدة: ٤٧]، فـإذا أظهروا الباطل، وهيئوا له سبيلاً شرعياً أدخله غلبتهم وشوكتهم في الحكم، قال الحـق تعالى لهم ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٥].

يـا أمير المؤمنين: أروقة الأعمال لا تعمر بأيدي الخيال، ولا يصان حي إلا بمـادة جامعـة تلصق القلـوب ببعضها، وتدفع النـزاع والتفرقة، **وما هي والله إلا الشرع العادل والسنة المحمدية الصالحة**، وكل ذلك أمر الله الذي طبـع الطباع وعلم ما تطيب لـه، وبه يرتاح الضعيف لطلب حقه من خصمه القوي، وأنت تدري - يا أمير المؤمنين - أن ابن عمك إمام المسلمين علياً أمير المؤمنين رضي الله عنه حدّث عن ابن عمه سيد المخلوقين أنه قال «لن تقدس أمـة لا يؤخـذ للضعيف فيها حقه من القوي غيـر متعتق»، والأمر - والله - كذلك.

وعلمت - يا أمير المؤمنين - من سـيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفاروق الجليل رضي الله عنه أنـه لم يرهب فارس والروم والمغرب والصين والهند والبربر

بفرش الديباج، وبسط الحرير، وكؤوس الجواهر، والخيول المسومة، والبيوت الشاهقة، والأقواس المذهبة، إنما أرهبهم بالعدل المحض، وأفحم شوس رجالهم بالحكمة البالغة، ألا وهي شريعة نبيك ﷺ سيد الحكماء وبرهان العقلاء، وإمام الأنبياء محمد ﷺ.

ولتعلم - أمطر الله على قلبك سحاب الإلهام المبارك والتوفيق، وأحكم أمرك بالأعوان الصالحين أهل الحكمة والنجدة - أن الحق كمين تحت ضلوع الخاصة والعامة، المحق منهم والمبطل، فربما أعانك على باطلك بيده ولسانه انقيادا لوقتك، وأنكره عليك بسره، وأضمر قلبه لك السوء، فلا يزكي - كذا - ذكرك لديه، ولو جعلته حرًّا ثم أكبرته ثم استوزرته، بل ولو كان أشد منك باطلا، وهذا سر الله المضمر في الحق.

واعلم أي سيدي أن جيوش الملوك العدل، وحراسهم أعمالهم، ودفاتر أحوالهم عمالهم وأصحابهم، وهذه الدفاتر في أيدى العامة، فأصلح دفتر أحوالك، وأحكم حراستك، وأيد جيشك، وعليك بأهل العقل والدين، وإياك وأرباب القوة والغدر والضلالة، فهم أعداؤك، وصن أمرك من أن تلعب به النساء والأحداث والذين لا نخوة لهم، فإنهم من دواعي الخراب والإضمحلال، وإذا أحببت فحكم الإنصاف في عملك، حتى لا تقدم غير محق ولا ترفع بغير حق، وإذا كرهت فاذكر الله، ونزه طبعك من الجور والغدر، فإن مكانك مكان من يدور صاحبه مع الحق لا مع الغرض، واذا

غضبـت فاجنح للعفـو، فإذا أخطأت فيـه خير من أن تخطيء فـي العقوبة. واجعل بذلك ونوالك لأهل الدين والحكمة والغيرة للإسلام، واختر منهم أشـرفهم طبعـا، وأكبرهم عقـلا، وأوجزهم رأيـا، ونطقـا، وأبكتهم حجة، وأعلمهم بالله ورسـوله ﷺ، وسـاو النـاس برا وفاجرا مؤمنـا وكافرا في بـاب عدلك، واحفـظ حرمة الدين وأهله، واعمل عملا تحسـن به عاقبتك إذا لاقيت ربك، والله ولي التوفيق. إنا لله وإنا إليه راجعون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».





النبي ﷺ ذكر الداء والدواء

منذ خلق الله الخلق جعل في البشر نوازع الخير والشر، ولم يطلق الله العنان للخلق بسلوك الحرية المذمومة وركوب أنواع الضلالات، وإنما أرشد الله الخلق إلى تزكية النفوس من دواعي الشر، وتهذ يبها إلى سداد الاعتقاد والأقوال والأفعال.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا (١٠)﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: « ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾، أي: طهّر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقّاها بطاعة الله، وعلّاها بالعلم النافع والعمل الصالح، ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾، أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدنس بالرذائل والدنو من العيوب والذنوب، وترك مايكملها وينمِّيها، واستعمال ما يشينها ويدسيها».

والله عز وجل ذكر قبل ذلك في سورة البلد معنى ما في سورة الشمس، فقال سبحانه ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠)﴾ [البلد: ١٠]، قال عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه : «الخير والشر»، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٢]: «وكذا روي عن علي وابن

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١٠٩٣

(٢) تفسير القرآن العظيم ص١٤٧٩، وساق كذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «هما نجدان، فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير»، وقال: تفرد به سنان ابن سعد، ويقال: سعدبن سنان، وفي حديثه اضطراب.

عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وعكرمة، وأبي وائل، وأبي صالح، ومحمد ابن كعب، والضحاك، وعطاءالخراساني في آخرين».

فالحريات مخلوقة في البشر منذ خلق الله الخليقة، وليس هو شيء استجد في عصرنا هذا، ومنذ خلق الله الخلق وخلق فيهم نوازع الخير والشر أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب لتكميل فطرتهم، ولحجزهم من أسباب الشر والحريات المذمومة الموجبة لفساد الدنيا.

والنبي ﷺ كذلك نصح للخلق، فذكرلهم الداء والدواء، ولم يتركنا لأنفسنا نتخبط خبط عشواء مع الحريات المذمومة التي تعاظم شرها في عصرنا الحديث، فذكر أن الأمة سيقع فيها الحريات والأهواء المذمومة، وأرشد الخلق جميعا بموجب النصح، فقال ﷺ: «إنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بسنتي وسنه الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور»[1]، **فشتان بين الهدي النبوي، والضلال العلماني**، فنبينا ﷺ أمرنا بلزوم سنته وسنة خلفائه الراشدين، وحذّرنا من اتباع الحريات المحدثات، والعلمانيون قالوا: اعتقدوا ماشئتم، وقولوا: ما شئتم، نعوذ بالله من الضلال المبين.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (رقم ٤٦٠٧)، وصححه الحافظ ابن حجر في تخريج أحاديث مختصر ابن الحاجب (١/ ١٣٧)، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوي (٢٠/ ٣٠٩)، وحسّنه ابن القيم في إعلام الموقعين ص٨٥٦، وصححه الشاطبي في الاعتصام (٢/ ١١٤).

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «فمن عاش ومُدّ له في العمر، رأى التغير العظيم في الناس، رأى التغير لأنه كما قال الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا»، قد وقع، حصل خلاف بين الأمة في السياسة، وفي العقيدة، وفي الأفعال، والأحكام العملية، ثم إن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حثّ عند هذا الاختلاف على لزوم سنة واحدة، فقال «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ».

فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرنا - عندما نرى هذا الاختلاف - أن نلزم سنته، فقال: «عليكم بسنتي»، يعني الزموها.

وكلمة: عليكم، يقول علماء النحو: إنها جار ومجرور محول إلى فعل الأمر، يعني: الزموا سنتي.

وسنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هي: طريقته التي يمشي عليها، عقيدة، وخلقاً، وعملا، وعبادة، وغير ذلك، نلزم سنته، ونجعل التحاكم إليها كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، فسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هي سبيل النجاة لمن أراد الله نجاته من الخلافات والبدع».

***

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٨٢)



الخلق عبيد الله لا حرية لهم في التصرف بما شاءوا

العبد ليس حرا، فالخلق كلهم عبيدالله، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، ولا أحد من الخلق أوجد نفسه من العدم، بل الله هو الذي خلقنا جميعا وأوجدنا من العدم، قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥﴾ [الطور: ٣٥].

وهذه حقيقة لا يمكن أن يغفل عنها عاقل وبيّن الحكمة في خلقنا، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وشأن العبد تحقيق العبودية لربه وسيده وخالقه.

قال ابن القيم رحمه الله(١): «فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته الجامع لكمال محبته، مع الخضوع له، والانقياد لأمره.

فأصل العبادة: محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه، كما يحب أنبياءه ورسله عليهم السلام وملائكته وأولياءه، فمحبتنا لهم من تمام محبته، وليست محبة معه، كمحبة من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحبه.

وإذا كانت المحبة له هي حقيقة عبوديته، وسرها، فهي إنما تتحقق باتباع أمره، واجتناب نهيه، فعند اتباع الأمر واجتناب النهي تتبين حقيقة العبودية والمحبة».

---

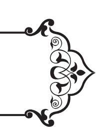
(١) مدارج السالكين (١/ ٨٥)

فـإذا علمنا أن الخلق عبيد الله، فنفوسـهم ملك لله وهـي أمانة عندهم، فحفظ هذه الأمانة يكون بالسير بها إلى صراط الله المستقيم، وصيانتها عن الباطل والحريات المذمومة.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إن عمل السوء عند الإطلاق يشـمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسـمي سوءا لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئا غير حسن، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشـمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحـد منهما بما يناسـبه، فيفسـر عمل السـوء هنـا بالظلم الذي يسـوء النـاس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم،ويفسـر ظلم النفس بالظلـم والمعاصـي التي بين اللـه وبين عبده، وسـمي ظلـم النفس ظلما، **لأن نفـس العبد ليسـت ملكا له يتصرف فيها بما يشـاء، وإنمـا هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانه عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل بالزامها للصراط المسـتقيم علما وعملا**، فيسـعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه، وخيانة وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور الظلم».

***

(١) يتسير الكريم الرحمن ص٢٠٦

الحريات المذمومة فساد كبير

دعوة السويدان لأن يقول الناس ما شاءوا، ويعبدوا ما شاءوا بدعوى الحرية هي دعوة للفساد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، وأعظم الفساد وأقبحه الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣].

وأعظم ما يكون من فساد الحريات المذمومة فساد الشرك الذي قال فيه طارق السويدان: اعبد ما شئت، كيف شئت، ما عندي مشكلة!!! قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «ومن عبد غير الله وإن أحبه، وحصل له به مودة في الحياة الدنيا، ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم، ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢٢]، فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلها حقا، إذ الله لا سمي له ولا مثل له، فكانت تفسد لانتفاء مابه صلاحها هذا من جهة الإلهية، وأما من جهة الربوبية فشيء آخر، كما نقرره في موضعه».

فالذي يزجر النفوس عن غيها وفسادها وضلالها هو التأله لله والعبودية له وحده لا شريك له، فتلتذ بطاعته وتنزجر عن الفساد، فإذا تألهت لهواها ولغير خالقها إرتكست في غيها وضلالها.

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٤)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «إن الإنسان إذا لم يخف من الله اتبع هواه، ولا سيما إذا كان طالبا مالم يحصل له، فإن نفسه تبقى طالبة لما تستريح به وتدفع به الغم والحزن عنها، وليس عندها من ذكر الله وعبادته ما تستريح إليه وبه، فيستريح إلى المحرمات من فعل الفواحش وشرب المحرمات وقول الزور، وذكر ما جريات النفس والهزل واللعب ومخالطة قرناء السوء وغير ذلك، ولا يستغني القلب إلا بعبادة الله تعالى.

فإن الإنسان خلق محتاجا إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ونفسه مريدة دائما، ولا بدلها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه، وتطمئن به، وليس ذلك إلا الله وحده، فلا تطمئن القلوب إلا به، ولا تسكن النفوس إلا إليه، و﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[الأنبياء: ٢٢]، فكل مألوه سواه يحصل به الفساد، ولا يحصل صلاح القلوب إلا بعبادة الله وحده لا شريك له».

فالذي يرخص للناس أن يقولوا ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا بدعوى الحرية فهو من المفسدين في الأرض بلا ريب، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[المؤمنون: ٧١]، قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «فلو اتبع

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٥٤-٥٥)
(٢) بدائع التفسير (٢/ ١٦١)

الحق أهواء أعدائه لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ولخرب العالم، ولهذا جعل سبحانه من أسباب خراب العالم رفع الأسباب الممسكة له من الأرض، وهي كلامه، وبيته، ودينه، والقائمون به، فلا يبقى لتلك الأسباب المقتضية لخراب العالم أسباب تقاومها، وتمانعها».





الصحابة أجمعوا على منع الإعلان بالبدع والأقوال الضارة

شأن المسلم أن يقتدي بخير الخلق بسيد الأنام عليه السلام وصحبه الكرام، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، والصحابة قال فيهم **نبينا** ﷺ: «**خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»(١)، بل توعد الله من خرج عن هديهم وخالف سنتهم وحاد عن منهجهم بالعذاب الشديد، قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وكل من له أدنى معرفة بهدي النبي ﷺ وهدي أصحابه عرف شدة حرصهم على هداية الخلق إلى شرع الله، والتعبد لله بالنور الإلهي والوحي العاصم من الضلال والهلاك الموجب لأحسن الأخلاق والأفعال والعقائد.

فالدعوة للترخيص للناس بأن يقولوا ما شاءوا ويعبدوا ما شاءوا إفساد في الأرض، وخروج عن هدى سيد المرسلين والصحابة المهتدين.

فالصحابة لما نبتت فيهم نابتة تتكلم بالرأي ولا تعتصم بالوحي أو تقدمه

(١) رواه البخاري كتاب الشهادات باب لا يشهد على جور (ص ٤٢٩ - رقم ٢٦٥١)، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة (ص ١١١١ رقم ٦٤٧٥) من حديث عمران ابن حصين رضي الله عنه.

على الوحي صاحوا بهم وسموهم أعداء السنن كما ثبت ذلك عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه[(١)]، وقد قام بذلك واعظا في حضرة الصحابة رضي الله عنهم.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[(٢)]: «لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه».

قال الحافظ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله (ت: ٤٩٠هـ)[(٣)]: «هذا قاله عمر رضي الله عنهم أجمعين فلم ينكره أحد منهم، فدل على وجوب الرجوع إلى السنن والآثار الصحاح، وترك ما خالفها من الرأي الفاسد والضلال المبين، وفي ذلك ذكرى لمن أراد الله به الخير ورزقه النظر لدينه، والاحتياط لنفسه، وسلوك طريق الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين - رضي الله تعالى عنهم أجمعين - فهم الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاجتماع على الصواب، وفي خلافهم والخروج عن طريقهم الفساد والضلال».

فإذا لم يأذن الصحابة رضي الله عنهم بالرأي المذموم الذي قاله المسلمون هوى وابتداعا فرد أهواء وضلالات الكافرين أولى وأحرى.

إن الدعوة لأن يقول الناس ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا بدعوى الحرية

---

(١) رواه الدارمي

(٢) رواه أحمد (١/ ٩٥)، وأبو داود رقم (١٦٤)، قال الحافظ عبدالغني المقدسي «إسناده صحيح» تنقيح التحقيق (١/ ٥٣٠)

(٣) مختصر الحجة على تارك المحجة (٢/ ٢٤)

هي دعوة من لا يريد بأهل الدنيا الخير، هي دعوة من يريد بهم الشر والفتنة والهلاك، قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «**إن المؤمن يأخذ دينه عن ربه عز وجل، وإن المنافق نصب رأيه فاتخذه دينا**».

❊ ❊ ❊

(١) مختصر الحجة على تارك المحجة (١/ ٢٤٨)



النصيحة لله ورسوله والخلق تقتضي منع الحرية الباطلة

الإذن للناس بأن يقولوا ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا هو من الغش لهم، والنصيحة هي قوام الدين، وهي التي غلّظ الله ورسوله من شأنها حتى يسير الناس في هذه الدنيا في طريق الخير ويحذروا طريق الشر.

والناصح للخلق إذا رأى غيره يسير في طريق عطب حذّره منه وصرفه عنه، أما أن نقول: اعبد ماشئت، وقل: ماشئت، فهذا لا يقوله عاقل فضلا عن ناصح.

عن تميم الداري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الدين النصيحة، قلنا: لمن يارسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[1].

قال العلامة محمد بن نصر المروزي رحمه الله[2]: «ومن النصح الواجب لله أن لا يرضى بمعصية العاصى، ويحب طاعة من أطاع الله ورسوله».

فكيف يقال بعد هذا: قل ماشئت، واعبد ما شئت، نعوذ بالله من غش خلق الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في معنى حديث تميم الداري رضي الله عنه[3]: **«فالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله تدخل في حق الله وعبادته وحده لا شريك**

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان باب بيان أن الدين النصيحة (ص٤٤-رقم ١٩٦)
(٢) تعظيم قدر الصلاة (٢/ ٦٩٢)
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٩)

لـه، والنصيحـة لأئمة المسـلمين وعامتهم هي مناصحـة ولاة الأمر، ولزوم جماعتهم».

فالنصيحة شـأنها عظيم، وهو أن يقصد الإنسـان أسـباب صلاح الخلق وهدايتهـم والأخـذ بأيديهم إلى طـرق النجاة من النار والفـوز بالجنة، قال بكر بن عبدالله رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو قيل لي: خذ بيد خير أهل هذا المسـجد، لقلت: دلوني على أنصحهم لعامتهم، فإذا قيل: هذا، أخذت بيده، ولو قيل: خذ بيد شرهم، لقلت: دلوني على أغشهم لعامتهم، ولو أن مناديا نادى في السماء: لا يدخل الجنة منكم إلا رجل واحد، لكان ينبغي لكل إنسان أن يلتمس أنه هـو، ولو أن مناديا نادى أنه لا يدخل النـار إلا رجل واحد لكان ينبغي لكل إنسان أن يفرق أن يكون ذلك الواحد[١]».

وقـال شـيخنا العلامة محمـد العثيميـن رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: «من النصيحـة لهم أن يسـلك بهم الطرق التي فيها صلاحهم في معادهم ومعاشـهم، **فيمنع عنهم كل مـا يضرهم في دينهـم ودنياهم**، يمنع عنهم الأفكار السـيئة، والأخلاق السافلة، وما يؤدي إلى ذلك من المجلات والصحف وغيرها، ولهذا يجب على ولي الأمر في البيت وهو الرجل في بيته أن يمنع من وجود هذه الأشياء في بيته، الصحف السيئة الفاسدة الأفكار المنحرفة، الأخلاق السافلة.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٣٦)
(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٦٣٢)

وكذلـك على ولـي الأمر العام يجب عليه أن يمنع هذه الأشـياء، وذلك لأن هذه الأشـياء إذا شـاعت بيـن الناس، صـار المجتمع مجتمعـا بهيميا، لا يهمه إلا إشـباع البطن وشـهوة الفـرج، وتحل الفوضـى، ويزول الأمن، ويكون الشـر والفسـاد، فإذا منع ولي الأمر ما يفسـد الخلق سواء كان ولي الأمر صغيرا أو كبيرا، حصل بهذا الخير الكثير.

لو أن كل واحد منا في بيته منع أهله من اقتناء هذه الصحف والمجلات الخليعة الفاسدة، ومن مشاهدة التمثيليات الفاسدة، والمسلسلات الخبيثة، لصلح الناس، لأن الناس هم أفراد الشعب، أنت في بيتك، والثاني في بيته، والثالـث في بيته، وهكذا إذا صلحوا صلح كل شـيء، نسـأل الله تعالى أن يصلح ولاة أمورنا، وأن يرزقهم البطانة الصالحة».





اتفاق الشرائع على منع الإعلان بالضلال بدعوى الحرية

النصوص الناهية عن الفرقة في القرآن والسنة لا تحصى كثرة، وسبب كثرتها أنها أساس رحمة الخلق أجمعين، فإذا إجتمعوا تراحموا وتناصروا، وإذا إختلفوا تعادوا وتخاصموا ووقع الشر، كما قال النبي ﷺ: «الجماعة رحمة، والفرقة عذاب»(١)، وهذا الحديث موافق لمنطوق قول الله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، فمن أراد للخلق الحرية في أن يتدينوا بما شاءوا، ويقولوا ماشاءوا، فقد أراد بهم شرا وضلالا وزيغا.

بل أخبر الله أن استرواح كل طائفة إلى ما هي عليه وإن كانت في ضلال هو منهج المشركين، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «فأهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على آراء وملل باطلة، وكل فرقة منهم تزعم أنهم على شيء، وهذه الأمة أيضا اختلفوا فيما بينهم على نحل كلها ضلالة الا واحدة وهم أهل السنة والجماعة المتمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وبما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في قديم الدهر وحديثه».

---

(١) رواه أحمد من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه وحسنه العلامة الألباني رحمه الله، صحيح الجامع (رقم ٣٠١٤)

(٢) تفسير القرآن العظيم ص ١٠٥٦

والنصوص الناهية عن الفرقة مضمنة النهي عن حرية الاعتقادات والأقوال لأن حرية الأقوال هي أساس الفرقة والفتنة وأصلها، قال إبراهيم النخعي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦٤﴾﴾ [المائدة: ٦٤]، قال: هم أصحاب الأهواء.

وقال أبو العالية رحمه الله(١): «تعلموا القرآن فإذا تعلمتموه فلا ترغبوا عنه، وإياكم وهذه الأهواء، إنها توقع العداوة والبغضاء بينكم، فإنا قد قرأنا القرآن قبل أن يقتل عثمان رضي الله عنه بخمس عشرة سنة، قال: فحدثت به الحسن، فقال: قد نصحك والله وصدقك».

ولا تظن أن النهي عن الفرقة خاص بشرعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بل هو مما اتفقت عليه شرائع الأنبياء جميعا، لأنه قوام الدين ومن آكد أصوله.

قال تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): «وصى الله تعالى جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالإئتلاف والجماعة، ونهاهم عن الافتراق والاختلاف،

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢١٠)
(٢) تفسير القرآن العظيم ص١٢٢٠

وقوله عز وجل: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، أي شق عليهم وأنكروا ما تدعوهم إليه يا محمد من التوحيد».

وتأمل كيف أن الله في سورة الشورى بعد أن ذكر هذه الآية الآمرة بالاجتماع الناهية عن الإختلاف أتبعها الله بقوله ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ١٤﴾ [الشورى: ١٤]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «لما أمر الله باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنهم لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيا وعدوانا منهم».

ومن الأدلة على اتفاق الشرائع على المنع من الإعلان بالحريات المذمومة إتفاقها على النهي عن المنكر والأمر بالمعروف، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ٧٩﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

❊ ❊ ❊

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٩٤




كلمة عظيمة يجب أن يستتاب منها

الدعوة لأن يقول الناس ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا مضادة لدعوة الرسل جميعا، فإن دعوة الرسل جميعا توحيد الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النحل: ٣٦]، فقول السويدان: {اعبد ماشئت، كيف شئت، ما عندي مشكلة}، هدم لدعوة التوحيد وما بعث به المرسلون.

وكذلك ترخيص السويدان بأن يقول الناس ما شاءوا بدعوى الحرية، عود على رسالات الله بالنقض، فالرسل عليهم السلام جميعا بعثوا بقول الحق والنهي عن الباطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «وأما قول القائل: كل يعمل في دينه الذي يشتهي، فهي كلمة عظيمة يجب أن يستتاب منها، وإلا عوقب، بل الإصرار على مثل هذه الكلمة يوجب القتل، فليس لأحد أن يعمل في الدين إلا ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، دون ما يشتهيه ويهواه».

فليس لأحد أن يقول ما شاء، أو يفعل ما يشاء أو يعتقد ما شاء، فالرسل جميعا بعثوا بتوحيد الله، وأرشدوا إلى محاسن الأقوال والأفعال، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٢٤٠)

[المؤمنون: ٥١]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المآكل، وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح، ولكن تتفاوت بتفاوت الأزمنة.

ولهذا الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامي، والحنو والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى لهرقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم بخلاف الكذاب، فلابد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير».

***

(١) الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٧/ ٣٤٩)



السر الأعظم النافي للحرية المذمومة

السر الأعظم الموضح لسبب تألهنا لربنا وفق ما حده الله لنا هو أننا عبيده، فما استخلفنا الله في الأرض لنلهوا ونلعب ونخوض بالباطل، بل استخلفنا لعبادته ولأن نكون عبيدا له قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرّمه وفضّله وشرّفه، **وخلقه لنفسه، وخلق كل شيء له،** وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره، وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته، وظعنه وإقامته، وأنزل إليه وعليه كتبه، وأرسله وأرسل إليه، وخاطبه وكلمه منه إليه، واتخذ منهم الخليل والكليم، والأولياء والخواص والأحبار، وجعلهم معدن أسراره، ومحل حكمته، وموضع حبه، وخلق لهم الجنة والنار، **فالخلق والأمر، والثواب والعقاب، مداره على النوع الإنساني، فإنه خلاصة الخلق، وهو المقصود بالأمر والنهي، وعليه الثواب والعقاب**».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٧٥)

وقال ابن القيم رحمه الله[١]: «فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية، فقد خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خلقت الخليقة، وصار كأنه خلق عبثا لغير شيء، إذ لم تخرج أرضه البذر الذي وضع فيها، بل قلبته شوكا ودغلا».

ولا تنتظم أحوال الخليقة في الأرض بدون تشريع إلهي يدل الخلق على كل خير ويحذرهم كل شر، لأن الناس أهوائهم مختلفة لا يجمعها هوى واحد، والأهواء ضلال، فأنزل الله كتبه وأرسل رسله بوحيه ليهتدي الناس بهذا النور المبين.

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٢]: «إن البدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية، لأن الأمة الإسلامية إذا فتح الباب لها في البدع صار هذا يبتدع شيئا، وهذا يبتدع شيئا، كما هو الواقع الآن، فتكون

(١) مدارج االسالكين (١/ ١٧٩)
(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٣٠)

الأمة الإسلامية كل حزب منه بما لديه فرح كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٢]، كل حزب يقول الحق معي، والضلال مع الآخر، وقد قال الله تعالى: لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩ - ١٦٠].

فإذا صار الناس يبتدعون تفرقوا، وصار كل واحد يقول: الحق معي، وفلان ضال مقصر، ويرميه بالكذب والبهتان وسوء القصد، وما أشبه ذلك».





أصحاب الحريات المذمومة عبيد أذلاء

أصحاب الحريات المذمومة الذين يقولون ما شاءوا ويعتقدون ما شاءوا ليسوا أحرارا، بل عبيد لأهوائهم وأسرى ضلالاتهم، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «أي: إنما يأتمر بهواه، فمهما رآه حسنا فعله، ومهما رآه قبيحا تركه».

وكذلك الشأن في الذنوب والمعاصي فإنها تسترق قلوب أصحابها كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»[٢]، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٣]: «الرِّقُّ والعبوديَّة في الحقيقة هو رِّقُّ القلب وعبوديته، فما استرقّ القلب واستبعده فهو عبده».

فهؤلاء الذين يسمون أنفسهم أحرارا، ويسمون ركوب المحرمات حرية، ويتفوهون بالباطل بدعوى الحرية هم في واقع الأمر عبيد لأهوائهم وضلالاتهم.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص١٢٤٧.

(٢) رواه البخاري كتاب الرقاق باب ما يُتَّقى من فتنة المال (ص ١١١٧ - رقم ٦٤٣٥).

(٣) العبودية ص٦.

قـال ابن القيم رحمه الله[١]: «فمن أمات نفسـه موتا إراديـا كان موته الطبيعي حيـاة لـه، ومعنى هـذه: أن المـوت الإرادي: هـو قمع الشـهوات المردية، وإخماد نيرانها المحرقة، وتسـكين هوائجها المتلفـة، فحينئذ يتفرغ القلب والروح للتفكر فيما فيه كمال العبد، ومعرفته، والاشـتغال به، ويرى حينئذ أن إيثار الظل الزائل عن قريب على العيش اللذيذ الدائم أخسـر الخسـران، فأما إذا كانت الشـهوات وافدة، واللذات مؤثـرة، والعوائد غالبة، والطبيعة حاكمـة، فالقلـب حينئذ: إما أن يكون أسـيرا ذليـلا، أو مهزوما مخرجا عن وطنه ومستقره الذي لاقرار له إلا فيه، أو قتيلا ميتا وما لجرح به إيلام».



(١) مدارج السالكين (٣/ ٢١٠)



الإذن للباطل بدعوى الحرية سبب اضمحلال الحق

الباطل ضد الحق، والباطل إذا أذن له بدعوى الحرية فإنه يزاحم الحق، ويضل بسببه ضعفاء العقول، وإنظر إلى إستخلاف آدم عليه السلام، وكيف كان الناس مستضيئين بنور الوحي عشرة قرون إلى قوم نوح، فاندرس العلم وظهر الجهل وعُبدت الأصنام وضل الخلق ضلالا بعيدا، فلابد من منع الباطل حتى لا يقوى ويزاحم الحق فيُضعفه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «والشرائع هي غذاء القلوب وقوتها كما قال ابن مسعود رضي الله عنه، ويروى مرفوعا «إن كل آدب يحب أن تؤتى مأدبته، وإن مأدبة الله هي القرآن».

ومن شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من طعام حاجته، استغنى عن طعام آخر حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة، وتجشم، وربما ضره أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته، قلت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمّته إلى المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ويتم دينه، ويكمل إسلامه.

ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه، تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٤٢-٥٤٤)

ونحوها، لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبة من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، **ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع،** ومن أدمن قصص الملوك وسيرهم، لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير.

ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ «ما ابتدع قوم بدعة إلا نزع الله عنهم من السنة مثلها»، رواه الإمام أحمد.

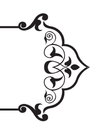
وهذا أمر يجده من نفسه من نظر في حاله من العلماء، والعباد، والأمراء، والعامة، وغيرهم، ولهذا عظّمت الشريعة النكير على من أحدث البدع، وكرهتها، **لأن البدع لو خرج الرجل منها كفافا لا عليه ولا له لكان الأمر خفيفا، بل لابد أن يوجب له فسادا، منه: نقص منفعة الشريعة في حقه، إذ القلب لا يتسع للعوض والمعوض منه.**

ولهذا قال ﷺ في العيدين الجاهليين «إن الله قد أبدلكم بهما يومين خيرا منهما»، فيبقى اغتذاء قلبه من هذه الأعمال المبتدعة مانعا عن الاغتذاء،- أو من كمال الاغتذاء - بتلك الأعمال الصالحة النافعة الشرعية، فيفسد عليه حاله من حيث لا يشعر، كما يفسد جسد المغتذي بالأغذية الخبيثة من حيث لا يشعر، وبهذا يتبين لك بعض ضرر البدع».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «إن البدعة إذا انتشرت في الأمة اضمحلت السنة، لأن الناس يعملون، فإما بخير وإما بشر، ولهذا قال بعض السلف: ما ابتدع قوم بدعة إلا أضاعوا من السنة مثلها، يعني أو أشد، فالبدع تؤدي إلى نسيان السنن واضمحلالها بين الأمة الإسلامية».

❋ ❋ ❋

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٣١)



المتجرد للحق ليس كالمخلّط



الأمة الإسلامية كلما كانت قائمة بالحق داعية إليه فإنه من أسباب قوتها وحفظ عقيدتها وزيادتها في إيمانها وهداها وتقواها، فإذا شرعنا لها أسباب الفساد والضلالة بل والكفر والغواية بدعوى الحرية كما يريد السويدان فإن هذه من أسباب تأخيرها عن المضي في أولوياتها من الزيادة في كل خير من شؤونها الدينية والدنيوية، ناهيك أن هذا التخليط يفتتن به ضعفاء الإيمان والعقول الذين يجب أن يصانوا عن أسباب الضلال والغواية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «فإنك بالضرورة تجد المتجرد للمشروع أعظم إهتماما به من المشرك بينه وبين غيره، ومن لم يدرك هذا فلغفلته أو إعراضه، وهذا أمر يعلمه من يعرف بعض أسرار الشريعة».

وقال أيضا رحمه الله[2]: «من شأن الجسد إذا كان جائعا فأخذ من طعام حاجته، استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة، وتجشم، وربما ضره أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته قلت رغبته في المشروع وانتفاعه به، بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نهمته وهمته إلى المشروع، فإنه تعظم محبته له ومنفعته به، ويتم دينه، ويكمل إسلامه.

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٤٥)

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٥٤٢-٥٤٤)

ولذا تجد من أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه، ينقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومن أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها، لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبة من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم، لا يبقي لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قراءة قصص الملوك وسيرهم، لا يبقى لقصص الأنبياء وسيرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «ما ابتدع قوم بدعة إلا نزع الله عنهم من السنة مثلها» رواه الإمام أحمد، وهذا أمر يجده من نفسه من نظر في حاله من العلماء، والعباد، والأمراء، والعامة، وغيرهم ولهذا عظمت الشريعة النكير على من أحدث البدع، وكرهتها، لأن البدع لو خرج الرجل منها كفافا لا عليه ولا له لكان الأمر خفيفا، بل لابد أن يوجب له فسادا، منه نقص منفعة الشريعة في حقه، إذ القلب لا يتسع للعوض والمعوض منه».

فالدعوة للحريات المذمومة والترخيص لمن شاء أن يقول ويعتقد ما شاء فضلا عن تحريمه وكونه من أسباب ضلال الخلق الذين يجب علينا نصحهم وزجرهم ومنعهم من الضلال رحمة بهم، من أسباب تشوش المسلمين عن صراط ربهم المستقيم وشرعه القويم، ومن أسباب زلزلة إيمانهم وعقائدهم، ولا يقول بهذا إلا من هو ساع في إضعاف المسلمين.

قال العلامة أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله (ت: ٤٩٠هـ) معلقا على حديث افتراق الأمة[1]: «وهذا يدل كل مسلم عاقل على أن من خالف ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فهو ضلالة مردودة، وبدعة ممنوعة، وأن هذه المسائل المشكلات والآراء والمضلات لم تكن في ذلك الوقت، ولا تكلم فيها النبي ﷺ ولا أصحابه، إذ لو كانوا تكلموا فيها لنقل إلينا عنهم كما نقل غيره، فلما أنه لم ينقل دل على أنه لا أصل لشيء من ذلك، وإنما هو من إلقاء الشيطان في قلوب أوليائه ليشوش على المسلمين أمرهم فلا يجوز الكلام فيه، فإنما هو متبع هوى، ضال خارج عن شرعهم وبائن عن سنتهم وحججهم هم، لأنهم حجة الله على عباده، ونصحاءه في أهل دينه، فما تكلموا فيه ساغ لغيرهم الكلام، وما سكتوا عنه فواجب تركه، والكلام فيه محرم».

❊ ❊ ❊

(١) مختصر الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥٨١-٥٨٢)



حرية الأقوال الباطلة هو الخوض الممنوع

الترخيص لأن يقول الناس ما شاءوا، ويعتقدوا ما شاءوا كما يريد السويدان هو الخوض والاستمتاع الذي حرّمه الله عز وجل في كتابه، قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة: ٦٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «جمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق، وبين الخوض الباطل، لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل، والتكلم به، أو يقع في العمل بخلاف الإعتقاد الحق.

والأول: هو البدع، ونحوها. **والثاني:** فسق الأعمال، ونحوها.

والأول: من جهة الشبهات. **والثاني:** من جهة الشهوات».

فالواجب على الخلق أن يقولوا القول السديد كما أمرهم ربهم تبارك تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١]، فالأقوال المسددة يحصل بها صلاح الأعمال كما هو منطوق الآية، أما أن يقول الناس ما شاءوا بدعوى الحرية كما يريد السويدان فهذا زيغ وضلال.

***

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١١٨-١١٩)



العبد يثاب ويعاقب على الأسباب والوسائل

العبد يثاب ويعاقب على الأسباب والوسائل، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فلا يخرج كلام الناس وأفعالهم عن الخير أو الشر، فحينئذ لا حرية لأحد في قول الباطل وفعله أو الأذن فيه قال تعالى: في شأن دعاة الخير ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال سبحانه في شأن دعاة الشر ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾﴾ [القصص: ٤١].

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه، من غير أن ينقص من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»(١).

قال العلامة عبدالرحمن السعدي ﵀(٢): «هذا الحديث - وما أشبهه من الأحاديث - فيه الحث على الدعوة إلى الهدى والخير، وفضل الداعي، والتحذير من الدعاء إلى الضلالة والغي، وعظم جرم الداعي وعقوبته.

والهدى: هو العلم النافع، والعمل الصالح.

(١) رواه مسلم كتاب العلم باب من سنة سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة (ص ١١٦٥ - رقم ٦٠٨٤)

(٢) بهجة قلوب الأبرار ص٤٤-٤٥.

فكل من علّم علما أو وجه المتعلمين إلى سلوك طريقه يحصل لهم فيها علم: فهو داع إلى الهدى.

وكل من دعا إلى عمل صالح يتعلق بحق الله، أو بحقوق الخلق العامة والخاصة فهو داع إلى الهدى.

وكل من اهتدى في علمه أو عمله، فاقتدى به غيره فهو داع إلى الهدى.

وكل من تقدم غيره بعمل خيري، أو مشروع عام النفع فهو داخل في هذا النص.

وعكس ذلك كله: الداعي إلى الضلالة.

فالداعون إلى الهدى: هم أئمة المتقين، وخيار المؤمنين.

والداعون إلى الضلالة: هم الأئمة الذين يدعون إلى النار.

وكل من عاون غيره على البر والتقوى فهو من الداعين إلى الهدى.

وكل من أعان غيره على الإثم والعدوان فهو من الداعين إلى الضلالة».

وقال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله في فوائد حديث أبي هريرة رضي الله عنه[(١)]: «في هذا دليل على أن المتسبب كالمباشر، فهذا الذي دعا

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٦١)

إلـى الهـدى تسـبب فكان له مثـل أجر من فعلـه، والذي دعا إلى السـوء أو الوزر تسبب فكان عليه مثل وزر من اتبعه.

وقد أخذ العلماء الفقهاء رَحِمَهُمُ اللَّهُ من ذلك قاعدة بأن السـبب كالمباشـرة». فالمرخـص للنـاس في اعتقـاد الباطل وقـول الضلالة كما يريد السـويدان بدعوى الحرية آثم لأنه متسبب في نشر الضلالة.





الحرية للباطل والضلال من التعاون على الإثم والعدوان

أفعاقل فضلا عن داعية يدعو الناس لأن يقولوا ما شاءوا، ويعتقدوا ما شاءوا بدعوى الحرية؟!!!

واجب المسلم عموما والداعية خصوصا التعاون على البر والتقوى لا التعاون على الإثم والعدوان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: ٢]، ويكفي من شر اعتقاد الكافرين وانحراف مقالات الزائغين نعت الله لهم بالخاسرين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ الكهف: [١٠٣ - ١٠٥].

وما حاجة المسلمين لهذا التنظير الذي يدعو إليه طارق السويدان الذي هو محض ضلالة، فالدين كامل ولله الحمد والمنّة بدعوة خاتم النبيين محمد ﷺ، وشأن المسلم لزوم هذا الكمال ومحاذرة أنواع الضلالات لا الترخيص فيها، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة:٣]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية في أحكام الدين وأصوله وفروعه، فكل متكلف يزعم أنه لابد للناس في معرفة

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٣٠

عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة من علم الكلام وغيره فهو جاهل مبطل في الدين».

فمن يرخص للناس أن يقولوا ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا بدعوى الحرية كما يقول السويدان فهو مبتغ الشر في الخلق، أما داعية الخير والهدى فهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويدل على الخير ويعين عليه، ويحذّر من الشر ولا يعين عليه.

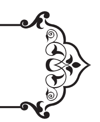
قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «يقول تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾، منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾، قال الضحاك: هم خاصة الصحابة وخاصة الرواة. يعني المجاهدين والعلماء، وقال أبو جعفر الباقر: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾، ثم قال: «الخير اتباع القرآن وسنتي»، رواه ابن مردويه، والمقصود من هذه الآية، أن تكون فرقة من هذه الأمة متعدية لهذا الشأن، وإن كان ذلك واجبا على كل فرد من الأمة بحسبه».

فهذا شأن المؤمن يأمر بالمعروف والخير، وينهى عن المنكر والشر، وأعظم المعروف توحيد الله وحقوق كلمة التوحيد من إقامة الأركان

(١) تفسير القرآن العظيم ص٢٥٢

والفرائض، وأشنع المنكر وأقبح الشر الشرك بالله وإتيان الموبقات (الكبائر) فكيف يخرج العبد عن هذه الصفة إلى الترخيص في الشرك والأقوال الباطلة بدعوى الحرية، قال تعالى: في شأن المؤمنين ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٧١﴾ [التوبة: ٧١]، وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ ۝٦٧﴾ [التوبة: ٦٧]، فالدعوة لأن يقول الناس ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا هو من المنكر الذي يتعاضد عليه المنافقون وأهل الشر.



الله أمر بالإنتهاء عن قول السوء واعتقاد الباطل

دعـوة السـويدان لأن يقول الناس ماشـاءوا ويعتقدوا ما شـاءوا بدعوى الحرية مضادة لأمر الله وشرعه، فالله أمر بالانتهاء عن قول السوء واعتقاد الباطـل، قـال تعالـى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ١٧١﴾ [النساء: ١٧١]، فالله أمر بالإنتهاء عن قول الباطل والتدين به، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهـذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسـى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة، إلى أن اتخذوه إلها من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه علـى دينه، فادّعوا فيهم العصمة، واتّبعوهم في كل ما قالوه سـواء كان حقا أو باطلا، أو ضلالا أو رشادا، أو صحيحا أو كذبا».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: «يأتي الشيطان أحدكم فيقـول: مـن خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: مـن خلق الله؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله، ولينته.

(١) تفسير القرآن العظيم ص٣٨٥

وفي لفظ: فليقل: آمنت بالله ورسله[١]

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «احتوى هذا الحديث على أنه لابد أن يلقي الشيطان هذا الإيراد الباطل: إما وسوسة محضة، أو على لسان شياطين الإنس وملاحدتهم، وقد وقع كما أخبر، فإن الأمرين وقعا، لا يزال الشيطان يدفع إلى قلوب من ليست لهم بصيرة هذا السؤال الباطل، ولا يزال أهل الإلحاد يلقون هذه الشبهة التي هي أبطل الشبه، ويتكلمون عن العلل وعن مواد العالم بكلام سخيف معروف.

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث العظيم إلى دفع هذا السؤال بأمور ثلاثة: بالإنتهاء، والتعوذ من الشيطان، وبالايمان.

أما الانتهاء – وهو **الأمر الأول** – فإن الله تعالى جعل للأفكار والعقول حداً تنتهي إليه، ولا تتجاوزه، ويستحيل لو حاولت مجاوزته أن تستطيع، لأنه محال».

ثم قال[٣]: «**الأمر الثاني**: التعوذ بالله من الشيطان، فإن هذا من وساوسه وإلقائه في القلوب، ليشكك الناس في الإيمان بربهم، فعلى العبد إذا وجد ذلك أن يستعيذ بالله منه، فمن تعوّذ بالله بصدق وقوة أعاذه الله وطرد عنه الشيطان، واضمحلت وساوسه الباطلة.

(١) رواه البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده (ص ٥٤٦ – رقم ٣٢٧٦)، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله (ص ٦٩– رقم ٣٤٥)
(٢) بهجة قلوب الأبرار ص٣٩
(٣) بهجة قلوب الأبرار ص٤٠-٤١

الأمـر الثالـث: أن يدفعه بمـا يضاده من الإيمـان بالله ورسـله، فإن الله ورسـله أخبروا بأنه تعالى الأول الذي ليس قبله شـيء، وأنه تعالى المنفرد بالوحدانية، وبالخلق والإيجاد للموجودات السابقة واللاحقة.

فهـذا الإيمان الصحيح الصادق اليقيني يدفع جميع ما يضاده من الشـبه المنافيه له، فإن الحق يدفع الباطل، والشكوك لا تعارض اليقين».





الأقول الباطلة بريد الكفر

الحرية للأقوال والاعتقادات شر محض، فإن الكذب يهدي للفجور، والصدق يهدي للبر، كما قال النبي ﷺ، فشأن المؤمن قول الخير وتحريه، لأن الخير وقول الحق والعمل الصالح يهدي إلى صالح الأعمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩]، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني الحنبلي رحمه الله[1]: «أي: يسددهم ويرشدهم ويوفقهم للإستقامة على سلوك النجاة بسبب إيمانهم».

وفي المقابل الأقوال الباطلة تهدي للشر، ولذلك قال العلماء: «البدع بريد الكفر».

والله عز وجل ذكر أن من اعتصم بوحيه هُدي فقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١]، وذكر أن من لم يعتصم بشرع الله ويؤمن بالإسلام فإن الله يقلب قلبه في أنواع الضلالات، قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال ابن سيرين رحمه الله: «نبئت أن ابن مسعود رضي الله عنه كان يقول: تكون ردة شديدة»، قال ابن سيرين: «لا أعلم التقحم في الكفر أو الردة إلا سواء، وإن الردة تكون في أصحاب الأهواء»[2].

(١) رموز الكنوز (٣/ ١٣)
(٢) مختصر المحجة على تارك المحجة (١/ ٢٧٠)

قال العلامة أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله (ت: ٤٩٠هـ)[١]:

«تقدم كلام ابن مسعود رضي الله عنه: إياكم وما يحدث الناس من البدع، فإن الدين لا يذهب في مرة واحدة، ولكن الناس يحدث لهم بدع بعد بدع، حتى يخرج الإسلام من قلبه، أو شك أن يدع الناس ما ألزمهم الله عز وجل من فرضه من الصلاة والصيام والزكاة والحج إلى البيت الحرام، ويتكلموا في ربهم عز وجل، فمن أراد ذلك الزمان فالهرب، فقيل: يا أبا عبدالرحمن: فإلي أين الهرب؟ فقال: الهرب؟ ولا تجالس أحداً من أهل البدع عسى أن تسلم».

وقال الله تعالى: في الكافرين: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا ﴿١٠٩﴾﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[آل عمران: ١٠٠]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[٢]:

«قوله ﴿كَٰفِرِينَ﴾، المراد به: الكفر المخرج عن الملة، لكنهم قد لا يستطيعون أن يخرجونا من الإيمان بالكلية، لكن بالتدريج مما يلقونه أمامنا من معوقات كمال الإيمان، حتى ينحل الإيمان شيئا فشيئا، ولا يبقى في القلوب شيء، وحينئذ يكون الكفر المحض».

❊ ❊ ❊

(١) مختصر المحجة على تارك المحجة (٢/ ٦٧١-٦٧٢)

(٢) تفسير سورة آل عمران (١/ ٥٧٢)





الحريات المذمومة هو الفرح المهلك

الفرح نوعان: محمود، ومذموم، فالفرح المحمود هو الفرح بالطاعة وتيسير الخير والرزق وأنواع المسرات المحبوبة لله والمباحة، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس: ٥٨]، ففضله الإسلام والإيمان، ورحمته العلم والقرآن[١].

وفي الصحيحين قال النبي ﷺ: «للصائم فرحتان، فرحه عند فطره وفرحة يوم يلقى ربه».

أما الاستمتاع بالخلاق الباطل والخوض المحرم بدعوى الحرية والفرح بأنواع المعاصي والاعتقادات المنحرفة والأقوال الباطلة فهو الفرح المذموم الذي أهلك الله أهله وجعلهم عبرة وآية لمن بعدهم، قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «ومما - يدل على أن الفرح من أسباب المكر - مالم يقارنه خوف -، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]، وقال قوم قارون له ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]، فالفرح متى كان بالله، وبما منّ الله به، مقارنا للخوف والحذر لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك ضره ولابد».

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٨٨)

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٩٠)

فالخـروج عـن الإيمـان وعـن الانقياد لله هو مـن غـرور الكافرين ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الملك: ٢٠]، فمـا تـراه مـن إصـرار الكافريـن علـى كفرهم هو محض غرورهم وفرحهم المذموم بضلالات عقولهم.





العبودية لله تكريم وليست تحقيرا

كـرّم الله آدم فأسـجد لـه ملائكته، وكـرّم ذريته بأن خلقهم في أحسـن تقويم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، قال الحافظ ابـن كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إنـه تعالـى خلق الإنسـان في أحسـن صورة وشـكل، منتصب القامة سوي الأعضاء حسنها».

وزاد الله بني آدم تكريما بأن إستخلفهم في الأرض ووكل بهم ملائكته يحفظونهـم، وأنزل عيلهم كتبه وأرسـل إليهم رسـله ليعصمهم من أسـاب الضـلال والغوايـة، وأمرهم بما هو خير لهم تكريمـا لهم لا إهانة وتحقيرا، فعبودية الله عزة وشرف وكرامة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، فالكلـم الطيـب والعمل الصالح هو العزة حقا، أما أن يقول الناس ما شاءوا ويفعلوا ما شاءوا بدعوى الحرية فهذا هو الذل والصغار والهوان كما قال النبي ﷺ: «وجعل الذل والصغار على من خالف أمري»[٢].

وأوامـر اللـه لخلقه ونواهيه هـو اصطفاء للبشـرية لعبوديـة الله وحده لا شـريك، قال تعالـى: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴿٧٨﴾﴾

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص١٤٨٨

(٢) علقه البخاري، ورواه أحمد

[الحج: ٧٨]، وكل أوامر الله لخلقه صغيرها وكبيرها خير للبشر، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ ١٦﴾ [التغابن: ١٦].

وانظر كيف ذكر الله ضلال الخلق فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٧١﴾ [الصافات: ٧١]، وما استثنى منهم ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾ [الصافات: ٧٤]، قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله في فوائد الآية[١]: «ومن فوائدها: تشريف هؤلاء المخلصين بإضافة عبوديتهم إلى الله تعالى، فإنه لا شك أنه من يضاف إلى الله عز وجل ينال الشرف، ولهذا شرّف الله تعالى بيته بإضافته إليه، فقال: ﴿وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ ٢٦﴾ [الحج: ٢٦]، وشرّف الله المساجد بإضافتها إليه ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ١١٤﴾ [البقرة: ١١٤]، وسماها النبي عليه الصلاة والسلام بيوت الله «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله»، وهذا لا شك تشريف للمضاف».

فمن عبدالله وحده فقد أكرم نفسه وشرّفها بعبودية الله، ومن عبد هواه وتأله لغير مولاه فقد حقر نفسه وأهانها، فالعبودية لله شرف وتوحيد، والعبودية لغير الله شرك وزيغ ومهانة.

قال ابن القيم رحمه الله: هذا وثاني نوعي التوحيد توحيد العبادة منك للرحمن

---

(١) تفسير سورة الصافات ص١٧٠

ألا تكون لغيره عبدا ولا *** تعبد بغير شريعة الإيمان

فتقوم بالإسلام والإيمان والـ *** إحسان في سر وفي إعلان

والصدق والإخلاص ركنا ذلك التـ *** ـوحيد كالركنين للبنيان».

فما أزكى وأشرف عباد الرحمن، يكفي في فضلهم أن الله قال لهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسْلِمِينَ ٦٩ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾ [الزخرف: ٦٩ - ٧١].

فعبودية تورث الجنة فأنعم بها وأكرم فلنصبرن عليها حتى نوافي ربنا، وعبودية الهوى والتأله لغير الله تورث النار وبئس المصير.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «قال تعالى: - عن المسيح ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ٥٩﴾ [الزخرف: ٥٩]، فجل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى، ووصف أكرم خلقه عليه، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ٢٣﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال تبارك وتعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ١﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ١﴾ [الكهف: ١]، فذكره بالعبودية في مقام إنزال الكتاب عليه والتحدي بأن يأتوا بمثله، وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ١٩﴾ [الجن: ١٩].

---

(١) بدائع التفسير (١/ ٢٠٣-٢٠٤)

فذكـره بالعبودية في مقام الدعوة إليه، وقال ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ①﴾ [الإسـراء: ١]، فذكـره بالعبودية في مقام الإسـراء، وفي الصحيح عنـه ﷺ أنـه قـال: «لا تطروني كما أطـرت النصارى المسـيح ابن مريم، فإنمـا أنـا عبد فقولوا: عبدالله ورسـوله»، وفي الحديث «أنـا عبد آكل كما يأكل العبيد، وأجلس كما يجلس العبيد».

وفـي صحيـح البخـاري عـن عبدالله بن عمـرو رضي الله عنهما قال: «قـرأت في التـوراة صفـة محمـد ﷺ: محمد رسـول الله، عبدي ورسـولي، سـميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسـواق، ولا يجزي بالسـيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر»».





الواجب التواصي بالحق ومحاذرة أسباب الخسران

دعـوة السـويدان لأن يعتقد الناس ما شـاءوا ويبدوا ما شـاءوا ويقولوا مـا شـاءوا بداعي الحرية دعوة ضلال وخسـار، قـال الله تبـارك وتعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾[العصر: ١ - ٣]، فهذه السورة جاءت بأقوى الأدلـة وأوضحها على خسـران من لـم يدع إلى تحقيق الإسـلام وتوحيده والعمل الصالح والتواصي بذلك كله والصبر عليه، وقد أكدّ الله ذلك بعدة مؤكدات:

الأول: تصدير الخطاب بالقسم.

الثاني: حرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾.

الثالث: العموم المستفاد من «ال» الإستغراق في قوله تعالى: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

الرابع: الإسـتثناء في قوله تعالـى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والإستثناء دليل التناول ومعيار العموم.

فالخلـق كلهـم في خسـار وسـعيهم في ضـلال إلا الذين آمنـو وعملوا الصالحـات، قـال الإمـام الشـافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لـو تدبـر النـاس هذه السـورة لوسعتهم»[(١)].

وصـدق الشـافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وليت السـويدان تدّبر هذه السـورة من القرآن فقط ولو فعل لأراح الخلق من تنظيره.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص٧٥٠٢

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[١]: «وأما قوله: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: أن بعضهم يوصي بعضهم بالحق، وهو ما جاءت به الرسل ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾، لأن النفس تحتاج إلى صبر لفعل الطاعات وترك المحرمات، وأقدار الله المؤلمة».

وتأمل هذه السورة جيدا كيف أمر الله مع معرفة الحق ولزومه والعمل به التواصي به، قال ابن القيم رحمه الله[٢]: «لم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضا به ويرشده إليه ويحضه عليه، وإذا كان من عدا هؤلاء خاسرا فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب، فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه، بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقا والحق باطلا، والمعروف منكرا، والمنكر معروفا، فينتكس في سيره، ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت لها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقائه، ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها، والبعد منها، والله المستعان».

وهذا الذي ذكره ابن القيم رحمه الله في آثار الذنوب، فكيف بآثار الشرك والكفر ومقالات الضلال التي يُرخص فيها السويدان بداعي الحرية، فأين دعوة السويدان من دعوة الله بالتواصي بالحق؟!!!

* * *

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٣٧٣)
(٢) بدائع التفسير (٥/ ٣٢٦)



الحريات المذمومة واردات العدو المبين

منذ أدخل الله آدم وزوجه عيلهما السلام الجنة فقد ابتلاهم الله عز وجل بالنهي عن أكل شجرة معينة، وهذه تقييد لحريتهم في إصطلاح المعاصرين، وهو في شريعة الله زجر عن اتباع الهوى، وقدّر الله على آدم المعصية فأكل من الشجرة، وحذّر الله ذرية آدم وهي الخليقة جمعاء من الحريات المذمومة، وهي المناهي الشرعية، وبيّن الله عز وجل أنها واردات من العدو إبليس، ولا يأذن في وارادت إبليس إلا من هو من جنده.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذوا الشيطان عدوا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويعدوا له عدته، ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبا ويرسل إليهم رسلا يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدي الذي هو الكتب والرسل، فإن من اتبعه، اتبع ما أمر به، واجتنب ما نهى عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة ولا يشقى فيهما، بل قد هدى إلى صراط مستقيم في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩٧

وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]، واتباع الهدى بتصديق الخبر وعدم معارضته بالشبه، وامتثال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «هذه الحقيقة هي بث العداوة في نفوس المؤمنين لخواطر الشر الصارفة لهم عن الخير والموقعة لهم في الشرور، إذ بيّن أن مصدرها هو اتجاه الأرواح الشيطانية نحو النفس الصالحة لإفساد صلاحها وهو المسمى بالوسواس وبهمزات الشياطين، فإنها إذا خالطت ظلماتها أنوار الخير غيّرت مرآها، وأنتنت رياها، وأعلمنا أن تلك الاتجاهات قارنت الإنسان في وقت وجوده إذ وسوس أصل الشياطين إلى أصلي الإنسان آدم وزوجه بما كان سبب سلب النعيم عنهما، وأبان أن باعث ذلك الاتجاه الشيطاني هو باعث عداوة جنسية منبثقة عن كراهة فطرية، وآيات القرآن ودلائل السنة في ذلك كثيرة، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ ﴿٢٧﴾﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وبيّن أن الشيطان لعين الله ورجيمه فالمؤمن إذا أيقن أن إعراضه عن الطاعات ونزعه إلى المنهيات وارد إليه من اتجاه عدو مبين، ومدبر غير ناصح ولا أمين، وعلم أنه في تلك الحالة مطيع

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام ص٧٩

لعـدوه الألد، معرض عن حبيبه الذي لا يعـوض بأحد، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍۚ ۝٤﴾ [السجدة: ٤]، صار وازعه النفسـاني جامعا بين عاملي محبة يحـب أن توصل، وعـداوة يحب أن تثلم، فعظمـت كراهية العصيان وظهر مصـداق جمع الأمرين في قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ ۝٧﴾ [الحجرات: ٧]، وإن الإعراض عن رغبة المحبوب وإن كانت في الجفاء درجة ذميمة، فمشايعة عدو الحبيب لها من الشناعة قيمة وأية قيمة».

فالحرية المخالفة لأمر الله وشرعه هي سبل الشيطان، فلو أن دعاة الشر سـموا الأمـور بحقائقها وقالوا للناس: نحن دعاة إلى سـبل الشـيطان لقال لهم النـاس: «أَعُوذُ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ»، ولكنهم خدعوهـم وغرّوهم وزيّنوا لهم سبل الشيطان وسموها «حرية».

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

قـال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «اعلموا أنما السـبيل سـبيل واحـد، جماعه الهدى، ومصيره الجنة، وأن إبليس شـرع سبلا متفرقة، جماعها الضلال، ومصيرها إلـى النار، وهذا كتـاب أنزلناه مبارك، هو هذا القرآن الـذي أنزل الله تبارك وتعالى على نبينا محمد ﷺ، فاتبعوه واتقوا الله لعلكم ترحمون».

(١) مختصر الحجة على تارك المحجة (١/ ٥٩)

وسبب هـذا التنظير الباطل الشـيطاني هو أن هـؤلاء المتعالمين لم يقع كلام اللـه عـز وجـل ورسـوله ﷺ فـي قلوبهم موقعـه، وإلا فـكل مؤمن يخشى وعيد الله لمن أذن في نشر الضلالة.

قال العلامة محمد بن على الشـوكاني رحمه الله(١): «وقد كان لهذه السـورة شـأن عظيم عند السـلف رضي الله عنهم، فأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشـعب عن أبي مزينة الدارمي، وكانت له صحبـة قال: «كان الرجلان من أصحـاب محمـد ﷺ إذا التقيـا لم يتفرقـا حتى يقرأ أحدهمـا على الآخر سورة العصر ثم يسلم أحدهما على الآخر».

قلت: ولعل الحامل لهما على ذلك ما اشتملت عليه من الموعظة الحسنة من التواصي بالحق والتواصي بالصبر بعد الحكم على هذا النوع الإنساني حكما مؤكدا بأنه في خير، فإن ذلك مما ترجف له القلوب، وتقشـعر عنده الجلود، وتقف لديه الشعور، وكأن كل واحد من المتلاقيين يقول لصاحبه: أنا وأنت وسـائر أبناء جنسـنا وأهل جلدتنا خاسـر لا محالة إلا أن نتخلص عـن هذه الرزية، وينجو بنفسـه عن هـذه البلية، بالإيمـان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والصبر».



(١) النشر لفوائد سورة العصر ص٣٤-٣٥



الباطل ينزل منزلة المعدوم

الباطل لا يقوم عليه دليل صحيح لأنه ضلال، وما كان هذا شأنه فهو معدوم، لا إبداء له ولا إعادة، فواجب المسلم أن يُنّزل الضلال والباطل منزلة المعدوم، فمن يروّج للباطل بدعوى الحرية هو بمنزلة من يأتي إلى جرف هار فيسعى في تشييد أركانه.

قال تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ [سبأ: ٤٩]، قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ومعنى ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، الكناية عن اضمحلاله وزواله، وهو ما عبّر عنه بالزهوق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]، في سورة الإسراء.

وذلك أن الموجود الذي تكون له آثار إما أن تكون آثاره مستأنفة أو معادة، فإذا لم يكن له إبداء ولا إعادة فهو معدوم وأصله مأخوذ من تصرف الحي، فيكون ﴿وَمَا يُبْدِئُ﴾ ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾، كناية عن الهلاك».

فالذي يعرفه كل عاقل أن الحريات المذمومة من اعتقاد الباطل وقول الضلالة واللهو المحرم زبد لاخير فيه، ومن رخص فيه بدعوى الحرية كالسويدان فهو كمن يريد أن يجعل الغثاء جوهرا وهيهات!!

قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ٢٣٩)

﴿ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ [الرعد: ١٧]، قال ابن القيم رحمه الله[1]: «إن السيل إذا خالط الأرض ومرّ عليها احتمل غثاء وزبداً فكذلك الهدى والعلم إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات، ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطا فيتكدر بها شاربه، وهي من تمام نفع الدواء فإنه أثارها ليذهب بها، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها، وهكذا يضرب الله الحق والباطل».

فاصقلوا قلوبكم أيها المسلمون بنور الوحي، واحذروا ضلالات الكافرين والعلمانيين فإنها من أسباب إضعاف الإيمان أو زواله، والعياذ بالله، فكلمة الباطل والكفر والضلال كما قال الله عز وجل: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٦]، فكيف يقول السويدان للناس: قولوا ماشئتم، واعبدوا ماشئتم إنها الحرية!!!

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2]: «﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾، أي: من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك **كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث، يستضر به صاحبه، ولا ينتفع**، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره».

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ٤٨٤-٤٨٥)

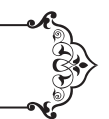
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٤

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي أيضاً رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «إن هؤلاء الملحدين روّجوا إلحادهم بتحسين ما هم عليه بأوصاف إذا سمعها الجاهل هالته،واغتربها، وظن صدقها، وكل منصف عارف يعرف كذبها وبطلانها فزعموها تجديدا، ورقيا، وتقدما إلى الأمام، وما أشبه ذلك من العبارات التي يغتربها الجاهلون، وأما البصير العاقل فيعلم أن كل تقدم ورقي روحي ومادي، فالدين قد أتي به على أكمل الوجوه، وأسلمها من الضرر والفساد، فإن الدين كما أمر بإصلاح الدين فقد أمر بإصلاح الدنيا الإصلاح الحقيقي النافع عاجلا وآجلا، عكس ما كذب عليه أعداؤه بأنه مخدّر مفتّر، **فالدين أعظم قوة تدفع العباد إلى التقدم الصحيح** كما قد فصل في موضع آخر، فمحاسن الدين الإسلامي أرسى من الجبال الرواسي، وأغلى من النجوم الدراري، وأجلى نورا من الشمس المشرقة، لا يقابلها ضدها، ولا يقاومها الباطل المبهرج ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾[الإسراء: ٨١].

ولولا أن الباطل قد زُخرف، ورُوّج بالعبارات والدعايات المتنوعة، ونصرته الدول المنحرفة، لم يقبله عاقل، ولا أصغى إليه لبيب، ولعرف الناس أنه أعظم ظلمة من الليل، وأضعف من كل ضعيف».

❊ ❊ ❊

(١) الأدلة القواطع والبراهين في إبطال أصول الملحدين ص٤٨




سجن الهدى خير من سجن الهوى

المؤمـن فـي الدنيـا كمـا **قـال النبـي** ﷺ «**الدنيا سـجن المؤمـن، وجنة الكافـر**»[(١)]، فهـو ممنوع مما نهاه الله عنه، ومـا منعه الله عنه هو في مصلحته لحفظ دينه وعقله وبدنه، ولتكون حياته طيّبة، وليسـعد في الدار الآخرة التي هـي الحياة الأبدية، لذلك قالت مريم عليها السلام لجبريل لما جاءها في صورة بشـر لينفخ في رحمها بأمر الله لتلد عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٨]، قال أبو وائل[(٢)]: «قد علمت أن التقي ذو نهية».

وأما الكافر فهو في سـجن شهواته وضلال اعتقاده وأقواله وأفعاله، ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨١ – ٨٢].

قـال ابـن القيـم رحمه الله[(٣)]: «إن هـذه المرتبة مـن مراتب الحيـاة هي أعلى مراتبهـا، ولكـن كيف يصل إليه من عقله مسـبي في بلاد الشـهوات، وأمله موقـوف على اجتنـاء اللذات، وسـيرته جارية على أسـوأ العـادات، ودينه مسـتهلك بالمعاصي والمخالفـات، وهمته واقفة مع السـفليات، وعقيدته غير متلقاة من مشكاة النبوات؟!

(١) رواه مسلم كتاب الزهد باب الدنيا سجن المؤمن (ص ١٢٨١ – رقم ٤١٧)
(٢) تفسير القرآن العظيم ص٨٤٧
(٣) مدارج المسالكين (٣/ ٢١٢)

فهـو فـي الشـهوات منغمـس، وفي الشـبهات منتكـس، وعـن الناصح معرض، وعلى المرشد معترض، وعن السراء نائم، وقلبه في كل واد هائم، فلو أنه تجرد من نفسـه، ورغب عن مشـاركة أبناء جنسـه، وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم، ومن سجن الهوى إلى سجن الهدى، ومن نجاسة النفـس، إلـى طهارة القدس: لرأى الإلف الذي نشـأ بنشـأته، وزاد بزيادته، وقـوى بقوتـه، وشـرف عن نفسـه وأبناء جنسـه بحصوله، سـد قـذى عين بصيرته، وشجاً في حلق إيمانه، ومرضا مترامیا إلى هلاكه».

فأسـرى الشـهوات المحرمة والأقـوال المنحرفـة والآراء والاعتقادات الضالة والحريات المذمومة يحتاجون إلى من يطلق أسرهم من رق النفس والشـيطان ويأخـذ بأيديهم إلـى هدى القـرآن، فإن هدى القـرآن هو وحي الرحمـن، نـور وفرقان يميّز فيـه أهله الحق مـن الباطل، ويزكـي أخلاقهم وأقوالهـم وأعمالهم، ويقيـم اعتقادهم على حقائـق التوحيد، لا ضلالات الكفر والشرك والإلحاد الذي هو غثاء الحريات الضالة.





الهداية في سلوك الصراط المستقيم لا في الطرق المعوجة

الأقوال والأفعال ليست مقصودة لذاتها، فاللغات أسباب للفهم والعمل الصالح، فالبهائم تقول ما تشاء وتفعل ما تشاء، أما الإنسان فإنه مأمور بألا يتكلم إلا بما فيه خير له وللبشرية، والحرية للبشرية في قول ما تشاء وفعل ما تشاء واعتقاد ما تشاء، هي دعوة لأن يكون الخلق سفهاء وبهائم، يسيرون ويتكلمون بغير هدى ولا كتاب مبين.

فالله عز وجل لم يتركنا هملا كالأنعام، بل أرسل الرسل وأنزل الكتب لنسلك صراطه المستقيم، فنقول خيرا، ونعتقد الإيمان الصحيح وهو الإسلام، ونسعى في إصلاح البشرية جميعا في دلالتها إلى صراط الله المستقيم فترشد أقوال وأفعال العباد فيتحقق الخير للبشرية جميعا وتسعد، وتحسن عاقبتها في الدار الآخرة فتزحزح عن النار وتدخل الجنة.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فالله عز وجل نصب لخلقه سبيلا واضحا وصراطا مستقيما للهداية ولحصول الخير وتحقيق مصالح الدنيا والنجاة من النار والفوز في الدنيا والآخرة، فالتنكب عن صراط الله المستقيم والترخيص للخلق بسلوك

الطرق المعوجه والدعوة إلى ذلك لا ريب أنه لا تحصل به هداية، وهو ما أورث الكفار الضلال والشقاء.

والله هو الهادي الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: لسيد البشرية نبينا محمد ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]، فالخلق كلهم لا يملكون هداية أحد إلا بإذن الله، ولم يأذن الله في هداية الخلق إلا بشرعه القويم وصراطه المستقيم، قال تعالى: لنبينا ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

فالحريات سبل معوجة لا يحصل بها هداية ولا سعادة، بل فيها الكفر والشقاء، قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فالناصح للبشرية المبتغي لهدايتها هو الذي يدلها على أسباب هدايتها ويحجزها ويمنعها من أسباب غوايتها.

وتأمل يامن يعقل كلام الله ورسوله ﷺ كيف أن الله لما ذكر الهداية قيّدها بسلوك صراطه المستقيم بإذنه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ

﴿صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، فتأمل قوله ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[1]: «قوله ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: هو الهادي لمن قدّر له الهداية على يدي رسوله ﷺ المبعوث عن أمره يهديهم ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ﴾، أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾، أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره».

وتأمل الآية وتدبّرها في سياقها كيف ذكر الله بعدها قوله سبحانه: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ ۝٣﴾ [إبراهيم: ٣]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2]: «أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة عائلة، وهي مستقيمة في نفسها لا يضرها من خالفها، ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجي لهم - والحالة هذه - صلاح».

فالدعوة للسبل المعوجة بدعوى الحرية هي كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «جهل وضلال بعيد من الحق».

* * *

(١) تفسير القرآن العظيم ص٧٢٧
(٢) تفسير القرآن العظيم ص٧٢٧



كل قول ابن آدم له أو عليه

كل نصوص القرآن والسنة تبطل تنظير وإبتداع السويدان الذي رخّص للناس أن يقولوا ما شاءوا بدعوى الحرية، **فعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ أنه قال: «كلام ابن آدم عليه لا له إلا أمر بمعروف أو نهي عن المنكر، أوذكر الله»**(١).

وقال يعلى بن عبيد رحمه الله(٢): «دخلنا على ابن سوقة فقال: يا ابن أخي! أحدثكم بحديث لعله ينفعكم، فقد نفعني، قال لنا عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كانوا يعدون فضول الكلام، ماعدا كتاب الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لابد منها.

أتنكرون أن عليكم حافظين كراما كاتبين، عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد؟!

أما يستحي أحدكم لو نُشرت صحيفته التي أملى صدر نهاره وليس فيها شيء من آخرته!».

فالكلام في ديننا وشرعنا إما كلام في خير أو مباح، أو السكوت عن الشر، أما أن يقول الناس ما شاءوا ولو كان باطلا كما يدعو السويدان فهذا الذي قال فيه المسلمون «شيطان ناطق».

---

(١) رواه الترمذي كتاب الزهد باب منه حديث «كل كلام ابن آدم عليه لا له» (ص٥٤٩-رقم ٢٤١٢)، وقال: حديث حسن.

(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٨٦)

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاصٍ لله، مراء مداهن، إذا لم يخف على نفسه.

والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاصٍ لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط وهم أهل الصراط المستقيم كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوا فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قدهدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به».



(١) الجواب الكافي ص٢٣٩



الحرية المضادة للشريعة سفال

الله عز وجل ما فرض الفرائض ولا حد الحدود إلا لمصلحة البشر، حتى تصان أنفسهم وأبدانهم وأرواحهم عن كل ما يضرهم، وبيّن الله كذلك أن لزوم الإنسان أوامر الله واجتناب نواهيه تكريم لإنسانيته وصيانة لها عن الانحطاط العقائدي والأخلاقي، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤ - ٦]،قال ابن القيم رحمه الله(١): «إنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين، فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورة من أقبح الصور في أسفل سافلين، فتلك نعمته عليه، وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته».

وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(٢): «ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفاف

---

(١) بدائع التفسير (٥/ ٢٧٢)

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٠٩٧

الأخـلاق، فردّهم الله في ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، أي: أسـفل النار موضع العصاة المتمرديـن علـى ربهـم، إلا من مـنّ اللـه عليه بالإيمـان والعمـل الصالح والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فَلَهُمْ﴾: بذلك المنازل العالية، ﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غيـر مقطوع، بل لذات متوافرة وأفـراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها».





قوام الدين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اتفقت الشرائع جميعا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لأنه قوام الدين، به تُحفظ الشرائع من التغيير والتبديل، فلا يصير التوحيد شركا، ولا تضيع العبادات والحدود، ولا يعود المعروف منكرا، ولا يصير القبيح السيء حسنا.

قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٧٩ ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩]، فهذه الآية واضحة الدلالة في إتفاق الشرائع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكذلك قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ١٥٧ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فإذا كانت الشرائع كلها متفقة على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فمن أين لطارق السويدان أن يرخص للناس أن يقولوا ما شاءوا بدعوى الحرية؟!!

كان واجب السويدان عوضا عن أن يقول للناس، وبئس ما قال: اعبدوا ما شئتم، كيف شئتم، ما عندي مشكلة!!!، أن يقول لهم: اعبدوا الله مالكم من إله غيره.

وكان واجبه أن يقول للناس: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[آل عمران: ٨٥]، وكان واجبه أن يقول لهم لو أردتم الخيرية الحقة وحسن العاقبة في الدنيا والأخرة فادخلوا ف ي الإسلام وحققوا التوحيد وابنذوا الشركه، فإنه يزدكم قوة ورفعة ونهضة فيما أعلمكم الله من الصناعات، وهذا ما خاطب به بني الله هود قومه عاد، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾[هود: ٥٠ - ٥٢]، ولكن مع الأسف السويدان إلتفت عن منهج الأنبياء وسوع للكافرين الإسترواح إلى شركهم وكفرهم ومقالاتهم الضالة بدعوى الحرية.

قال العلامة محمد بن على الشوكاني رحمه الله(١): «وقد تواترت الأدلة المرشدة إلى المنصحة، وأيضا ذلك يندرج تحت عمادي هذا الدين اللذين تبنى عليهما قناطره، وترجع إليهما أوائله وأواخره، وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

* * *

(١) النشر لفوائد سورة العصر ص٣٩

العاقل يختار الشجر المثمر على الشوك والحنظل

ترخيص السويدان للناس بأن يقولوا ما شاءوا بدعوى الحرية قول شطط، فلا تستوي الكلمة الطيبة المثمرة لكل خير خصوصا كلمة التوحيد مع الكلمة الخبيثة التي لا يحصد الناس منها إلا الشوك والحنظل والشر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(١): «شجرة الإيمان أصلها ثابت في قلب المؤمن علما واعتقادا، وفرعها من الكلم الطيب والعمل الصالح والأخلاق المرضية والآداب الحسنة في السماء دائما، يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها شجرة الإيمان، ما ينتفع به المؤمن وينفع به غيره».

وقال أيضا رحمه الله(٢): «كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٣

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٤

فالنفوس خلق الله فيها دواعي الخير ودواعي الشر، فإن أراد بنفسه خيرا سعى في تنمية مكامن الخير فيه، وتهذيب نوازع الشر والإنصراف عن إجابة دواعيها، قال ابن القيم رحمه الله(١): «وتقدم قبل هذا مثلا نضربه مطابقا لما نريده، وهو نهر جار في صببه ومنحدره، ومنته إلى تغريق أرض وعمران ودور، وأصحابها يعلمون أنه لا ينتهي حتى يخرب دورهم، ويتلف أراضيهم وأموالهم، فانقسموا ثلاث فرق: فرقة صرفت قواها وقوى أعمالها إلى سكره وحبسه وإيقافه، فلا تصنع هذه الفرقة كبير أمر، فإنه يوشك أن يجتمع ثم يحمل على السكر، فيكون إفساده وخريبه أعظم.

وفرقة رأت هذه الحالة، وعلمت أنه لا يغني عنها شيئا، فقالت: لا خلاص من محذوره إلا بقطعه من أصل الينبوع، فرامت قطعه من أصله، فتعذر عليها ذلك غاية التعذر، وأبت الطبيعة النهرية عليهم ذلك أشد الإباء، فهم دائما في قطع الينبوع، وكلما سدوه من موضع نبع من موضع، فاشتغل هؤلاء بشأن هذا النهر عن الزراعات والعمارات وغرس الأشجار.

فجاءت فرقة ثالثة خالفت رأي الفرقتين، وعلموا أنهم قد ضاع عليهم كثير من مصالحهم، فأخذوا في صرف ذلك النهر عن مجراه المنتهي إلى العمران، فصرفوه إلى موضع ينتفعون بوصوله إليه، ولا يتضررون به، فصرفوه إلى أرض قابلة للإنبات، فكانت هذه الفرقة هم أصوب الفرق في شأن هذا النهر».

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٥)

ثـم قال[١]: «فالنهر مثال هاتيـن القوتين: وهو منصب في جدول الطبيعة ومجراهـا إلـى دور القلـب وعمرانـه وحواصلـه، يخربها ويتلفهـا ولابد، فالنفوس الجاهلة الظالمة تركته ومجراه، فخرب ديار الإيمان، وقلع آثاره، وهدم عمرانه، وأنبت موضعها كل شجرة خبيثة، من حنظل وضريع وشوك وزقوم، وهو الذي يأكله أهل النار يوم القيامة يوم المعاد.

وأمـا النفـوس الزكيـة الفاضلة فإنهـا رأت ما يـؤول إليه أمر هـذا النهر، فافترقوا ثلاث فرق:

فأصحـاب الرياضـات والمجاهدات، والخلـوات والتمرينـات: راموا قطعه من ينبوعه، فأبت عيلهم ذلك حكمة الله تعالى، وما طبع عليه الجبلة البشرية، ولم تنقد له الطبيعة فاشتد القتال، ودام الحرب، وحمى الوطيس، وصارت الحرب دولاً، وسجالا، وهؤلاء صرفوا قواهم إلى مجاهدة النفس على إزالة تلك الصفات.

وفرقة أعرضوا عنها، وشغلوا نفوسهم بالأعمال، ولم يجيبوا دواعي تلك الصفـات مع تخليتهم إياها على مجراها، لكن لم يمكنوا نهرها من إفسـاد عمرانهم، بل اشـتغلوا بتحصين العمران، وإحكام بنائه وأساسـه، ورأوا أن ذلـك النهـر لابد أن يصـل إليه، فإذا وصل إلـى بناء محكم فلـم يهدمه، بل أخذ عنه يمينا وشـمالا، فهؤلاء صرفوا قوة عزيمتهم وإرادتهم في العمارة،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٦)

وإحكام البناء، وأولئك صرفوها في قطع المادة الفاسدة من أصلها، خوفا من هدم البناء.

وسألت يوما شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذه المسألة، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطريق وتنظيفها؟

فقال لي جملة كلامه: النفس مثل الباطوس وهوجب القدر كلما نبشته ظهر وخرج، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره، وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإنك لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئا ظهر غيره».





حرية الكافرين كفر أو بدعة أو معصية أو ما يؤول إليها

شأن العاقل أن ينظر في مقالات الكافرين والضالين ويسبرها، فيميّز بين حقها وباطلها، وصحيحها وسقيمهما، فمن كان منه حقا قبله ولو كان من كافر، وما كان منها من باطل رده مهما كان قائله.

ولا ريب أن قرآننا وحي منزل من السماء نور وهدى تكفل الله بحفظه كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، والتوراة والإنجيل شرائع نسخها الله، قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [المائدة: ١٥].

فلله الحمد والمنّة على ما تفضل به على أهل الإسلام، قال تعالى: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحديد: ٢٩].

وأنت إذا نظرت في مقالات الكافرين وحرياتهم المذمومة رأيتها كفرا وضلالة ولهوا محرما، وخوضا بالباطل.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «فإن جميع ما يعملونه - الكفار - مما ليس من أعمال المسلمين السابقين إما كفر، وإما معصية، وإما شعار كفر، أو معصية، وإما مظنة للكفر والمعصية، وإما أن يخاف أن يجر إلى معصية، وما أحسب أن أحدا ينازع في جميع هذا».

وفرق ما بين كلام الصالحين المهتدين والكافرين والمبتدعين واضح، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا - مع أنهم أكمل الناس علما نافعا وعملا صالحا - أقل الناس تكلفا، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة أو من المعارف، ما يهدي الله بها أمة، وهذا من منن الله على هذه الأمة، وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكلفات والشطحات، ما هو من أعظم الفضول المبتدعة، والآراء المخترعة، لم يكن لهم في ذلك سلف إلا رعونات النفوس المتلقاة ممن ساء قصده في الدين».

* * *

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٦٧)

(٢) مجموع الفتاوى (/ ١٣٨)



تحقيق التوحيد يمنع من الحرية للكفر والشرك

من تديّن بالإسلام وحقّق التوحيد فإنه يجب عليه أن يقيم ركني كلمة التوحيد (لا إله إلا الله)، فالركن الأول: إثبات الألوهية الحقة لله، والركن الثاني: نفي الألوهية الباطلة لكل ما يعبد من دون الله.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل».

فمن عرف هذا وتيقّنه لا يمكن أن يقول كما قال طارق السويدان للكفار: «اعبدوا ماشئتم، كيف شئتم، ما عندي مشكلة».

وعوضا عن أن يقوم الداعية طارق السويدان بعيب الشرك وآلهته صار يرخص فيه بدعوى الحرية، وهذا الذي ودّ مشركو قريش لو ظفروا به من النبي ﷺ، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «ومن مقاماتهم مع النبي ﷺ أنهم يسعون أشد السعي أن يكف عن عيب آلهتهم والطعن في

(١) تيسير اللطيف المنان ص٣٢٤

دينهم، ويحبون أن يتاركهم ويتاركوه، بعلمهم أنه إذا ذكر آلهتهم ووصفها بالصفات التي هي عليها من النقص، وأنها ليس فيها شيء من الصفات يوجب أن تستحق شيئا من العبادة، يعرفون أن الناس يعرفون ذلك، ويعترفون به، فلا أحب إليهم من التزوير وإبقاء الأمور على علاتها من غير بحث عن الحقائق، لأنهم يعرفون حق المعرفة أن الحقائق إذا بانت ظهر للخلق بطلان ما هم عليه، وهذا الذي منه يفرون».

فإن قلت: كيف أقر الإسلام دخول الكفار في حكم الإسلام إذا دفعوا الجزية ورخص لهم في إقامة شعائرهم؟

فالجواب أن قبول الكافر دفع الجزية فيه دليل على قبوله حكم الإسلام فيه، الذي هو حكم الله، ثم دخوله في حكم المسلمين وأمانهم يجعله يرى محاسن الإسلام ويعرف شرائعه وأحكامه مما قد يكون سببا في إسلامه، وهذا المعنى واضح جدا، فإن الكافر نشأ بين ظهراني الكفار وأوريه ذلك توهم صحة ما هم عليه وبطلان ما يخالفه، لذلك قال الله في سبب كفر ملكة سبأ قبل إسلامها: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٣]، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

***



حجة الله قائمة على خلقه أجمعين لا حرية لأحد في ضلاله

الإذن للناس بالحرية المطلقة: يعتقدوا ما شاءوا، ويقولوا ما شاءوا، ويفعلوا ما شاءوا، سفه وغاية في الضلال، وهو قدح في حكمة الله، فما خلق الله الخلق عبثا حكمة يخوضون ويلعبون في هذه الدنيا بلا حساب ولا ثواب، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وما كان الله ليخلق الخلق هكذا ويتركهم هملا بلا كتاب ولا هدى منير، يتدينون بما شاءوا، ويعتقدون ويقولون ما شاءوا، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فمنذ خلق الله الخلق واستخلفهم في الأرض أرسل إليهم الرسل، وأنزل إليهم الكتب، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١): «قوله ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾، أي: يبشرون من أطاع الله واتّبع رضوانه بالخيرات، وينذرون من خالف أمره وكذّب رسله بالعقاب والعذاب، وقوله ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾، أي: إنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والنذارة، وبيّن ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه، لئلا يبقي لمعتذر عذر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا

(١) تفسير القرآن العظيم ص٣٨٤

فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾ [طه: ١٣٤]، ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ [القصص: ٤٧]. وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين»، وفي لفظ آخر: «من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه».

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ [الشعراء: ٢٠٨ - ٢٠٩]، قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[١]: «أخبر تعالى أنه لم يهلك قرية من القرى إلا بعد إرسال من ينذرهم عذاب الله عز وجل، ذكرى لهم وتبصرة وإقامة حجة، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل».

***

(١) المحرر الوجيز (١٢/ ٨٢)



الشرع أوصى بما ينفع والحرية للباطل لا تنفع

أمر الله وشـرعه كله خير لأنه تنزيل من حكيم حميد، وآكد الخير الذي أمـر الله به هو التوحيد، وهو أول الدين وآخره، وحقيقته، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الأعراف: ٢٩]، وكل ما أمر الله به من سـائر الأمور وما نهى عنه من النواهي فإنما هو من أجل حفظ جناب التوحيد.

لا ريـب أن أصحـاب المطالـب العالية والهمم الزكية تسـمو نفوسـهم لتحقيـق أوامـر اللـه خصوصـا أولها وآكدهـا وهـو توحيد الله عـز وجل، فيكونوا من أنصار الله وشرعه.

قال العلامة المجدد عبدالرحمن السـعدي رحمه الله(١): «خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله وإقامة شرعه واتساع دائرة الإسلام وهداية الضالين وقمع أعداءه».

وعوضـا عن أن يقول السـويدان كما قال النبيون عليهم السلام: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩ و٦٥ و ٧٣ و ٨٥ وهود: ٥٠ و ٦١ و ٨٤ المؤمنون: ٢٣ و ٣٢]، قال: اعبدوا ما شئتم، كيف شئتم، ماعندي مشكلة.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٤

فالفرق واضح بين دعوة المرسلين، ودعوة الضالين، فالموحد لا يجوز له السكوت عن الشر، فكيف يجوز للكافرين والمشركين البقاء على كفرهم وشركهم؟!

وقال واعظ عطاء بن مسلم ناصحا له[1]: «إن أولياء الله عز وجل العقلاء الحذرون المسارعون في رضوان الله، المراقبون لله، فإذا رأيت أهل هذه الصفة فاقترب منهم فهم أولياء الله عز وجل، فقلت: كيف أعرف أهل النفاق والكذب والفجور، فقال: أولئك قوم إذا رأيتهم يأباهم قلبك، ولا يقبلهم عقلك، وإذا سمعت كلامهم سمعت كلاما حلوا لذيذا لا منفعة له، وإياك أن تصحب أهل الخلاف، فقلت: وما أهل الخلاف؟ قال: المفارقون للسنة والكتاب، أولئك عبيد أهوائهم تراهم مصطحبين، وقلوبهم يلعن بعضهم بعضا، فاحذر هؤلاء واجتنبهم، وعليك بالصلاة والفقه عن محارم الله عز وجل، وتقرب إلى الله بالنوافل، فإنك إذا كنت كذلك كنت شاكرا عالما».

فالواجب على المسلم أن يكون داعية توحيد لا داعية ضلال، يرخص في الكفر والشرك، فلا تتكلم عبدالله إلا بخير.

---

(١) مختصر الحجة على تارك المحجة (٢/ ٥٠٨-٥٠٩)

قـال ابن القيم رحمه الله[١]: «وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسـكوته، فهم بيـن هذين النوعين، وأهل الوسـط - وهم أهل الصراط المسـتقيم - كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة.

فـلا يرى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليـه ضائعة بلا منفعة، فضلا عن أن تضـره فـي آخرته، وإن العبد ليأتـي يوم القيامة بحسـنات أمثال الجبال، فيجد لسـانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسـيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله عز وجل وما اتصل به».

فشأن المؤمن دعوة المؤمنين في تثبيت إيمانهم وتقويته، ودلالة الكافرين إلى توحيد الله، والتكلم بما ينفع سواء في شؤون الناس الدينية أو الدنيوية، فيأمر بشـرع الله ويحـذر مما يخالفه، ويهدي الناس في أسـباب صلاحهم الديني والدنيوي.

قـال العلامـة محمد بن علـي الشـوكاني رحمه الله[٢]: «ينبغي للإنسـان عند ملاقـاة من له إشـتغال بعمل مـن الأعمال أن يأخذ في توصيتـه بما ينتفع به فيما هو بصدده».

(١) الجواب الكافي ص٢٠٦
(٢) النشر لفوائد سورة العصر ص١٢٠

ثم قال[1]: «هكذا يأخذ مع أهل كل صناعة بتوصيتهم بما ينتفعون به في صناعتهم، ويحفظون به دينهم في مباشرتهم، فلا نطيل الكلام في تعداد أهل الحرف، وأنواع أهل الأعمال، فإنه لا يخفى على الذكي الممارس للناس العارف بقواعد الشرع ما يتعلق به النفع أو الضر لكل طائفة من هذه الطوائف فيأخذ مع كل طائفة فيما يهمها ويخشى منه ضررها، ويرجو فيه نفعها».



(١) النشر لفوائد سورة العصر ص١٢٣



العبودية لله تهذيب للنفس عن دواعي الشر وآثارة

الله عز وجل اصطفى الإنسان من سائر مخلوقاته فجعل فيه العقل ليفهم خطاب الله فيمتثله، لا أن يعارضه، ولا لأن يخرج عن أمر الله التي فرضه للمحافظة على فطرته وتكميلها وهدايتها لكل خير، ونهاه عن المحرمات صيانة له عن أسباب العطب والزلل والخلل.

وامتن الله على الإنسان بنعمة البيان، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾[الرحمن: ١ - ٤]، وواجب المسلم إزاء هذه النعمة أن يكون بيانه في الخير وقول الحكمة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسكوت عن قول الباطل أو الترخيص في الشر والشرك.

والله له حكمة بالغة في قضاءه وتقديره الكوني في تمييز الناس إلى فريقين: فريق الهدى، وفريق الضلالة، فريق التوحيد، وفريق الشرك، وجعل في كل من الفريقين نوازع الخير ونوازع الشر، ومع هذا إبتدأ الله خلق الإنسان على الفطرة كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾[الروم: ٣٠].

فأنت عبدالله مخلوق على الفطرة اجتباك الله لطريق السعادة فحافظ على هذه الفطرة بإلتزام أوامر الله والإنتهاء عن نواهيه.

فالعبودية لله تقهر نوازع الشـر الكامنة في نفـوس المخلوقين، فتتهذب نفـوس البشـر بعبوديـة اللـه عن الحريـات المذمومـة التي هي ضـرر على أصحابهـا فضـلا عن مجتمعاتهم، وبهـذا تظهر حكمة الله فـي خلق نوازع الخير والشـر في البشـر قال ابن القيم رحمه الله[1]: «إن خلق الأسباب المتقابلة التي يقهر بعضها بعضا، ويكسـر بعضها بعضا: هو من شـأن كمال الربوبية، والقـدرة النافذة، والحكمة التامة، الملك الكامل - وإن كان شـأن الربوبية كاملا في نفسـه، ولو لم تخلق هذه - لـكان خلقها من لوازم كماله وملكه، وقدرته وحكمته، فظهور تأثيرها وأحكامها في عالم الشـهادة تحقيق لذلك الكمال، وموجب من موجباته».

وقال ابن القيم أيضا رحمه الله[2]: «سـألت عن هذه المسـألة بعض الشيوخ، فقال لي: آفات النفس مثال الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها، والاشـتغال بقتلها إنقطع، ولم يمكنه السـفر قـط، ولكن لتكن همتك المسـير، الإعـراض عنها، وعـدم الالتفات إليها، فـإذا عـرض لك فيها مـا يعوقك عن المسـير فاقتله، ثم امض على سـيرك. فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدا، وأثنى على قائله».

❊ ❊ ❊

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٣)
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٧)



اعوجاج الأقوال سبب الضلال وموجب انحراف المتكلم به فضلا عن غيره

صلاح منطق الإنسان ينسحب على جميع أعماله، لأن الألسنة مغاريف القلوب، فمن كان قلبه سليما من الشرك والشهوات كان لسانه يلهج بذكر الله وتسبيحه وتنزيهه عن النقائص وتوحيده، ومن خلط رخص في أن يقول الناس ما شاءوا، والعياذ بالله.

عن أبي سعيد الحذري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[(١)].

فشأن المسلم أن يسأل الله علما نافعا، فيقول ويهدي إليه.

والسويدان مرخص في أم أسباب الضلال والفساد في أن يقول الناس ماشاءوا بدعوى الحرية!!!

إذا لماذا كذّب الله مقالات الكافرين والمشركين، فقال سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْاْ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣].

---

(١) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في حفظ اللسان (ص٥٤٨ - رقم٢٤٠٧)

فهـذه المقالات الشـنيعة القبيحة التي فيها إنتقاص للـه عز وجل، كيف يُجوّر السويدان أن يقول الناس ما شاءوا بدعوى الحرية؟!!

والله عز وجل أمر المشركين بالإنتهاء عن الكلام الباطل خصوصا كلام الكفر والشرك ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

❊ ❊ ❊



اللذات الروحانية أتم من اللذات الجسمانية

الكافرون والملحدون والضالون منغمسون في حرياتهم المذمومة يبتغون بذلك الفرح والسرور والمرح، ولما كان فرحهم وسرورهم بالحرام أورثهم ذلك حسرات ومنغصات ومكدرات، وهم مع ذلك محرومون من اللذة الحقيقية وهي الأنس والفرح بالله وقرة العين بطاعته..

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «بل تبقى الطاعات غذاء لقلبه، وسرورا له، وقرة عين في حقه، ونعيما لروحه، يتلذذ بها، يتنعم بملابستها أعظم مما يتنعم بملابسة الطعام والشراب، واللذات الجسمانية، فإن اللذات الروحانية القلبية أقوى وأتم من اللذات الجسمانية، فلا يجد في أوراد العبادة كلفة، ولا تصير تكليفا في حقه، فإن ما يفعله المحب الصادق، ويأتي به في خدمة محبوبه هو أسر شيء إليه، وألذه عنده، ولا يرى ذلك تكليفا، لما في التكليف من إلزام المكلف بما فيه كلفة ومشقة عليه، والله سبحانه إنما سمّى أمره ونواهيه: «وصية، وعهداً، وموعظة، ورحمة»، ولم يطلق عليها اسم التكليف إلا في جانب النفي كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ووقوع الوسع بعد الاستثناء من «التكليف» لا يوجب وقوع الإسم عليه مطلقا».



(١) مدارج السالكين (٣/ ١٣٣)



شجرة الإيمان لا تبقى حية إلا بسقيها وتنقية ما حولها



الدعوة بحرية الأقوال الباطلة والاعتقادات الفاسدة مضارة بالمجتمع، ومن أسباب إفساد أديان الناس، وهو من أسباب زعزعة إيمان المسلمين وإضعافه، وقد يؤول إلى إفساده والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

قال ابن القيم رحمه الله[١]: «إن الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنمّيها، فإذا قطع عنها السقي أوشكت أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر، وإلا أوشك أن تيبس.

وفي مسند الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الإيمان يخلق في القلب كما يخلق الثوب، فجددوا إيمانكم».

وبالجملة: فالغرس إن لم يتعاهده صاحبه أو شك أن يهلك.

ومن ههنا تعلم شدة حاجة العباد إلى ما أمر الله به من العبادات على تعاقب الأوقات، وعظيم رحمته، وتمام نعمته وإحسانه إلى عباده أن وظفها

(١) بدائع التفسير (٣/ ١٣-١٤)

عليها وجعلها مادة تسقي غراس التوحيد الذي غرسه في قلوبهم.

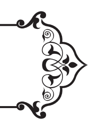
ومنها: أن الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لابد أن يخالطه دغل ونبت غريب، ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه نقّاه وقلعه، كمل الغرس والزرع، واستوى، وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب، وأزكى.

وإن تركه أو شك أن يغلب على الغراس والزرع، ويكون الحكم له، أويضعف الأصل، ويجعل الثمرة دميمة ناقصة بحب كثرته وقلته.

ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به، فإنه يفوته ربح كبير، وهو لا يشعر.

فالمؤمن دائما سعيه في شيئين: سقي هذه الشجرة، وتنقية ما حولها فبسقيها تبقى وتدوم، وتنقية ما حولها، تكمل وتتم، والله المستعان وعليه التكلان».



الواجب بيان الحق والتحذير من الباطل

طريقة القرآن واضحة في محاجة الكافرين ومحاورتهم، ففيها دعوتهم إلى الحق، وإنكار باطلهم والتحذير منه وبيان سوء عاقبته، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، فهذا دين الأنبياء جميعا بيان الحق والدعوة إليه والتحذير من الباطل، أما أن يقول الإنسان ما شاء ولو كان باطلا بدعوى الحرية فهذا ضلال، والمعهود من الكافرين أنهم لا يقفون عند حد كل يتدين بما يشاء كما يتوهمه دعاة الحرية عنهم، بل المعهود عنهم أنهم لا يألون جهدا في إدخال الناس في شركهم وكفرهم وضلالهم وملتهم، قال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: عنهم ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ ﴿٨٩﴾﴾ [النساء: ٨٩]، وقد أخبرنا الله سبحانه كيف نتعامل مع رغبة الكافرين في إجتذابنا لملتهم، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠٠ – ١٠١]، فالناصح الصادق المخلص هو الذي يأمر بالإعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويحذر من ملل الكفر وحرياتهم المذمومة.

وأنت إذا تأملت آيات القرآن كلها وجدتها تدل على هذا الأصل وتقرره وتؤكده وهو وجوب بيان الحق والتحذير من الباطل، وتجده أوضح ما يكون كذلك في بيان التوحيد والتحذير من الشرك والكفر، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «فكان أعظم مقامات دعوته: دعوته إلى التوحيد الخالص، والنهي عن ضده، دعا الناس لهذا، وقرره الله في كتابه وصرفه بطرق كثيرة واضحة تبيّن وجوب التوحيد وحسنه، وتعيّنه طريقا إلى الله وإلي دار كرامته، وقرر إبطال الشرك والمذاهب الضارة بطرق كثيرة احتوى عليها القرآن، وهي أغلب السور المكية».

وقال أيضا رحمه الله[٢]: «فلم يزل يدعو إلى التوحيد وعقائد الدين وأصوله، ويقرر ذلك بالبراهين والآيات المتنوعة، ويحذر من الشرك والشرور كلها منذ بعث إلى أن استكمل بعد بعثه، نحو عشر سنين، وهو يدعو إلى الله على بصيرة».

فالمتّبع لنبينا محمد ﷺ خصوصا والنبيين عموما يسلك سبيلهم يدل على الخير ويهدي إليه، ويحذّر من الباطل ويصد الناس عنه، أما من رخص للناس أن يقولوا ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا بدعوى الحرية فهو خارج عن إجماع النبيين، والعياذ بالله.

---

(١) تيسير اللطيف المنان ص٣٢١

(٢) تيسير اللطيف المنان ص٣٢٦

قال النبي ﷺ[1]: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وأن يحذر أمته شر ما يعلمه لهم».

فواجب المسلم تحري الحق ونصرته والهداية إليه، والتحذير من الشر ورده ودفع أنواعه فإن الضلال شعب كثيرة، وهي الحريات المذمومة التي يريد السويدان لأهلها أن يقولوا ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾[الأنعام: ١]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[2]: «ولهذا وحّد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات، لأن الحق واحد، والكفر أجناس كثيرة، وكلها باطلة كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ﴿١﴾﴾[الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ ﴿٤٨﴾﴾[النحل: ٤٨]، إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتفرقه وتشعبه».

فلا يوجد بين الكفر والإيمان إلا منزلة المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

(١) رواه مسلم كتاب الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة (ص٨٢٨- رقم ٤٧٧٦) من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما
(٢) تفسير القرآن العظيم ص

[النساء: ١٤٣]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال[1]: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة، وإلي هذه مرة، ولا تدري أيهما تتبع».

قال قتادة في المنافقين[2]: «ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرحين بالشرك».

قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴿٣٢﴾﴾ [يونس: ٣٢]، قال أبو عبدالله القرطبي رحمه الله[3]: «حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة». فدعوة السويدان لأن يقول الناس ماشاءوا ويعتقدوا ما شاءوا بدعوى الحرية في حقيقتها نقض لعرى الإسلام عروة عروة، فالشرع أمرنا بقول الخير والحق والصمت عن الباطل، وأمرنا فوق هذا بإنكار الباطل ورده ودحضه وإخماده.

عن أبي سعيد الحذري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[4].

---

(١) رواه مسلم كتاب صفات المنافقين (ص ٢١٤ - رقم ٧٠٤٣)
(٢) تفسير القرآن العظيم ص٣٧١
(٣) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٣٦)
(٤) رواه مسلم كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان (ص ٤٢ - رقم ١٧٧)

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «كثرة القيل والقال، فإن ذلك من دواعي الكذب، وعدم التثبت، واعتقاد غير الحق، ومن أسباب وقوع الفتن، وتنافر القلوب، ومن الاشتغال بالأمور الضارة عن الأمور النافعة.

وقلّ أن يسلم أحد من شيء من ذلك، إذا كانت رغبته في القيل والقال».

❊ ❊ ❊

(١) بهجة قلوب الأبرار ص١٧١، ط – وزارة الأوقاف السعودية.



الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الحريات المذمومة

أصحاب الحريات المذمومة ماذا قوا حلاوة الإيمان ولا الفرح بالله ولا أحبوه الحب الذي يزجرهم عن الحريات المذمومة ويلزمهم التقوى، فالذين آمنوا أشد حبا لله، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، والمؤمنون ذاقوا طعم الإيمان كما قال النبي ﷺ «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا ومحمد ﷺ رسولا»[١]، والمؤمنون فرحوا بطاعة الله وصبروا أنفسهم عليها عوضا عن سيئات اللهو المحرم، قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس: ٥٨].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «إن قوي الإيمان يجد في قلبه من ذوق حلاوته ولذة طعمه واستحلاء آثاره، والتلذذ بخدمة ربه وأداء حقوقه وحقوق عباده التي هي موجب الإيمان وأثره ما يزرى بلذات الدينا كلها بأسرها، فإنه مسرور وقت قيامه بواجبات الإيمان ومستحباته، ومسرور بأنه ربح وقته الذي هو زهرة عمره وأصل مكسبه، ومحشو قلبه أيضا من لذة معرفته بربه ومعرفته بكماله وكمال بره، وسعة جوده وإحسانه ولذه محبته والإنابة إليه الناشئة عن معرفته بأوصافه، وعن مشاهدة إحسانه ومننه، فالمؤمن يتقلب في لذات الإيمان وحلاوته المتنوعة، ولهذا كان

---

(١) رواه

(٢) تيسير اللطيف المنان ص٦٧

الإيمان مسليا عن المصيبات مهونا للطاعات ومانعا من وقوع المخالفات، جاعلا إرادة العبد وهواه تبعا لما يحبه الله ويرضاه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

وقال ابن القيم رحمه الله[1]: «وأما إيقاظ الطباع للسماحة بترك المناهي فإن الطباع لها علوم ورسوم تتقاضاها من العبد، ولا تسمح له بتركها إلا بعوض هو أحب إليها من معلومها ورسومها، وأجل عندها منه وأنفع لها، فإذا قوي تعلق الرجاء بهذا العوض الأفضل الأشرف سمحت الطباع بترك تلك الرسوم وذلك المعلوم، فإن النفس لا تترك محبوبا إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، أو حذرا من خوف هو أعظم مفسدة لها من حصول مصلحتها بذلك المحبوب.

وفي الحقيقة ففرارها من ذلك المخوف إيثار لضده المحبوب لها، فما تركت محبوبا إلا لما هو أحب إليها منه، فإن من قدّم إليه طعام لذيذ يضره ويوجب له السقم، فإنما يتركه محبة للعافية التي هي أحب إليه من ذلك الطعام».

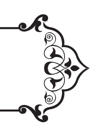
قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ الكهف: ١١٠.

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٥)

قـال ابـن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[(١)]: «هـذا الرجاء هو محض الإيمـان وزبدته، وإليه شـخصت أبصار المشـتاقين، ولذلك سـلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه، وضرب لهم أجلا يسكن نفوسهم ويطمئنها».

❊ ❊ ❊

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦)

إذا عرف الضالون الحق ودّوا لو كانوا أهله

الدعـوة للحريـة للكافرين والمبطليـن والضالين دعوة جـور عن طريق الهداية، والكفار أنفسهم إذا وقفوا على ضلال عقيدتهم وآرائهم التي ضلوا وأضلـوا بها تمنّوا لو لم يتكلموا بالكفر والضـلال الذي كانوا عليه، وودوا لـو كانوا فـي جهة الحق والإسـلام، فحينئـذ يجب علينا منع هـذا الضلال إبتـداءً، قال تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ كَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الحجر: ١ - ٢].

قـال تعالـى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣].

وقـال العلامةعبدالرحمن السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(١)]: «إذا كان يوم القيامة وفزع عن قلوب المشـركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم عـن حالهم في الدنيا وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسـل، أنهم يقرون أن مـا هـم عليه من الكفر والشـرك باطـل، وأن ما قال اللـه وأخبرت به عنه رسله هو الحق، فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل، وعلموا أن الحق لله».



(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٩٨



تعمية الحق سبيل الغاشين وتوضيح الحق سبيل الناصحين

الناصح للناس هو الذي يبيّن الحق للناس ويدلهم عليه، والغاش هو الذي يعمي الحق ويسوغ للناس أن يعتقدوا ما شاءوا ويقولوا ما شاءوا بدعوى الحرية، خصوصا فيما يتعلق بتوحيد الله والإيمان به، فإن الترخيص بالكفر أعظم الغش للخلق إذ يكون من أسباب خلودهم في نار جهنم وسوء عاقبتهم.

والحق الذي بُعث به نبينا محمد ﷺ واضح لا يشتبه على أحد خصوصا توحيد الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧ و٢٢ و٣٢]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «أي: سهلنا لفظه، ويسرنا معناه لمن أراده، ليتذكر الناس».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[٢]: «فالحق يعرفه كل أحد، فإن الحق الذي بعث الله به الرسل لا يشتبه بغيره، على العارف، كما لا يشتبه الذهب الخالص بالمغشوش على الناقد.

والله تعالى أوضح الحجة وأبان المحجة بمحمد خاتم المرسلين، وأفضل النبيين، وخير خلق الله أجمعين ﷺ، فالعلماء ورثة الأنبياء عليهم بيان ماجاء به الرسول ﷺ ورد ما يخالفه».

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣١٥-٣١٦)

فالناصح للخلق ومحب الخير لهم هو الذي يدلهم على الإسلام ولا يرخّص لهم في الشرك والكفر، وليس في تبيين دين الإسلام لمن لا يتدين به صعوبة تحول دون تبليغه، فالصحابة هدى الله على أيديهم أمما من الكفار لما فتحوا الأمصار، ما ذاك إلا لسهولة تعليم الإسلام، ولم يرخصوا للكافرين في الإسترواح إلى كفرهم والركون إلى شركهم، قال الحافظ ابن أبي العز الحنفي رحمه الله[1]: «فدين الإسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله، وأصول هذا الدين وفروعه، موروثة عن الرسل، وهو ظاهر غاية الظهور، يمكن كل مميز من صغير وكبير، فصيح وأعجم، وذكي، بليد أن يدخل فيه بأقصر زمان، وأنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك، من إنكار كلمة، أو تكذيب، أو معارضة، أو كذب على الله، أو ارتياب في قول الله، أورد لما أنزل، أو شك فيما نفى الله عنه الشك، أو غير ذلك مما في معناه.

فقد دل الكتاب والنسة على ظهور دين الإسلام، وسهولة تعلمه، وأنه يتعلمه الوافد، ثم يولي في وقته».

حريات الكافرين إرادات أنفسهم وأهوائهم، ولو تركوا وما تشتهيه أنفسهم لضروا أنفسهم وأهلكوها، فما ظنك إذا تم لهم مرادهم من تعميم هذه الحرية لتكون قانونا للبشرية، ولكن الله يدفع بأهل الحق

(١) شرح العقيدة الطحاوية (٢/ ٧٨٧)

المؤمنين شر المفسدين، قال تعالى: ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

فلا يمكننا الاسترواح إلى إرادات الكافرين فإنها من أسباب خراب الدينا، قال تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجرات: ٧ - ٨].

فهدي النبي ﷺ والشرع الذي بُعث به خير من إراداتنا وحرياتنا وأهوائنا المذمومة، فإن في مخالفة الشرع وركوب حرياتنا المذمومة عنت لنا ومشقة وحرج بخلاف ما يتوهمه الضالون أنه حرية وتقدم.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١): «وقوله تعالى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ ﴾، أي: اعلموا أن بين أظهركم رسول الله،، فعظموه، ووقروه، وتأدبوا معه، وانقادوا لأمره، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تبارك وتعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦]، ثم بيّن أن رأيهم سخيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم، فقال ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾: أي: لو أطاعكم في جميع ما تختارونه

(١) تفسير القرآن العظيم ص١٢٨٤-١٢٨٥

لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجكم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقوله عز وجل: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، إي: حببه إلى نفوسكم وحسّنه في قلوبكم».

فلا إله إلا الله ما أعظم ما لحق الخلق من الحرج بسبب حرياتهم وأهوائهم المذمومة، وكل عاقل يشاهد آثار الحريات المذمومة في فساد الدنيا، وفساد الديار، وانحراف وضلال الخلق، وارتكاسهم في أنواع الأخلاق والأفعال القبيحة.






الذي نهى عن التشبه بالكافرين لا يأذن بموجبه

صبيان طلبة العلم فضلا عن علمائهم يعرفون أن الشرع نهى عن التشبه بالكافرين، وكيف يقع التشبه إلا بمشاهدة أفعالهم وسماع أقوالهم التي هي ما يسميه المبطلون «الحرية»، فالشرع الحكيم لا ينهى عن التشبه بالكافرين ثم يأذن للكافرين أن يفعلوا في ديار الإسلام أعمالهم الكفرية والإباحية، فإن الشريعة لا تأتي بهذا أبدا مما يكون سببا في إفساد دين المسلمين وأخلاقهم وعقيدتهم.

فالإذن للكفار في إظهار شعائرهم وأعمالهم في ديار المسلمين بدعوى الحرية سبب لإضعاف المسلمين وفساد دينهم وأخلاقهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «إن من أصل دروس دين الله وشرائعه، وظهور الكفر والمعاصي: التشبه بالكافرين، كما أن من أصل كل خير: المحافظة على سنن الأنبياء وشرائعهم، لهذا عظم وقع البدع في الدين، وإن لم يكن فيها تشبه بالكفار، فكيف إذا جمعت الوصفين؟».

وقال الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله[2]: «فقد وقع ما أخبربه الصادق المصدوق ﷺ من متابعة هذه الأمة إلا من شاء الله منها لمن كان قبلهم من اليهود والنصارى، والمجوس وغيرهم من الكفرة في كثير من أخلاقهم

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٥٢)

(٢) الدرر البازية في الرد على الانحرافات العقدية والشرعية ص٥١٠

وأعمالهم حتى استحكمت غربة الإسلام، وصار هدي الكفار وما هم عليه من الأخلاق والأعمال أحسن عند الكثير من الناس مما جاء به الإسلام، وحتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا، والسنة بدعة والبدعة سنة، عند أكثر الخلق بسبب الجهل والإعراض عما جاء به الإسلام من الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة المستقيمة، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونسأل الله أن يوفق المسلمين للفقه في الدين، وأن يصلح أحوالهم، ويهدي قادتهم، وأن يوفق علماءنا، وكتابنا لنشر محاسن ديننا والتحذير من البدع والمحدثات التي تشوّه سمعته، وتنفّر منه، إنه على كل شيء قدير».





في نور القرآن والسنة غنية عن حرية الضالين والمغضوب عليهم

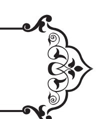
ما حاجة الناس إلى الضلال والباطل، فهو كاسمه ضلال وباطل، وما يجني الناس من الضلال والباطل إلا الفساد والشر والزيغ وسوء العاقبة، فالواجب الإستغناء بنور الوحي عن ضلال الزائغين، وإنحراف المبطلين، قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، فالدال على الخير والساعي فيه والداعية إلى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هو داعية هدى ورحمة، أما من رخص للناس أن يعتقدوا ما شاءوا، ويقولوا ما شاءوا بدعوى الحرية فهو داعية ضلال وشقاء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «فمن أقبل على الصلوات الخمس بوجهه وقلبه، عاقلا لما اشتملت عليه من الكلم الطيب، والعمل الصالح، مهتما بها كل الاهتمام، أغنته عن كل ما يتوهم فيه خير من جنسها.

ومن أصغى إلى كلام الله ورسوله بعقله، وتدبّره بقلبه، وجد فيه من الفهم والحلاوة والبركة والمنفعة ما لا يجده في شيء من الكلام لا منظومه ولا منثوره».



(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٢٦٩-٢٧٠)

أهل الحريات المذمومة كالأنعام السارحة

الكافرون ومن تشبه بهم من الغاوين ممن رخص للناس أن يعتقدوا ما شاءوا ويقولوا ما شاءوا بدعوى الحرية يسرحون في هذه الدنيا كالأنعام، انسلخوا من الحكمة ونور الوحي، وما يرشد إليه العقل السليم والفطرة الصحيحة فارتكسوا في تيه الشرك وزيغ الإعتقاد وفساد الأقوال والأفعال.

فأهل الحريات المذمومة طبع الله على قلوبهم بسبب الغلف الذي حجب قلوبهم عن معرفة ما ينفعهم ومحاذرة ما يضرهم، فتنكروا للفطرة السليمة، والعقل الصريح، وكفروا بشرع الله وهديه فلم يستضيئوا به، وزُين لهم سوء عملهم بدعوى الحرية، فمثل هؤلاء لا يوافقهم على الإرتكاس في حرياتهم المذمومة والإذن لهم فيها إلا من أصابه خبال في عقله وإرتكاس في فطرته، وضلال في عقيدته، وزيغ في دينه.

قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [محمد: ١٦]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ «أي: فلا فهم صحيح، ولا قصد صحيح».

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١): «قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾، أي: هؤلاء الذين لا يسمعون الحق ولا يعونه ولا يبصرون الهدى، كالأنعام السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها إلا في الذي يقيتها في ظاهر الحياة الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ١٧١﴾ [البقرة: ١٧١]، أي: ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها لا تسمع إلا صوته، ولا تفقه ما يقول، ولهذا قال في هؤلاء ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، أي: من الدواب، لأنها قد تستجيب مع ذلك لراعيها إذا أبس بها، وإن لم تفقه كلامه بخلاف هؤلاء، ولأنها تفعل ما خلقت له إما بطبعها وإما بتسخيرها، بخلاف الكافر، فإنه إنما خلق ليعبد الله ويوحده فكفر بالله وأشرك به، ولهذا من أطاع الله من البشر كان أشرف من مثله من الملائكة في معاده، ومن كفر به من البشر كانت الدواب أتم منه، ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ١٧٩﴾».

فأصحاب الحريات المذمومة مضارون بأنفسهم ولكنهم لفساد عقولهم يرون ركوب هذه الحريات المذمومة أو الترخيص فيها حسنا، قال ابن القيم رحمه الله(٢): «وحياة العقل هي صحة الإدراك، وقوة الفهم وجودته، وتحقق الإنتفاع بالشيء والتضرر به، وهو نور يخص الله به من يشاء من

(١) تفسير القرآن العظيم ص٥٦٣

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٦٠)

خلقه، وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه، ووجوده وعدمه، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم، ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين».

وسفه عقول أصحاب الحريات المذمومة واضح، فهم يظنون أنها سبب سعادتهم، وهذه سعادة محدودة تعقبها حسرات ووحشة في القلب وظلمة في الوجه، وعطب في الدنيا، ثم سرعان ما يفارقون هذه الدنيا إلى حساب الله وعقابه، فأين ذهب فرحهم بالباطل وباللهو المحرم والحريات المذمومة، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾: من اللذات والشهوات، أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت وبطلت واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، ضوعف لهم العذاب عند طول المدة».

❊ ❊ ❊

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٧٠٠



ما يهوي في النار سبعين خريفا لا يكون مأذونا

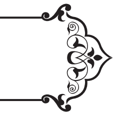
السويدان صار ينظر ويفتي ويرخص في أن يقول الناس ما شاءوا، ويعتقدوا ما شاءوا غير مكترث بأدلة القرآن والسنة، وإلا فلا يرتاب مسلم في تحريم القول على الله بغير علم، وفي تحريم قول الباطل، وأدلة القرآن والسنة كلها دالة على ذلك، **فعن أبي هريرة** رضي الله عنه **أن رسول الله** صلى الله عليه وسلم **قال: «إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب»**[1].

ونصوص القرآن والسنة كلها دالة على وجوب قول الخير والمعروف والصدق والعدل، والنهي عن قول الشر والمنكر والكذب والفجور، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۝٩ ﴾[المجادلة: ٩]، والواجب على السويدان أن يأمر الناس أن لا يقولوا على الله إلا الحق، وأن يتكلموا بالصدق، هذا شأن المتقين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣ ﴾[الزمر: ٣٣]، وكلام الصدق والحق يثمر كل خير، والباطل والكذب والزور والضلال يثمر كل شر.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري كتاب الرقاق باب حفظ اللسان (ص ١١٢٣ - رقم ٦٤٧٧)، ومسلم كتاب الزهد باب حفظ اللسان (ص ١٢٩٢ - رقم ٧٤٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة

الله عز وجل خلق الخلق وقسمهم قسمين كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ [التغابن: ٢].

وأخبر الله عز وجل عن مآل الفريقين في الدار الآخرة، فقال سبحانه: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ ﴾ [الشورى: ٧]، فشأن المسلم أن يكون في جانب الحق، وفريق الإيمان، وفئة الهداية، وأن يحذر فريق الكفر والضلالة، ولا يرخص في شيء من كفرياته وضلاله وزيفه، قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وقد بيّن الله في الآية نفسها أن فريق الضلالة هم أصحاب الحريات المذمومة الذين اتّبعوا أهوائهم ولم يعتصموا بوحي الله وهداه، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وجماع القول في بيان فريق الهداية هو ماجاء صريحا في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [محمد: ١ - ٢]، فالصلاح بالإيمان بشرع الله ووحيه وإتباع نبينا محمد ﷺ، ولزوم الإسلام، والفساد والضلال في الكفر بنبينا محمد ﷺ والصد عن سبيل الله بالحريات المذمومة.

فتدبّر أيها المسلم هذه الآية حق التدبّر، وتدبّر مآلات أهواء وحريات الكافرين والضالين الغير معتصمين بالوحي فهي كما قال الله عز وجل: ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة».

أما أعمال المؤمنين بالله ورسوله محمد ﷺ فهي صالحة في نفسها لأن الله لا يأمر إلا بالعدل والقسط وكل خير وهي سبب صلاح الدنيا، فآثار الإيمان والإسلام صلاح، وآثار الكفر والحريات المذمومة فساد وشر.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ(٢): «﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾، أي: أصلح دينهم ودنياهم وقلوبهم وأعمالهم، وأصلح ثوابهم بتنميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم.

والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الحق وهو الصدق واليقين وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم الصادر من ربهم الذي ربّاهم بنعمته ودبّرهم بلطفه، فربّاهم تعالى بالحق، فاتبعوه، فصلحت أمورهم، فلما كانت الغاية المقصودة لهم متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باق ثوابها، ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾ [محمد: ٣]، حيث بيّن لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٩٣٢
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٩٣٣

صفة يعرفون بها ويتميزون، ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيا من حي عن بيّنة».

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[١]: «فإن الإنسان قد يقول كلمة لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا، والعياذ بالله أي: سبعين سنة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟»، قلت: بلى يارسول الله!

فأخذ بلسان نفسه، وقال: «كف عليك هذا،قلت: يارسول الله! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ يعني هل نؤاخذ بالكلام؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوهم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»».



(١) شرح رياض الصالحين (٣/ ٥٦٧)



قبح الحرية المذمومة دلّ عليه العقل والفطرة والشرع

الحريات المذمومة من الكفر والشرك والفواحش والكلام المحرم هي في نفسها قبيحة، بل في غاية القبح، فمن يأذن بفعلها بداعى الحرية فهذا مخالف لما توافق الشرع والعقل والفطرة على تحريمه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۝٢٨﴾ [الأعراف: ٢٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «أي: لا يأمر بما هو فاحشة في العقول والفطر، ولو كان إنما علم كونه فاحشة بالنهي، وأنه لا معنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهي به، لصار معنى الكلام: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه، وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء، فضلا عن كلام العزيز الحكيم، وأي فائدة في قوله: إن الله لا يأمر بما ينهى عنه؟!

فإنه ليس لمعنى كونه فاحشة عندهم إلا أنه منهي عنه، لا أن العقول تستفحشه.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۝٢٩﴾ [الأعراف: ٢٩]، والقسط عندهم: هو المأمور به، لا أنه قسط في نفسه، فحقيقة الكلام: قل أمر ربي بما أمر به.

ثم قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۝٣٣﴾ [الأعراف: ٣٣]، ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها، وليست فواحش قبل ذلك، لكان حاصل الكلام: قل إنما حرم ربي ما حرم، وكذلك تحريم الإثم

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٤-١٩٥)

والبغي، فكون ذلك فاحشة وإثما وبغيا بمنزلة كون الشرك شركا، فهو شرك في نفسه قبل النهي وبعده.

فمن قال: إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهي، فهو بمنزلة من يقول: الشرك إنما صار شركا بعد النهي، وليس شركا قبل ذلك.

ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة، فالظلم ظلم في نفسه قبل النهي وبعده، والقبيح قبيح في نفسه قبل النهي وبعده، والفاحشة كذلك، وكذلك الشرك، لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك.

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحا إلى قبحها، فكان قبحها من ذاتها، وازدادت قبحا عند العقل بنهي الرب تعالى عنها، وذمّه لها، وإخباره ببغضها وبغض فاعلها، كما أن العدل والصدق والتوحيد، ومقابلة نعم المنعم بالثناء والشكر: حسن في نفسه، وازداد حسنا إلى حسنه بأمر الرب به، وثنائه على فاعله، وإخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله.

بل من أعلام نبوة محمد ﷺ أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث.

فلو كان كونه معروفا ومنكرا وخبيثا وطيبا إنما هو لتعلق الأمر والنهي والحل والتحريم به، لكنّا بمنزلة أن يقال: يأمرهم بما يأمرهم به، وينهاهم عما ينهاهم عنه، ويحل لهم ما يحل لهم، ويحرّم عليهم ما يحرم عليهم!

وأي فائدة في هذا؟ وأي علم يبقى فيه لنبوته؟

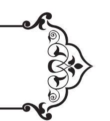
وكلام الله يصان عن ذلك، وأن يظن به ذلك، وإنما المدح والثناء والعلم الدال على نبوته: أن ما يأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنه وكونه معروفا، وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكرا، وما يحله تشهد كونه طيّبا، وما يحرمه تشهد كونه خبيثا، وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم وهي بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين، والكذابين والسحرة، فإنهم يدعون إلى مايوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر وبغي وإثم وظلم».

وقال ابن القيم أيضا رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «وكذلك قوله: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [ص: ٢٨]، وهذا استفهام إنكار، فدل على أن هذا قبيح في نفسه منكر تنكره العقول والفطر، أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه، وأنه لا يليق بالله نسبته إليه.

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به في إلهته، وعبادة غيره معه بما ضربه لهم من الأمثال، وأقام على بطلانه من الأدلة العقلية، ولو كان إنما قبح بالشرع لم يكن لتلك الأدلة والأمثال معنى».



(١) مدارج السالكين (١/ ١٩٧)

الحريات المذمومة سيئات تسوء أصحابها

الحريـات المذمومة من الإعتقادات الباطلة والأقـوال الضالة والأفعال المحرمـة سـيئات لا تسـر، لا يبيحهـا عاقل، بل لـو قيل لطارق السـويدان الـذي يدعو لأن يقول الناس ما شـاءوا، «أنت سـيء»، لأبي ذلك، فكذلك ما حرمه الله من الاعتقادات والأقوال والأفعال سـيئات في نفسها، وتسوء أصحابها.

قال تعالـى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النسـاء: ١١٠]، قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «إن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، **وسمي سوءا لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئا غير حسن**، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسـوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأموالهم، وأعراضهم، ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس ظلما، لأن نفس العبد ليسـت ملكا له يتصرف فيها بما يشـاء، وإنما هـي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانةً عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل بإلزامها للصراط المسـتقيم علما وعملا، فيسـعى في تعليمها ما أمر

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٠٦

بـه، ويسـعى في العمل بما يجب، فسـعيه فـي غير هذا الطريق ظلم لنفسـه وخيانة وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور والظلم».

والله عز وجل نعـت المنهيات المحرمات بالسـيئات زجـرا عنها، قال تعالـى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: ٣١ - ٣٩]، فـكل ما ذكره الله من المحرمات سيئات مكروهة عند الله وتسوء أصحابها.

قال شـيخنا العلامـة محمـد العثيميـن رحمه الله[١]: «﴿كُلُّ ذَٰلِكَ﴾، المذكور الـذي نهى الله عنـه فيما تقدم من قولـه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾، والنهي عن عقـوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، أي: كل ذلك يسوء العاملين، ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه».

---

(١) الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٧/ ٧٠)

وتأمل كيف نعت الله ما نهى عنه من المحرمات وما أمر به من الواجبات بالحكمة كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾ [الإسراء: ٣١ - ٣٩]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «يقول تعالى: هذا الذي أمرناك به من الأخلاق الجميلة، ونهيناك عنه من الصفات الرذيلة، مما أوحينا إليك يا محمد لتأمر به الناس».



(١) تفسير القرآن العظيم ص٨٠٠



ضال يدعو إلى ضلالة

من يرخص للناس في أن يعتقدوا ما شاءوا من الكفر والضلالات وقول الباطل بدعوى الحرية فهو ضال مضل للخلق، فالله عز وجل نعت الكفر بالضلال، وهو كذلك، فالشرك وقول الباطل وعمل السوء قبحه ينادي عليه بالضلال، قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦].

فالكفر ضلال بعيد ولا يرخص فيه إلا من هو من أضل خلق الله، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدي المستقيم وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟!».

فالذي يرخّص للناس بأن يقولوا ما شاءوا ويعتقدوا ما شاءوا ولو كان كفرا بدعوى الحرية لاشك في غوايته وغواية من اغترّ به، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [القصص: ٦٢ - ٦٣]، قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[٢]: «لما كان هذا السؤال مسكتا لهم مبهتا، فكأنه لا متعلق لجمهور الكفرة إلا بالمغوين لهم والأعيان، الرءوس منهم، وبالشياطين المغوين، فكأن هذه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢١٦

(٢) المحرر الوجيز (١٢/ ١٧٩)

الصنيفـة المغوية إنما أتت الكفرة على علـم، فالقول عليها متحقق، وكلمة العـذاب ماضيـة، لكنهم طمعـوا في التبري مـن كل أولئك الكفـرة الأتباع فقالوا: ربنا هؤلاء إنما أضللناهم كما ضللنا نحن باجتهاد لنا ولهم».





الكون ملك الله ضبطه بقانونه الإلهي لا حرية للبشر في إفساده

الله ربنا العلي العظيم خلق الأرض وهو مالكها ومالك يوم الدين، وكل مخلوق مربوب لرب العالمين لا يخرج عن ملك الله وتقديره، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، والله عز وجل هو الذي استخلف خلقه في الأرض، وجعل لهم شرعا[1] يساسون به، وبذلك تنتظم مصالحهم ويحصل بذلك مقصود استخلاف الخليقة.

أما الدعوة إلى أن يتصرف الخلق في الأرض بأهوائهم وحرياتهم فهذا إفساد لهذا الكون، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦ و ٨٥]، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله[2]: «قوله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، يعني: بالكفر والمعاصي وسفك الدماء، ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾، يعني: بعد إصلاح الله إياها بإرسال الأنبياء وبيان الشرائع، هذا قول جمهور المفسرين».

والقرآن مليء من الأمر بالإصلاح والنهي عن الفساد، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ

---

(١) ولا نسميه قانونا حتى لا نضاهي أحكام الله العادلة بأحكام المخلوقين الجائرة.
(٢) رموز الكنوز (٢/ ١٥٦)

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٥]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

فإطلق العنان لأهل الأرض بالفساد في الأقوال والأفعال هو سعي في إفساد المعمورة وتخريبها، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤١﴾ [الروم: ٤١]، وهؤلاء الكافرون سعى كثير منهم في صيانة الأرض عن الفساد البيئي ليهنأوا بعيشهم في هذه الدنيا، ولكنهم ملأوها بالفساد بالكفر والمعاصي الموجب للهلاك، ونبينا ﷺ لما سئل «أنهلك وفينا الصالحون، قال: نعم، إذا كثر الخبث[1]».



(١) رواه البخاري كتاب الفتن باب قول النبي ﷺ ويل للعرب من شر قد اقترب (ص ١٢١٨ - رقم ٧٠٥٩)، ومسلم كتاب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج (ص ١٢٤٦ - رقم ٧٢٣٧) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها



الحرية الباطلة عدوان على المجتمع والأفراد يجب منعه

اللـه عز وجل حفـظ المجتمع والأفراد مما يوجـب المضارة به، فكلمة الباطـل والضـلال وقالـة السـوء والمبتدعـات عـدوان على محـارم الله، وعدوان على خلق الله، وعدوان على المجتمع، قال نبينا محمد ﷺ «ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه»[1].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله[2]: «الله عز وجل أحاط الشريعة بسياج محكم، حمى كل شيء محرم يضر الناس في دينهم ودنياهم، حماه، وإذا كان الشيء مما تدعو النفوس إليه شدد السياج حوله إذا كان مما تدعو النفوس إليه، فإنه يشدد السياج حوله».

ولذلـك نعت اللـه الكافرين بالظالمين، قـال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤ ﴾[البقرة: ٢٥٤]، ونامـوس الدنيـا كلـه قوامه التوحيـد والعدل، وأعظـم الظلم الشـرك، قال تعالـى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾[لقمان: ١٣]، فكيـف إذا إنضـاف إلـى ذلـك الإباحيـة وأنـواع الحريـات المحرمـة المذمومة.

***

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه (ص ١٢ - رقم ٥٢)، ومسلم كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات (ص ٦٩٨ - رقم ٤٠٩٤)

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٩٥)



المعروف ما أقرته الشريعة والمنكر ما أنكرته

فطر الله عباده على معرفة ما ينفعهم ومحاذرة ما يضرهم، ولذلك لما قال فرعون لموسى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩﴾ [طه: ٤٩]، أجابه موسى عليه السلام: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: ٥٠].

وكمل الله هذه الفطرة بتشريع مفصل فيه بيان ما يحل وما يحرم على العباد، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢]، فيعجب كل مسلم من جرأة السويدان على القول على الله بغير علم وتقحم أسباب ولوج النار بالإفتراء على الله الكذب، والله يقول: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝٦٩﴾ [يونس: ٦٩].

فقول السويدان اعبدوا ما شئتم، قولوا ما شئتم بدعوى الحرية من أعظم الكذب والإفتراء على الله، وهذا كله من اتباع خطوات الشيطان التي يسوق بها عبيده إلى الكفر والشرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إن للملك لمّة وللشيطان لمّة، فلمّة الملك: إيعاد بالخير وتصديق بالحق، ولمّة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالحق»، وهذا الكلام الذي قاله ابن

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٣١-٣٢)

مسعود رضي الله عنه هو محفوظ عنه، وربما رفعه بعضهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، هو كلام جامع لأصول ما يكون من العبد من علم وعمل، من شعور وإرادة.

وذلك أن العبد له قوة الشعور والإحساس والإدراك، وقوة الإرادة والحركة، وإحداهما أصل الثانية مستلزمة لها، والثانية مستلزمة للأولى ومكملة لها.

فهو بالأولى يصدق بالحق ويكذب بالباطل، وبالثانية يحب النافع الملائم له، ويبغض الضار المنافي له.

والله سبحانه خلق عباده على الفطرة التي فيها معرفة الحق والتصديق به، ومعرفة الباطل والتكذيب به، ومعرفة النافع الملائم والمحبة له، ومعرفة الضار المنافي المبغض له بالفطرة. فما كان حقا موجودا صدقت به الفطرة، وما كان حقا نافعا عرفته الفطرة فأحبته وأطمأنت إليه، وذلك هو المعروف، وما كان باطلا معدوما كذبت به الفطرة فأبغضته الفطرة فأنكرته، قال تعالى: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧].

والإنسان كما سماه النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أصدق الأسماء حارث وهمام»، فهو دائما يهم ويعمل، لكنه لا يعمل إلا ما يرجو نفعه أو دفع مضرته».

***



مقتضى الإيمان قول الخير والصمت عن الباطل

من عجائب الأمور ما تفوه به من ينسب نفسه إلى الدعوة إلى الله حيث رخّص للناس أن يقولوا ما شاءوا، ويعتقدوا ما شاءوا بدعوى الحرية، فهذا من أعظم أسباب الشرور، وانحراف الخلق، وفساد شؤونهم الدينية والدنيوية، فالله عز وجل أمر بالقول السديد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠]، ونهى الله عبيده عن الكلام الممنوع وأعظمه ما تضمن الشرك والضلال، قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ٥﴾ [الكهف: ٤ - ٥].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ٥٣﴾ [الإسراء: ٥٣]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما، **والقول الحسن داع لكل خلق جميل وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره**».

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٢٩

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا، أو ليصمت»(١) قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله(٢): «فقوله صلى الله عليه وسلم: «فليقل خيرا أو ليصمت»، أمر بقول الخير، وبالصمت عما عداه، وهذا يدل على أنه ليس هناك كلام يستوي قوله والصمت عنه، بل إما أن يكون خيرا، فيكون مأمورا بقوله، وإما أن يكون غير خير، فيكون مأمورا بالصمت عنه».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(٣): «وجماع الأمر في الكلام قوله صلى الله عليه وسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»، فقول الخير وهو الواجب أو المستحب خير من السكوت عنه، وماليس بواجب ولا مستحب فالسكوت لنفسه».

وقال أيضا رحمه الله(٤): «فأمر المؤمن بأحد أمرين: إما قول الخير أو الصمت، ولهذا كان قول الخير خيرا من السكوت عنه، والسكوت عن الشر خيرا من قوله»

---

(١) رواه البخاري كتاب الأدب باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فال يؤذ جاره (ص ١٠٥٢ – رقم ٦٠١٨)، ومسلم كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت (ص٤١ – رقم ١٧٣)

(٢) جامع العلوم والحكم ص١٦١

(٣) مجموع الفتاوى (٢٥/ ٢٩٣)

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٩)

وقـال أبـو الوفاء ابن عقيل الحنبلي رحمه الله[1]: «ويسـتحب ضبط الألسـنة وحفظها، والإقلال من الكلام إلا فيما يعني ولابد فيه، وأفضل من الصمت إجراء الألسنة بما فيه النفع لغيره، والانتفاع لنفسه مثل قوله القرآن، وتدريس العلـم وذكر الله تعالى، والأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس».



(١) فصول الآداب ومكارم الأخلاق ص٥٤



الحريات المذمومة تسلب الأبدان أرواحها الحقيقية

فرّق الله سبحانه بين حياة المؤمنين وحياة البهائم فأنزل الله كتبه وأرسل رسله للبشرية لتزكو نفوسهم وتسمى أرواحهم فيحيوا حياة طيبة يستضيئون فيهابنور الوحي وشريعة القرآن، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

فالعقل والإدارك الذي جعله الله في بني آدم، وكان موجبا للتكليف هو الذي جعل المؤمنين يستضيئون بنور الوحي، ويتحاشون عن أن يعيشوا حياة يأكلون فيها ويتمتعون ويلهون بلا هدى ولا كتاب منير، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾ [محمد: ١٢].

قال ابن القيم رحمه الله مبينا أثر لزوم الوحي ومجانبة الهوى[(١)]: «وهو بعد مخالفة الهوى- تنسم روح الأنس بالله، والروح للروح، كالروح للبدن، فهو روحها وراحتها، وإنما حصل له هذا الروح لمّا أعرض عن هواه،

(١) مدارج السالكين (٢/ ٢٨)

فحينئذ تنسم روح الأنس بالله، ووجد راحته، إذ النفس لابد لها من التعلق، فلما انقطع تعلقها من هواها وجدت روح الأنس بالله، وهبت عليه نسماته، فريحتها وأحيتها».

فأرواح الكافرين في وحشة، كلما ضاقت نفوسهم سارعوا إلى ركوب أهوائهم واتباع شهواتهم وانغمسوا في حرياتهم المذمومة، فتحصل لهم مسرة محدودة ثم تعود الوحشة، ولا يزيل هذه الوحشة إلا الإيمان بالله ولزوم ذكره.

والإنسان لا يترك المحبوبات من التوحيد والطاعات التي هي سبب الساعدة في الدارين إلى الشرك والمحرمات التي هي شقاء في الدارين إلا لغبنه لعقله وبيعه للجوهر النفيس بالبَعْر الخسيس.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «فالعبد في حال معصيته واشتغاله عنه بشهوته ولذّته، تكون تلك اللذة والحلاوة الإيمانية قد استترت عنه، وتوارت، أو نقصت، أو ذهبت، فإنها لو كانت موجودة كاملة، لما قدّم عليها لذّةً وشهوةً، لا نسبة بينها وبينها بوجه ما، بل هي أدق من حبّة خردل بالنسبة إلى الدنيا وما فيها.

ولهذا قال النبي : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ٩٣٤)

السارق وهو يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، فإن ذوق حقيقة الإيمان ومباشرته لقلبه يمنعه من أن يؤثر عليه ذلك القَدْرُ الخسيس، وينهاه عمّا يُشَعّثه وينقُصُه.

ولهذا تجد العبد - إذا كان مخلصا - منيبا لله، مطمئنا بذكره، مشتاقا إلى لقائه، قلبه منصرفا عن هذه المحرمات، لا يلتفت إليها، ولا يُعوّل عليها، ويرى استبداله بها عَمّا هو فيه كاستبداله البَعْر الخسيس بالجوهر النفيس، وبيعه الذهب بأعقاب الجَزر، وبيعه المسك بالرّجيع».





الذي نهى عن الكلام المحتمل للباطل لا يأذن بالكلمة المتمحضة في الباطل

لا يخفى على من له أدنى معرفة أن الشريعة جاءت بالنهي عن قول الكلام المحتمل الباطل، وهو دال بلا ريب على تحريم التكلم بالكلام المتمحض في الباطل، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا وَٱسۡمَعُواْۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [البقرة: ١٠٤].

قال العلامة محمد بن علي الشوكاني رحمه الله[١]: «وفي ذلك دليل على أنه ينبغي تجنب الألفاظ المحتملة للسب والنقص وإن لم يقصد المتكلم بها ذلك المعنى المفيد للشتم سدا للذريعة، ودفعا للوسيلة، وقطعا للمادة المفسدة والتطرق إليه».

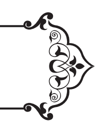
وقال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[٢]: «كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول صلى الله عليه وسلم عن تعلمهم أمر الدين: ﴿رَٰعِنَا﴾؛ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدا، فانتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب واستعمال الألفاظ

(١) فتح القدير (١/ ١٢٤)

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٥٥

التي لا تحتمل إلا الحسن وعدم الفحش وترك الألفاظ القبيحة أو التي فيها نوع تشويش واحتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا الحسن، فقال: ﴿وَقُولُواْ ٱنظُرۡنَا﴾، فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور».



الخلق مؤمنهم وكافرهم كلهم مسؤولون

الخلق كلهم محاسبون مسؤولون يوم القيامة برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، لا يستثنى من ذلك أحد حتى يرخص له في أن يقول ما شاء ويعتقد ما شاء، قال تعالى: ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: ٢٢ - ٢٤].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١): «أي قفوهم حتى يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا».

فالذي يرخص في الكفر والشرك بدعوى الحرية سيسأله الله ويحاسبه ويعاقبه على ذلك أشد العذاب، قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلۡعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ شُرَكَآءَهُمۡ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدۡعُواْ مِن دُونِكَۖ فَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلَ إِنَّكُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوۡمَئِذٍ ٱلسَّلَمَۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [النحل: ٨٤ - ٨٧]، قال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله(٢): «﴿وَيَوۡمَ نَبۡعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا ثُمَّ لَا يُؤۡذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الاعتذار، لأنهم لا عذرلهم».

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص١١٥٤

(٢) رموز الكنوز (٤/ ٧٧)

فـلا حرية لأحد أن يقول ما شـاء ويعبد ما شـاء، قـال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسئول عما قاله وفعله وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته أن يعد للسؤال جوابا، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله وإخلاص الدين له وكفها عما يكرهه الله تعالى».



(١) الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٧/ ٧٠)



الشارع نهى عن السماع المحرم

الله عز وجل نهى خلقه عن الاستماع للكلام الباطل، وذلك لحمية أسماعهم وقلوبهم عن كلام السوء الذي يفسد الأديان والأبدان، قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء: ١٤٠]، فاذا نهى الله عن قول الضلالة إبتداءً وعن سماعه فمن أين تأتي الحرية أن يقول الناس ما شاءوا بدعوى الحرية؟!!

وقد بيّن الله الحكمة في النهي عن القول المحرم والاستماع له، فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة: ٩١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «فبيّن فيه العلتين: إحداهما: حصول مفسدة العداوة الظاهرة والبغضاء الباطنة.

والثانية: **المنع من المصلحة التي هي رأس السعادة، وهي ذكر الله والصلاة، فيصد عن المأمور به إيجابا أو استحبابا.**

وبهذا المعنى عللوا أيضا كراهة أنواع الميسر من الشطرنج ونحوه، فإنه يورث هذه المفسدة ويصد عن المأمور به، وكذلك الغناء فإنه يورث

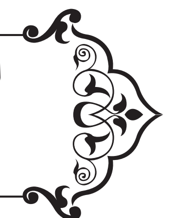
(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٩٤-١٩٥)

القلب نفاقا ويدعو إلى الزنى، ويصد القلب عن ما أمر به من العلم النافع والعمل الصالح، فيدعو إلى السيئات وينهى عن الحسنات، مع أنه لا فائدة فيه، والمستثنى منه عارضه ما أزال مفسدته كنظائره».

وقال الإمام الشافعي رحمه الله(١): «وفرض الله على «السمع» أن يتنزه عن الاستماع إلى ما حرم الله، وأن يغضى عما نهى الله عنه، فقال في ذلك: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴿١٤٠﴾﴾ [النساء: ١٤٠]، ثم استثنى موضع النسيان، فقال جل وعز: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، أي: فقعدت معهم ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٧ - ١٨]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [المؤمنون: ١ - ٤]، وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢]، فذلك ما فرض الله، جل ذكره، على السمع من التنزيه عما لا يحل له، وهو عمله، وهو من الإيمان».

***

(١) مناقب الشافعي للبيهقي (١/ ٣٩٠)

الصاد عن سبيل الله يضاعف له العذاب لا حرية له في إضلال الخلق

أعمال الكافرين ومن يستحسن ضلالهم من سوء اعتقاداتهم ومقالاتهم وفواحشهم وموبقاتهم وشركياتهم تنادي بالدعوة إليها، فالحريات عندهم مصانة، وهذا بلاريب يختطف ضعاف العقول، وأسرى الشهوات، فهؤلاء بلاريب في دين الله ممنوعون من الصد عن سبيل الله، وعذابهم يضاعف لهم بسبب صدهم عن سبيل الله، لا يقال لهم إفعلوا ما شئتم واعتقدوا وقولوا ما شئتم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «أي: عذابا على كفرهم، وعذابا على صدهم الناس عن اتباع الحق».

وقال الحافظ عبدالرزاق الرسعني رحمه الله[٢]: «﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا﴾، مضاعفا عليهم بسبب ضلالهم وإضلالهم، ﴿فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ المعد لأهل الضلال ﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ في الدنيا بالكفر والفجور والصد عن سبيل الله».

---

(١) تفسير القرآن العظيم ص٧٦٧
(٢) رموز الكنوز (٤/ ٧٩)

وقـال العلامة عبدالرحمن السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «صدوا الناس عن سـبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاسـتحقوا مضاعفة العذاب كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في الأرض».

❊ ❊ ❊

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥١٢



الحكمة بغية العاقلين والسفه شأن التائهين

شأن المسلم طلب الحكمة، ولذلك مدح الله الحكمة فقال سبحانه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وما من نبي إلا بعث بالحكمة، قال تعالى: عن نبينا محمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى: عن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨].

وانظر كيف أثنى الله على من أخذ بمجامع الحكمة كلقمان عليه السلام، ثم تأمل فيما ذكره الله عنه من الحكمة التي أنطقه الله بها وهي صحة الإعتقاد في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، والسداد في الأقوال والأفعال وصيانة المجتمعات عن الحريات المذمومة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٧ - ١٩]، فالحكمة التي يعرفها كل العقلاء حسن الاعتقاد وسداد

الأقوال والأفعال، أما دعوة السويدان أن يقول الناس ما شاءوا ويعتقدوا ما شـاءوا فهو والله السـفه الذي لا يختاره أو يأذن فيه إلا المبطلون الضالون الجاهلون المفسدون.

فـلا حرية في ضلال الأقوال والأفعال والاعتقادات، بل الواجب النطق بالحـق والصواب واعتقـاد التوحيد، قال ابن القيـم رحمه الله[1]: «الحكمة إذاً: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي.

والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه، فالرجل الكامل: من له إرث كامل مـن أبيـه، ونصف الرجل - كالمرأة له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى.

وأكمـل الخلـق في هذا الرسـل صلوات الله وسـلامه عليهم، وأكملهم أولوا العزم، وأكملهم محمد ﷺ، ولهذا امتنّ سبحانه وتعالى عليه، وعلى أمتـه بمـا آتاهم مـن الحكمة، كما قـال تعالـى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣]، وقـال تعالـى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾ البقرة: ١٥١.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٥)

فكل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة، وكل خلل في الوجود، وفي العبد فسببه: الإخلال بها، فأكمل الناس: أوفرهم منها نصيبا، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال: أقلهم منها ميراثا».





الحرية للأقوال الباطلة مناقضة للحق

لا يجوز لنا الإذن لأهل الضلال بترويج ضلالهم بدعوى الحرية، فدعاة الضلال يضادون الحق ويحاربونه بلاريب، فهم ماضون في إقامة بنيان باطلهم وتشييد أركانه، ومن ثمَّ تعميمه والسعي في رد الحق الذي يبيّن زيف الباطل وانحراف الضلال، فواجب المصلحين والناصحين منع الأقوال الباطلة من مزاحمة الحق والتشويش عليه.

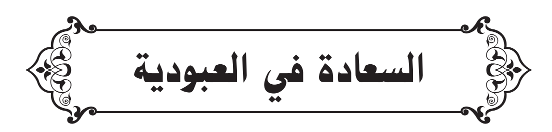
قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «البدع الإعتقادية والعملية تتضمن ترك الحق المشروع الذي يصد عنه من الكلم الطيب والعمل الصالح، إما بالشغل عنه، وإما بالمناقضة، وتتضمن أيضا حصول ما فيها من مفسدة الباطل اعتقادا وعملا».

فالمرخص للضلال ساع في إفساد عقائد الإسلام ونور الوحي وهدي الحق، وساع في إضعاف الإسلام والمسلمين، وموهن عقائد وأخلاق المسلمين، والعقائد والأخلاق متلازمتان، فصحيح الاعتقاد يهدي إلى أقوم الأخلاق، والفواحش سببها الشرك وفساد العقيدة، فلذلك تجد بلاد الحريات في العقيدة وبلاد البدع المكفرة تموج بالفواحش والمنكرات، بل وتفاخر بالإعلان بها بدعوى الحرية، قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله[٢]: «قلّ من تجد في اعتقاده فسادا إلا وهو يظهر في عمله».

***

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٩٥)

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٢١)



السعادة في العبودية

هؤلاء الضالون أصحاب الحريات المذمومة إنما يركبون أنواع الضلالات والفواحش والشركيات إبتغاء إسعاد أنفسهم، ولا سعادة إلا في العبودية لله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «من أراد السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية».

وما قاله شيخ الإسلام رحمه الله حق وصدق، وهذا يجده المؤمنون عباد الرحمن حقا، ودلالالته في القرآن واضحة فإن الله إذا ذكر تكاليفه لعباده وأوامره ونواهيه ذكر أنها نعمة ورحمة، كما في آية التيمم، قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: ٦]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله في فوائد الآية[٢]: «**إن هذه الأحكام التي شرعها الله لعباده إنما ذلك رحمة منه بعباده ليقوموا بالعبادات التي تتوقف سعادتهم وفلاحهم عليها، وأنه يريد إتمام نعمته عليهم بالأوامر الشرعية التي لا مشقة فيها ولا حرج لينالوا الفضل العظيم من ربهم، فمنّة التفضل على عباده بالسبب والمسبّب**».

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٧)

(٢) تيسير اللطيف المنان ص٥٥

والخارجون عن تكاليف الشريعة بدعوى الحرية هم في الحقيقة أسرى شهواتهم وضلالاتهم وبدعهم وأهوائهم، يستنكف أحدهم أن يكون عبدا لله، ولا يستنكف أن يكون عبدا للشيطان، كما قال ابن القيم رحمه الله:

هربوا من الرق الذي خلقوا له وبلوا برق النفس والشيطان

وعبودية الله عزّ ورفعة وحسن عاقبة، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]، وأما عبودية الشيطان فذل وهوان، كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وجعل الذل والصغار على خالف أمري»، علقه البخارى ورواه أحمد مسندا. فعبودية الله سعادة ويسر وسهولة، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: (﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾ [طه: ١ - ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [النمل: ٧٧].

وأهل الإيمان وأهل طاعة الله قريبون من رحمة الله وإحسانه لتحققهم بعبودية الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ البقرة: ١٩٥.

وأهل الحريات المذمومة يغدون في سخط الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف: ٥٥].

فحياة عباد الرحمن في الدنيا حياة طيّبة وفي الآخرة أطيب وأسعد، قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]، وأما الكفار فهم في تعاسة وشقاء وضنك وحرج كما أخبر الله عنهم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام: ١٢٥، وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه: ١٢٤ - ١٢٦].





الصاد عن سبيل الله ملعون غير مأذون له في حرية ضالة

نعت الله الصادين عن سبيل الله بالظالمين، وما ذاك إلا لأنهم جهدوا أنفسهم في ضلال الخلق، وفوق هذا طردهم الله من رحمته ولعنهم، وهذا من أوضح الأدلة على منع المبطل من نشر باطله في الخلق، فكيف يرّخص لهم بعد كل هذا الوعيد بدعوى الحرية؟!!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود: ١٨ – ٢٢].

وقال النبي ﷺ «لعن الله من آوى محدثا»[(١)]، وهذا من أوضح الأدلة كذلك على وجوب منع أهل الضلال من نشر باطلهم

(١) رواه مسلم كتاب الأضاحي باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (ص ٨٨٣ – رقم ٥١٢٤)

بدعـوى الحرية، ومنع أن يكـون للضلال حزب وكيان يشـيع ضلاله فـي الخلـق لأن ضلالهم يعـود على الناس بالفسـاد فـي اعتقاداتهم، وأقوالهـم، وأعمالهـم وأخلاقهم، ويوجب لهم سـوء العاقبة في دار القـرار.





شريعة الإسلام لازمة للكافرين

النبي ﷺ بُعث للناس كافة، وشريعته لازمة للعرب والعجم، والأحمر والأبيض، والإنس والجن، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ: ٢٨]، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١): «يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، أي: إلى جميع الخلائق من المكلفين كقوله تبارك وتعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾، أي تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾، كقوله عز وجل: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، ﴿ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأنعام: ١١٦].

قال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾، يعني: إلى الناس عامة، وقال قتادة في هذه الآية: أرسل الله تعالى محمدا ﷺ إلى العرب والعجم، فأكرمهم على الله تبارك وتعالى أطوعهم لله عز وجل، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو عبدالله الظهراني حدثنا حفص ابن عمر العدني حدثنا الحكم يعني ابن أبان عن عكرمة قال: سمعت ابن

(١) تفسير القرآن العظيم ص١١٢٣

عباس رضي الله عنهما يقول: إن الله تعالى فضّل محمدا صلى الله عليه وسلم على أهل السماء وعلى الأنبياء، قالوا: يا ابن عباس!! فبم فضّله على الأنبياء؟ قال رضي الله عنه: إن الله تعالى قال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ٤﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾، فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس.

وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحدمن الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»، وفي الصحيح أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بعثت إلى الأسود والأحمر»، قال مجاهد: يعني الجن والإنس، وقال غيره: يعني العرب والعجم، والكل صحيح».

ومن أوضح الأدلة على أن شريعة الإسلام لازمة للكفار حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة من يهودي أو نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»[1].

---

(١) رواه مسلم كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (ص ٧٧ - رقم ٣٨٦)

وتأمل حكمة الله في إرسال نبينا محمد ﷺ إلى أم القرى مكة المكرمة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص: ٥٩].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[١]: «فجعل تعالى بعثة النبي الأمي ﷺ شاملة لجميع القرى، لأنه مبعوث إلى أمها وأصلها التي ترجع إليها».

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠].

قال أبو محمد ابن عطية الأندلسي رحمه الله[٢]: «فكأنه قال أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف، وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فطر البشر، لكن تعرضهم العوارض، ومنه قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه»، الحديث، فذكر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة، وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾، يحتمل تأويلين: أحدهما: أن يريد بها هذه الفطرة المذكورة، أي: اعلم: أن

(١) تفسير القرآن العظيم ص١٠٣١
(٢) المحرر الوجيز (١٢/ ٢٥٨)

هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق، ولا يجيء الأمر على خلاف هذا بوجه، والآخر: أن يكون قوله: ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ﴾، إنحاء على الكفرة».

ثم قال أبو محمد الأندلسي رحمه الله[١]: «وهذا معناه: لا تبديل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف، فإن كل شريعة هي عقائدها».

وقال أيضا[٢]: «وقيل الفطرة: هو العهد الذي أخذه الله تعالى على ذرية آدم حين أخرجهم نسما من ظهره».

فالناس مفطورون على الإسلام، والله أخذ العهد على بني آدم بعبوديته لا الانسلاخ من شرعه بدعوى الحرية، فالمسلمون ساعون في حفظ الفطرة وتكميلها والوفاء بعهد الله وميثاقه، والضالون المفسدون مرخّصون لإفساد الفطرة وأولها التوحيد، وساعون في نقض عهد الله بعد ميثاقه، والله المستعان.



(١) المحرر الوجيز (١٢/ ٢٥٩)
(٢) المحرر الوجيز (١٢/ ٢٥٩)



الله عز وجل ألزم المؤمن والكافر كلمة التقوى

الترخيص للناس بأن يقولوا ما شاءوا ولو كان كفرا وضلالا، وأن يعتقدوا ماشاءوا شطط من القول، فالله عز وجل لا يرضى بالكفر ولا يأذن به قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٧]، لكنه سبحانه قضاه كونا ليقوم أهل الإيمان بدعوة الكافرين وهدايتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

والله عز وجل أمر خلقه أجمعين بالإيمان وتحقيق التوحيد، فلا يستثنى أحد من هذه الدعوة حتى يقول السويدان: اعبدوا ما شئتم، كيف شئتم، ما عندي مشكلة!!!

فالأمر بالإيمان بالله وعبوديته يُخاطب به الثقلان جميعا لا يخرج عنه أحد من الإنس والجن حتى يقول السويدان مقالته الشنيعة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

والشيء الذي يجب أن يعقله السويدان وغيره ممن يرخص في أن يتدين الخلق بالكفر والشرك وأن يقولوا ما شاءوا بدعوى الحرية أن هذا انتقاص لقدر الله، وهذا لا يقع من قلب مملوءمن تحقيق التوحيد لله، فإن صرف حق الله لغيره من أعظم الظلم.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

والشـيء الآخر الذي يجب أن يعقله السـويدان أن الشرك والاعتقادات والمقالات الباطلة محض جهل وقول على الله بغير علم لا يمكن أن يقوم عليـه دليـل صحيح لا نقلـي ولا عقلي، فكيف يرّخص بهـا بدعوى الحرية التي حري بها أن تسمى باسمها الصحيح الذي يبين حقيقتها «الجاهلية».

فالشـرك والأقـوال الباطلـة والإرادات المذمومةسـببها الجهل والقول علـى الله تعالى بغير علم، قال تعالـى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣].

وقـال تعالـى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الزمر: ٦٤]، قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[1]: «﴿ قُلْ ﴾يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهليـن الذيـن دعـوك إلـى عبـادة غيـر اللـه ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾، أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه مسـدي جميع النعم، هو المستحق العبادة دون من كان ناقصا من كل وجه لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال».

* * *

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٦١



عظة الله في حرية الكافرين زجر عنها

أقام الله العظة فيما أنزله في الكفار من العذاب والمثلات لأنهم خرجوا عن شرع الله وأمره واتبعوا أهوائهم وحرياتهم بغير هدى من الله، وتأمل حكمة الله في إبقاء آثارهم كقوم صالح إلى يومنا هذا وإلي يوم القيامة لينزجر الناس جميعا عن الحريات المهكلة، فهذه ديار الكافرين كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصص: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾﴾ [طه: ١٢٨]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله [١]: «أي: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المكذبين المعرضين ويدلهم على سلوك طريق الرشاد وتجنب طريق الغي والفساد ما أحل الله بالمكذبين قبلهم من القرون الخالية والأمم المتتابعة، الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسمارهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم، كقوم هود وصالح ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم، فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [القمر: ٤٣ - ٤٤]: لا شيء من هذا كله، فليس هؤلاء الكفار خيرا من أولئك

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٥٩٨

حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون: إن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحقر من ذلك، **فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاؤوهم وبطلان ماهم عليه**، ولكن ماكل أحد ينتفع بالآيات، إنما ينتفع بها أولوا النهى، أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي».

والسبب في عدم إتعاظ وإعتبار الكفار مما أصاب الأمم قبلهم أن الله طبع على قلوبهم لأنه سبحانه نبّههم فأعرضوا، قال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** (١٠٠) ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[١]: «يقول تعالى منبّها للأمم الباقين بعد هلاك الأمم الغابرين ﴿ **أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ** ﴾، أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين، أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين، وقوله ﴿ **وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ** ﴾، أي: إذا

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٦

نبّههم الله فلم ينتبهوا، وذكّرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم ويطبع على قلوبهم فيعلوها الران والدنس حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون مابه تقوم الحجة عليهم».

والكفار ومن غمر قلبه هوى الحريات المذمومة ران على قلوبهم الكفر والشرك والفواحش فقست قلوبهم عن أخذ العظة بما جرى لأهل الحريات المذمومة من العقوبات الإلهية.

قال ابن القيم رحمه الله[1]: «فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب، إذا أريد به الخير، وإن أريد به غير ذلك فقلبه في واد آخر.

ومتى انفتح هذا الباب للعبد: انتفع بمطالعة تاريخ العالم، وأحوال الأمم، وما جريات الخلق، بل انتفع بما جريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس، وفهم حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴿٣٣﴾ ﴾[الرعد: ٣٣]، وقوله: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾[آل عمران: ١٨]، فكل ما تراه في الوجود - من شر وألم وعقوبة وجدب، ونقص في نفسك وفي غيرك - فهو من قيام الرب تعالى بالقسط، وهو عدل الله وقسطه، وإن أجراه على يد ظالم، فالمسلط له أعدل العادلين، كما قال تعالى: لمن أفسد

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٤٢)

فـي الأرض ﴿ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ﴿٥﴾ ﴾ [الإسراء: ٥].

فالذنـوب مثل السـموم مضرة بالـذات، فإن تداركها من سـقى بالأدوية المقاومة لها، وإلاقهرت القوة الإيمانية، وكان الهلاك».





الأقوال والأفكار الباطلة أساس كل شر

الترخيص بأن يقول الناس ما شاءوا بدعوى الحرية محض ضلال، فالكلام الباطل أساس كل شر، وهدم لكل خير وفضيلة.

قال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(١): «كلمة الكفر وفروعها، فقال: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ المأكل والمطعم، وهي شجرة الحنظل ونحوها. ﴿ٱجْتُثَّتْ ﴾: هذه الشجرة ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾، أي: من ثبوت، فلا عروق تمسكها، ولا ثمرة صالحة تنتجها، بل إن وجد فيها ثمرة، فهي ثمرة خبيثة، كذلك كلمة الكفر والمعاصي، ليس لها ثبوت نافع في القلب، ولا تثمر إلا كل قول خبيث وعمل خبيث يستضر به صاحبه، ولا ينتفع، ولا يصعد إلى الله منه عمل صالح، ولا ينفع نفسه، ولا ينتفع به غيره».

ودعاة الحريات المذمومة هم دعاة طحن التبن يريدون إفساد عجين الناس وجيّد حبوبهم، قال ابن القيم رحمه الله(٢): «وقد خلق الله سبحانه

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٤

(٢) الفوائد ص٢٥٤-٢٥٦

النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه، فإذا وضع فيها حب طحنتة، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنته، فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لابدّ لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حبا يخرج دقيقا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملاً وحصى وتبناً، ونحو ذلك، فإذا جاء وقت العجن والخبز تبيّن له حقيقة طحينه.

فإذا دفعت الخاطر الوارد عليك اندفع عنك ما بعده، وإن قبلته صار فكرا جوالا، فاستخدَم الإرادة، فتساعد هي والفكر على استخدام الجوارح، فإن تعذر استخدامها رجعا إلى القلب بالمُنى والشهوة وتوجهه إلى جهة المراد.

ومن المعلوم أن إصلاح الخواطر أسهل من إصلاح الأفكار، وإصلاح الأفكار أسهل من إصلاح الإرادات، وإصلاح الإرادات أسهل من تدارك فساد العمل، وتداركه أسهل من قطع العوائد.

فأنفع الدواء أن تشغل نفسك بالفكر فيما يعنيك دون مالا يعنيك، فالفكر فيما لا يعني باب كل شر، ومن فكر فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه، واشتغل عن أنفع الأشياء له بما لا منفعة له فيه.

فالفكر والخواطر والإرادة والهمة أحق شيء بإصلاحه من نفسك، فإن هـذه خاصتك وحقيقتك التي تبتعـد بها أو تقربُ من إلهك ومعبودك الذي لا سعادة لك إلا في قربه ورضاه عنك، وكل الشقاء في بعدك عنه وسخطه عليك.

ومـن كان فـي خواطره ومجالات فكره دنيئا خسيسـا لم يكن في سـائر أمره إلا كذلك.

وإياك أن تمكن الشيطان من بيت أفكارك وإراداتك، فإنه يفسدها عليك فسـادا يصعـب تداركه، ويلقـي إليك أنواع الوسـاوس والأفـكار المضرة، ويحول بينك وبين الفكر فيما ينفعك، وأنت الذي أعنته على نفسك بتمكينه من قلبك وخواطرك فملكها عليك، فمثالك معه مثال صاحب رحى يطحن فيها جيد الحبوب، فأتاه شخص معه حمل تراب وبعر وفحم وغثاء ليطحنه في طاحونه، فإن طرده ولم يمكنه من إلقاء ما معه في الطاحون إستمر على طحـن مـا ينفعـه، وإن مكنّه من إلقـاء ذلك في الطاحون أفسـد مـا فيها من الحب، وخرج الطحين كله كاسدا.

والذي يلقيه الشيطان في النفس لا يخرج عن الفكر فيما كان ودخل في الوجود لو كان على خلاف ذلك، وفيما لم يكن لو كان كيف كان يكون، أو فيما لم يملك الفكر فيه من أنواع الفواحش والحرام، أو في خيالات وهمية

لا حقيقة لها، إما في باطل أو فيما لا سبيل إلى إدراكه من أنواع ما طوى عنه علمه، فيلقيه في تلك الخواطر التي لا يبلغ منها غاية ولا يقف منها على نهاية، فيجعل ذلك مجال فكره ومسرح وهمه.

وجماع إصلاح ذلك: أن تشغل فكرك في باب العلوم والتصورات بمعرفة ما يلزمك من التوحيد وحقوقه، وفي الموت وما بعده إلى دخول الجنة والنار، وفي آفات الأعمال وطرق التحرز منها، وفي باب الإرادات والعزوم أن تشغل نفسك بإرادته، وطرح إرادة ما يضرك إرادته».



الله عصمنا بالوحي عن حرية الضلال

الله عز وجل خلق الخلق، وأنزل كتبه، وأرسل رسله، ليعصم الخلق من أسباب الضلال، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [التوبة: ١١٥]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله(١): «يعني أن الله تعالى إذا منّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يُتمّم عليهم إحسانه، ويبيّن لهم جميع ما يحتاجون إليه وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه».

وذكر شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله في فوائد الآيات الآمرة بلزوم شرعه وطاعته(٢): «يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله ﷺ، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٩٤

(٢) الكنز الثمين في تفسير ابن عثيمين (٦/ ٤١٥-٤١٦)

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات».

فالمرخصون لأهل الضلال لحرياتهم المذمومة هم في الحقيقة دعاة لإصرار الكفار وأهل المعاصي على كفرهم وضلالهم.





اتفاق الشرائع على محاسن الأعمال والأقوال دال على تحريم الحرية المذمومة

لا يرتاب عاقل في أن شرائع الله ومللـه كلها جاءت بالحثّ على محاسن الأعمال والأخلاق والأقوال، وذلك دال قطعا على تحريم الحرية المذمومة في الأقوال والأفعال فضلا عن الاعتقادات، فإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ماشئت[1].

فالترخيص للناس أن يقولوا ما شاءوا ويفعلوا ما شاءوا خارج عن كل الشرائع، لا يرّخص فيه من يعرف سنة الله في خلقه منذ خلق آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهذا ليس من شريعة إبراهيم ولا موسى وعيسى ومحمد ولا أحد من النبيين عليهم السلام، قال موسى عليه السلام: لأخيه هارون ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤٢].

فمن ظن أن الشرائع اتفقت فقط على عقيدة التوحيد وأركان الإسلام لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦]، فهو مخطيء، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ

(١) رواه البخاري كتاب الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت (ص١٠٦٧ - رقم ٦١٢٠)

يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠]، فالفواحش لا يأذن الله بها، والمنكر كذلك من الأقوال والأفعال.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣]، فهذا ميثاق الله مع الأمم السابقة وهو ميثاق لنا أيضا وهو دال دلالة صريحة على وجوب التكلم بالحق وبالحسنى، والتحذير من كل سوء، فكيف يقول طارق سويدان: قل ما شئت، ما عندي مشكلة؟!!

والله عز وجل نعت القرآن بأنه: ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩]، وهكذا ينبغي أن نهدي الخلق للتي هي أقوم، لا أن نرخص لهم في الحريات المذمومة، وكذلك نعت الله كتبه التي أنزلها على موسى وعيسى عليهما السلام قبل أن يصيبها التغيير و التبديل بأنها هدى ونور، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، فالفساد لا يرضى الله في تشريعه في أي زمان ومكان، لأنه مفسدة محضة، فالترخيص به بدعوى الحرية قول خارج عن هدي المرسلين عليهم السلام جميعا.

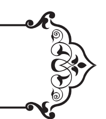
ومما يدل على اتفاق الشرائع على تحقيق التوحيد والأمر بمكارم الأخلاق والنهي عن النقائص وسفاسف الأقوال، قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ لَوۡلَآ أُوتِيَ مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓۚ أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۖ قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلّٖ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبٖ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ أَتَّبِعۡهُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٤٨ - ٥٠]، قال ابن عطية الأندلسي رحمه الله[١]: «الآية هذه حجة أمره الله تعالى أن يصدع بها، أي: أنتم أيها المكذبون بهذه الكتب التي قد تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق ونهت عن الكفر والنقائص، ووعد الله تعالى مع ذلك الثواب عليها الجزيل إن كان تكذيبهم لمعنى وبحال صحة فاءتوا بكتاب من عند الله يهدي أكثر من هدي هذه اتبعه معكم، ثم قال تعالى: فان لم يستجيبوا لك وهو قد علم أنهم لا يستجيبون على معنى الإيضاح لفساد حالهم، وسياق القياس البيّن لأنهم متبعون لأهوائهم، ثم عجب تعالى من ضلال من يتبع هواه بغير هداية ولغير مقصد نيّر، وقرر على ذلك على جهة البيان أي لا أحد أضل منه».

فالكافرون ضالون يسيرون في طريق ضلالة بلا قصد، أفعاقل يقول: إن هذا مرخّص لهم بدعوى الحرية؟!!.

* * *

(١) المحرر الوجيز (١٢/ ١٧٢)

يهلكون أنفسهم بحرياتهم الفاسدة

الله خلق جوارح الإنسـان ليسـتعملها في طاعته، فإذا استعمل جوارحه فـي الكفـر باللـه ومحادته وركـوب أنواع الشـرور مـن الأقـوال والأفعال والاعتقـادات بدعـوى الحريـة فإنه يسـارع إلى إهلاك نفسـه وإتـلا فها لا إسعادها وإمتاعها كما يتوهم.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ٦٣﴾ [الزمر: ٦٣]، قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[1]: «خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسـن من إشغالها بذكر الله، وما تصلـح به الجوارح من طاعـة الله، وتعوّضوا عن ذلك كل مفسـد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوّضوا عنها بالعذاب الأليم».

وكذلـك مـا ينفقه الكافـر في غير مرضات الله وبال وشـر عليه، قال تعالـى: فـي شـأن الكافـر ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ٦﴾ [البلـد: ٥ - ٦].

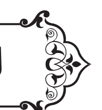
قال العلامة عبدالرحمن السـعدي رحمه الله[2]: «﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾: ويطغـى ويفتخـر بمـا أنفق مـن الأمـوال على شـهوات نفسـه، فيقول ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾؛ أي: كثيـرا، بعضـه فوق بعض، وسـمى الله تعالى

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٨٦١
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص١٠٩٢

الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكا، لأنه لا ينفع المنفق بما أنفق، ولا يعود إليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق، قال الله متوعداً هذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾[البلد: ٧]، أي: أيظن في فعله هذا أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟!

بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر».



الله يريد لهم الحياة والعلمانيون يريدون لهم الموت

روح الذات هذه يستوي فيه المسلم والكافر، والإنسان والحيوان، والحد الفاصل بين البهيمة والإنسان روح الهدى والإيمان، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢]، قال ابن القيم رحمه الله[١]: «من كان ميّت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيابها بدنه، وهي روح معرفته وتوحيده ومحبته وعبادته وحده لا شريك له، إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت، فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وسمى وحيه روحا لما يحصل به من حياة القلوب والأرواح، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

فأخبر أنه «روح» تحصل به الحياة، وأنه «نور»، تحصل به الإضاءة، وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥].

---

(١) بدائع التفسير (٢/ ١٧٩-١٨٠)

فالوحي حياة الروح، كما أن الروح حياة البدن، ولهذا من فقد هذه الروح فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا: فحياته حياة البهائم، وله المعيشة الضنك، وأما في الآخرة فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا».

وتدبّر معاني القرآن تجده يوقظ الغافلين عن معنى الحياة، قال تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم: ١٩].

قال الحافظ محمد بن علي الكرجي رحمه الله[١]: «وفي تسمية الكافر بالميت دليل على إجازة الإفراط في ذم الإنسان ومدحه بما يكون ظاهره خلاف باطنه، ولا يكون كذبا.

وبيان على أن الإرادة في تسميته بالميت زوال منفعة الحياة التي تنجيه عنه، وإن كان ذا روح.

وتسمية المؤمن بالحي مدح له، حيث كان بضد الكافر من المسارعة إلى الإيمان، وما ينجيه من عذاب الرحمن، لأنه ذو روح».

وانظر كيف سمى الله أوامره ونواهيه وتكاليفه حياة، فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال

---

(١) نكت القرآن الدالة على البيان (٣/ ٦٠٦)

القاضـي أبـو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ[1]: «قولـه تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: ليس يريـد به حياة المشـاهد والأجسـام، وإنما يريـد به حياة المعانـي والقلوب بالإفهـام بدعائـه إياهـم إلى الإسـلام والقرآن والحـق والجهـاد، والطاعة والألفـة، وقيل: المـراد به لما يحييكم في الآخرة الحيـاة الدائمة في النعيم المقيم».



(١) أحكام القرآن (٢/ ٨٤٥)

الباب الثالث

كشف الشبهات

لكم دينكم ولي دين

من الشبهات التي يتعلق بها من رخّص في حرية الكفر قوله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: ٦]، وهذا لا متعلق لهم فيه، فليس معنى الآية اقرار الكافرين على كفرهم، وإنما فيه البراءة من كفرهم وأننا لا نشاركهم كفرهم، ولذلك سميت هذه السورة بالبراءة من الشرك.

قال ابن القيم رحمه الله[(١)]: «إن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه، هل هو إقرار فيكون منسوخا أو مخصوصا؟ أولا نسخ في الآية ولا تخصيص؟ فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة، وقد غلط في السورة خلائق وظنوا أنها منسوخة بآية السيف، لاعتقادهم أن هذه الآية إقتضت التقرير لهم على دنيهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة عمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد التي اتفقت عليها دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم، ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: منسوخ، وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار وهم من لا كتاب لهم، فقالوا:

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٤٨-٢٤٩)

هـذا مخصوص، ومعـاذ الله أن تكون الآيـة اقتضت تقريرا لهـم، أو إقراراً علـى دينهـم أبدا، بل لم يزل رسـول اللـه ﷺ في أول الأمر وأشـده عليه وعلى أصحابه، أشد على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنهي عنه والتهديد لهم، والوعيد كل وقت، وفي كل ناد.

وقـد سـألوه أن يكف عن ذكـر آلهتهم، وعيب دينهم، ويتركونه وشـأنه، فأبـي إلا مضيـا علـى الإنكار عليهـم وعيب دينهـم، فيكف يقـال: إن الآية اقتضت تقريره لهم؟!

معاذ الله من هذا الزعم الباطل، وإنما الآية اقتضت البراءة المحضة كما تقـدم، وأن ما هم عليـه من الدين لا أوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل، فهو مختص بكم لا نشـرككم فيه، ولا أنتم تشـركوننا في ديننا الحق، فهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار حتى يدعى النسخ أو التخصيص؟

أفتـرى إذا جوهـدوا بالسـيف كما جوهـدوا بالحجة، لا يصـح أن يقال لهـم: لكـم دينكم ولي ديـن، بل هذه أيـة قائمة محكمة ثابتة بيـن المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

وكذلـك حكـم هـذه البراءه بيـن أتباع الرسـول ﷺ، وبين أهـل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سـنته، إذا قال لهم خلفاء الرسـول

ورثته: لكم دينكم ولنا ديننا، لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذا براءة منها، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم، ولجهادهم بحسب الإمكان».

وقال العلامة محمود شاكر رحمه الله[1]: «وهو ﷺ لم يدع المشركين إلى المتاركة، فيدع لهم ملتهم التي هم عليها، ويدعوا له ملته التي هو عليها.

ولو كان الأمر أمر متاركة، لكان ضربا من الإقرار لما هم عليه، ولم يكن لدعوته إياهم إلى اتباعه معنى يعقل، وإنما أمر أن يقول للكافرين ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾﴾ [الكافرون: ١ - ٤]، فهو بهذه الآيات يبرأ أن يكون متوجها بطاعته وخضوعه إلى ما يتوجهون له بالطاعة والخضوع، فهما ليسا سواءً، فهو يقيم وجهه بالطاعة والخضوع لله وحده سبحانه، وهم يتوجهون إلى ما لا يعقل من أصنامهم وأوثانهم، وإن زعموا أنهم إنما يتوجهون إليها، ليتقربوا بها إلى الله.

فأمر ﷺ أن يقول لهم: لكم سيرتكم التي سرتم عليها في التوجه للأصنام، مع زعمكم أنها تقربكم إلى الله زلفى، ولي سيرتي إلى الله وحدي في بعبادته سبحانه، فأنتم بريئون بشرككم مما أعبد، وأنا بريء مما تعبدون».

* * *

(١) أباطيل وأسمار ص٤٣٥



لا إكراه في الدين

ومـن الشـبهات التي تعلق بها السـويدان في الترخيص فـي حرية الكفر قولة تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وهذا شـأن من يأخذ الآية مقطوعـة عن سـائر الآيـات ذات الصلة، وهـو من أوضح طرائـق ومناهج أهـل الزيغ المبتدعين، وبذلك ضلـت الخوارج وغيرهم، فلا يجوز إجتزاء نصوص الوحي، فالواجب جمع النصوص جميعا في الموضوع الواحد.

وعن ذلك جوابان:

الأول: قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٣]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ، ويقيمـوا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال: «إنـك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكـن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجـل، فـإذا عرفوا الله، فأخبرهم أن الله فـرض عليهم خمس صلوات من يومهم وليلتهم»[2].

---

(١) رواه البخاري كتاب الإيمان باب فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم (ص٧ – رقم ٢٥)، ومسلم كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (ص ٣٣ – رقم ١٢٩)

(٢) رواه البخاري كتاب المغازي باب بعث أبي موسى إلى اليمن قبل حجة الوداع (ص٧٣٦ – رقم ٤٣٤٧)، ورواه مسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (ص ٣١ – رقم ١٢١)

فإذا قبل الكافر الإسلام بالحوار وفهم القرآن فهذا أول ما يتدرج معه، وهكذا حصل لأهل المدينة، فإن الأوس والخزرج قبلوا الإسلام طوعا، فالمدينة فتحت بالقرآن.

أما إن كان الكافر مضارا بنفسه ساع في هلاكها، ماضيا في كفره، معرضا عن النظر في الإسلام ومحاسنه، فإننا نقوّم إعوجاجه بالسيف لمصلحته، فيكون كالدواء المر يكرهه الكافر وفيه إنقاذه من الهلاك.

فالكافر إذا كان مقيما على كفره سائرا في طريق النار والهلاك فإن جذبه بقوة لإنقاذه من النار هذا مما يمدح به الإسلام، وهو مصلحة محضة للمدعوين للإسلام، وأيضا في هذا منع لنشره الكفر في الأرض.

ومن المعلوم من أحوال الخلق أن الإرادة رغبة ورهبة ولذلك أنزل الله الكتاب والحديد ليقوم الناس بالتوحيد والحق والقسط، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٥].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[١]: «وكذلك قهر المسلمين لعدوهم بالأسر يدعوهم إلى النظر في محاسن الإسلام.

(١) جامع الرسائل (١/ ٢٣٨)، تحقيق: د. محمد رشاد سالم

فللرغبة والرهبة تأثير عظيم في معاونة الاعتقاد، كما للإعتقاد تأثير عظيم في الفعل والترك، فكل واحد من العلم والعمل، من الاعتقاد والإرادة يتعاونان.

فالعلم والاعتقاد يدعو إلى العمل بموجبه، والإرادة رغبة ورهبة، والعمل بموجبها يؤيد النظر والعلم الموافق لتلك الإرادة والعمل».

فجهاد النبي ﷺ وأمته الكفار ليس لحظوظ أنفسهم وأهوائهم، ولو كان الأمر كذلك لأباد خضراءهم، ولكن من لا يعرف مصلحة نفسه ويرمي بها في نار جهنم فإن النبي ﷺ تعامل معه بالأخف فالأخف، ينصح الكافرين بالكلمة الطيبة ليبعدهم عن النار فإن أبوا وأصروا على تقحمها استعمل معهم من القوة ما يكون سببا في حجزهم عن نار جهنم.

وجهاد الكفار بالسيف لمصلحة أنفسهم أهون لهم من عذاب الله إذا نزل بهم بسبب كفرهم ومداومتهم عليه، قال الحافظ البغوي رحمه الله[1]: «هو مبعوث بالرحمة، كما ذكر، وكما أخبر الله سبحانه وتعالى، وذلك أن الله سبحانه وتعالى بعث الأنبياء عليهم السلام وأيدّهم بالمعجزات، فمن أنكر من تلك الأمم الحق بعد الحجة والمعجزة عذبوا بالهلاك والاستئصال، ولكن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بجهادهم بالسيف ليرتدعوا عن الكفر، ولم

(١) شرح السنة (١٣/ ٢١٤)

يجتاحوا بالسيف، فإن للسيف بقية، وليس مع العذاب المنزل بقية، وقد روي أن قوما من العرب قالوا: يارسول الله! أفنانا السيف، فقال: «ذلك أبقى لآخركم»، فهذا معنى الرحمة المبعوث بها ذكره الخطابي.

قلت: ومما يؤيد ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن الله سبحانه وتعالى بعث إليه ملك الجبال، فقال: إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال رسول الله ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلا بهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»».

وعود على استدلال السويدان وغيره على حرية الكفر بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ٢٥٦﴾ [البقرة: ٢٥٦]، نقول إنه لا دليل فيه في الترخيص في الكفر، فمعني الآية أن العبد غير مكره ولا مجبر على فعله، لأن له قدرة تامة وإرادة جازمة يختار بها فعله، ومن ذلك الإيمان بالله أو الكفر به، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، ولذلك يؤاخذه الله على فعله وكفره، وليس فيه ترخيص في الكفر، وكيف يكون فيه ترخيص في الكفر وفي تمام سياق الآية تهديد ووعيد لمن كفر، قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٦ - ٢٥٧].

فمن جعل الله عاقبته الخلود في النار فكيف يقال في حقه إنه حر في هذا الفعل، والآيات ذات الموضوع كلها دالة على هذا ومقررة أن لا رخصة ولا حرية في الكفر لذلك يعاقب من كفر بالخلود في نار جهنم، قال تعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ ﴾[لقمان: ٢٣ – ٢٤].

الثاني: قال العلامة عبدالرحمن السعدي رَحِمَهُ اللَّهُ[١]: «هذا بيان لكمال هذا الدين الإسلامي، وأنه لكمال براهينه، واتضاح آياته وكونه هو دين العقل والعلم ودين الفطرة والحكمة ودين الصلاح والإصلاح ودين الحق والرشد، فلكماله وقبول الفطر له لا يحتاج إلى الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين ورده ولم يقبله فإنه لعناده، فإنه ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة إذا ردّه ولم يقبله.

ولا منافاة بين هذا المعنى وبين الآيات الكثيرة الموجبة للجهاد، فإن الله أمر بالقتال بنشر الإسلام وليكون الدين كله لله، ولدفع اعتداء المعتدين على الدين، وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماض مع البر والفاجر، وأنه من الفروض المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي، ومن ظن من المفسرين أن هذه الآية تنافي آيات الجهاد فجزم بأنها منسوخة، فقوله ضعيف لفظا ومعنى كما هو واضح بيّن لمن تدبّر الآية الكريمة كما نبّهنا عليه.

(١) تيسير الكريم الرحمن ص١١٢

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين: قسم آمن بالله وحده لا شريك له، وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي الإيمان بالله من الشرك وغيره - فهذا قد ﴿ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾، التي لا إنفصام لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح حتى يصل به إلى الله وإلي دار كرامته.

ويؤخذ القسم الثاني من مفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل كفربه وآمن بالطاغوت فإنه هالك هلاكا أبديا ومعذب عذابا سرمديا».

فاحذر أيها المسلم من أن يشغب بك الكافرون بتهويلهم ضد تشريع الجهاد، فإن النصارى استخدموا هذا التهويل للتنفير عن دين الإسلام، وصاروا يعيبون به المسلمين في فتوحهم الأمصار وإدخالها في الإسلام، قال ابن القيم رحمه الله(١): «والنصارى تعيب من يقاتل الكفار بالسيف، وفيهم من يجعل هذا من أسباب التنفير عن محمد ﷺ، ولجهلهم وضلالهم لا يعلمون أن موسى عليه السلام قاتل الكفار، وبعده يوشع بن نون، وبعده داود وسليمان عليهما السلام وغيرهم من الأنبياء، وقبلهم إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

فجهادنا هدفه عظيم ومقصده من أسمى المقاصد، وهو أن يكون الدين لله، والثاني الرحمة بالكافرين بإنقاذهم من النار والعذاب الأخروى

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ص٧٣

المقيم، قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وجاء في الإنجيل في شأن عيسى عليه السلام ما ينقمونه على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من الجهاد بالسيف، فلماذا يتناقض النصارى؟ هل هو محض عناد، أو مضادة للحق؟

قال العلامة رحمة الله العثماني الهندي رحمه الله (ت:١٣٠٨هـ): «في الباب العاشر من إنجيل متّى، هكذا: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاما على الأرض، ماجئت لألقي سلاما، بل سيفا»».

فإما أن يقول النصارى: هذا مما حُرِّف من الإنجيل، وفي هذا تقرير لحاجتهم إلى كتابنا غير المبدّل، وإما أن يقروا به فيكون وفق معيارهم المسيح عيسى ابن مريم متطرفا، وحاشاه من ذلك!

ونحن لا نطعن في نبي الله عيسى عليه السلام من باب المراغمة، بل نوقر رسل الله جميعا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ١٥٠ - ١٥١].

❊ ❊ ❊



ذكر القرآن مقالات الكافرين

وهذا اسـتدلال السويدان لترخيصه في حرية الكفر بأن الله ذكر مقالات الكافرين في القرآن، خبال واستدلال الجهال، وشغب أهل الزيغ والضلال، فإن الله لما ذكر مقالات الكافرين ذكر أنها سبب هلاكهم، وأن الله أنزل بهم العقوبات والمثلات بسـبب حرياتهم الكافرة، والله عز وجل ذكر مقالات الكافريـن التـي عارضوا بها الوحي وقت نزولـه على نبينا محمد ﷺ من أصناف وأنواع الكافرين، سـواء من كان منهم من كفار قريش، أو يهود المدينـة وخيبـر، أو نصـارى نجران، أو غيرهـم من الكفـرة الملحدين، أو الماديين الدهريين، ليبطلها، وليبيّن للخلق أجمعين أن الكافرين لا يأتمون بشـيء، ولا يتعلقـون ببرهـان ولا دليـل، وإنمـا هـو محـض عناد وشـغب وتهافتات من تلبيس الشـيطان وزخرفته وغروره، ثـم لما تمايزت صفوف المؤمنيـن من الكافرين، وظهر الحـق ظهورا واضحا عرفته الإنس والجن، ودخل الناس في دين الله أفواجا أمر الله المؤمنين بلزوم الحق والإعراض عـن الكافريـن لأن عناد الكافريـن لا حد له ينتهـى إليه، ولا يضيـع الزمان بمجـاراة المعاندين، قـال تعالـى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٥].

قال أبـو عبدالله القرطبـي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]: «لأن البراهين قد ظهرت، والحجج قد قامت، فلم يبق إلا العناد، وبعد لا حجة ولا جدال».

وقال شـيخ الإسـلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢]: «ومما ينبغي أن يعلم أن الله إذا أرسل نبيا وأتى بآية دالة على صدقه قامت بها الحجة، وظهرت بها المحجة، فمن طالبهم بآية ثانية لم تجب إجابته إلى ذلك، بل وقد لا ينبغي ذلك، لأنه إذا جـاء بآيـة ثانية طولـب بثالثة، وإذا جـاء بثالثة طولب برابعـة، فإن طلب المتعنتين لا أمد له، ومعلوم أن من قامت عليه حجة بيّنة في مسـألة علم أو حـق مـن حقوق العباد التـي يتخاصمون فيها لو قال: أنـا لا أقبل حتى تقوم عليـه حجـة ثانية وثالثة كان ظالما متعديا، ولـم تجـب إجابته إلى ذلك، ولا يمكّن الحكام الخصوم من ذلك، بل إذا قامت البيّنة بحق المدعي حكم له بذلك ولو قال المطلوب أريد بيّنة ثانية وثالثة ورابعة لم يجب إلى ذلك».

وقـال العلامـة عبدالرحمـن السـعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣]: «إذا تبيّـن الحـق بأدلتـه اليقينيـة لـم يلزم الإتيان بأجوبة الشـبه الـواردة عليه، لأنه لا حـد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافى الحق الواضح، فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع».

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ١٤)
(٢) الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح (٤/ ٢٧٥)
(٣) تيسير الكريم الرحمن (١/ ١١٠)

وإذا عرفت هذا فإنه لابد من تذكر أن الكافرين والمبطلين إذا وقفوا على ضلال عقيدتهم تمنّوا لو لم يتكلموا بالكفر والضلال، وودّوا لو كانوا في جهة الحق والإسلام، قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝١ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢﴾[الحجر: ١ - ٢]، فلا يجوز لنا أن نترك الناس ينطلقوا من نقطة الضلال، وندع الناس يكفرون ويشركون ثم يفارق أكثرهم الدنيا وهم كفار، بل الواجب أن نأخذ بأيدي الناس إلى طريق الحق ولا نهدر تحذير القرآن لضلال الكافرين.

والله يفعل ما يريد، ونحن نفعل ما يشرع الله لنا ﴿لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ۝٢٣﴾[الأنبياء: ٢٣]، فالله عز وجل ذكر مقالات الكافرين ليبطلها، وليعلمنا كيف ندفع شبهات الضالين، لا لنذيعها في الخلق فتضر المجتمع والأفراد.

قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «ولو شاء ربنا لكفّهم عن هذه المقالات، وإذ أطلقها على ألسنتهم فقد نصّ كيف تنقض أقوالهم، حسبما تقرر من الأدلة ومن كيفية استعمالها في كتابه وعلى لسان رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

وقال العلامة ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: «وقد شحن الله كتبه الكريمة بكثير من شبه أعدائه الكفرة الفجرة، وأورد شنيع ألفاظهم وصريحها، ومنكرها وقبيحها، ليرد عليهم مقالتهم، ويعلم المؤمنين معاملتهم».

---

(١) العواصم من القواصم ص ١١٠
(٢) العواصم والقواصم (١/ ١٧٠)

فإن قلت إن ما ذكره الله في القرآن من مقالات الكافرين في أقوام مضوا، وشبه الكافرين اليوم ربما إختلفت عن أولئك؟ فالجواب أن أجوبة القرآن على شبهات الكافرين مع تقريره لحقائق التوحيد والإيمان وبيانه لشرائع الإسلام متضمنة للجواب عن كل شبهة يمكن أن يوردها أي مبطل، ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1]: «فالصحابة كانوا يعلمون ماجاء به الرسول ﷺ، وفيما جاء به بيان الحجة على بطلان كفر كل كافر، وبيان ذلك بقياس صحيح أحق وأحسن بيانا من مقاييس أولئك الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، أخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاءه الله بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيرا وكشفا وإيضاحا للحق من قياسهم».

فذكر الله لشبه الكافرين المقصود منه بيان سقوطها وظهور ضعفها، وفيه تعليم للمؤمنين كيفية نقض شبهات المعارضين لنور الوحي والإيمان، وليس مقصود ربنا حرية الضلال والترخيص في الكفر، وهو الذي نهى عنه.

قال العلامة عبدالرحمن السعدي رحمه الله[2]: «أهل الشر والفساد نوعان: أحدهما: المبطلون في عقائدهم وأديانهم ومذاهبهم الذين يدعون إليها،

(١) نقص المنطق ص٨٩-٩٠

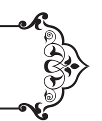
(٢) القواعد الحسان لتفسير القرآن ص٢٢٢-٢٢٣

ففي القرآن من الاحتجاج على هؤلاء وإقامة الحجج والبراهين على فساد أقوالهم شيء كثير، لا يأتي مبطل بقول إلا وفي القرآن بيانه بالحق الواضح والبرهان الجلي، ففيه الرد على جميع المبطلين من الدهريين والماديين والمعطلين والمشركين والمتمسكين بالأديان المبدلة والمنسوخة من اليهود والنصارى والأميين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: ٣٣]، يذكر الله حجج هؤلاء، ونقضها، ويبدي من الأساليب المتنوعة في إفسادها ما هو معروف».

فلا حجة لأحد في الترخيص لحرية الكفر والشرك بدعوى أن الله ذكر مقالاتهم في القرآن، فإن الله ذكرها ليبطلها لا لإقرارها كما قال شيخنا العلامة محمد العثيمين رحمه الله(١)، ناهيك أن الله بعد أن أبطلها أمرهم بالانتهاء عن ضلالاتهم ومقالاتهم الكفرية والشركية، قال تعالى للنصارى: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ۚ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۖ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ ۚ ﴿١٧١﴾﴾ [النساء: ١٧١].

* * *

(١) تفسير سورة الصافات ص ٢٩٤

فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر

طارق السويدان تجاوز مرحلة إجتزاء الأدلة ذات الموضوع الواحد لترويج ضلاله إلى مرحلة إجتزاء الآية الواحدة عن تتمتها التي تبيّن معناها، وهذا من أسباب ضلاله وإضلاله للخلق، فقد استدل بقوله تعالى:﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾﴾[الكهف: ٢٩]، وكان واجبه أن يقرأ الآية تامة ويتدبّر معناها، قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾[الكهف: ٢٩]. فهذه الآية ليس فيها تخيير يين الإيمان والكفر، بل فيه تهديد ووعيد لمن كفر.

قال أبو جعفر الطبري رحمه الله[(١)]: «وليس هذا بإطلاق من الله الكفر لمن شاء، والإيمان لمن أراد، وإنما هو تهديد ووعيد، فقد بيّن أن ذلك كذلك قوله ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا﴾، والآيات بعدها».

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله[(٢)]: «هذا من باب التهديد والوعيد، ولهذا قال ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا﴾، أي: أرصدنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾، وهم الكافرون بالله ورسوله وكتابه ﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾، أي سورها».

❊ ❊ ❊

(١) جامع البيان (١٥/ ٢٤٤)
(٢) تفسير القرآن العظيم ص٨٢٦

إنكار حد الردة

السويدان كاد الإسلام ومكر بعقيدته وسعى في هدم حصون الإسلام من الداخل وزلزلة أركانه وحقائقه، فلم يكتف بدعوته الضالة لأن يقول الناس ما شاءوا، ويعبدوا ما شاءوا، بل قال بحماية الشرك وتسويغ الردة، وشنّ الغارة على الأحاديث والآيات الواردة في عقوبة المرتدين، فقال السويدان «عشرات الأيات القرآنية تؤكد الحرية المطلقة في الدخول في الدين والخروج منه»، وقال «إن القرآن ليس فيه بيان شاف لحكم الردة»، وقال «إن أحاديث الردة أغلبها معلول سندا أو متنا»[1].

وضلال السويدان الذي تفوّه به محض افتراء على الله ورسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ۝١١٦﴾ [النحل: ١١٦]، فالآيات واضحة صريحة في الزجر والنهي عن الكفر ابتداء، وعن الكفر بعد إيمان، وهو أقبح وأشنع، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ۝٥٤﴾ [المائدة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾ [آل عمران: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢١٧﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

(١) صحيفة الوطن الكويتية، ١٩/ ٥/ ٢٠١٢م

والسنة جاءت مبيّنة وموضحة لأحكام المرتدين، وأحاديثها متفق عليها في الصحيحين، وليست معلولة سندًا أو متنا كما يفتري السويدان.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه ومعاذ بن جبل رضي الله عنهما إلى اليمن، ولما قدم معاذ على أبي موسى رضي الله عنهما ألقى له وسادة، وقال: انزل، فإذا رجل عنده موثّق، قال: ما هذا؟

قال: كان يهوديا فأسلم ثم تهوّد، قال: اجلس، قال: لا أجلس حتى يقتل، قضاء الله ورسوله «ثلاث مرات يكررها»، فأمربه فقتل[١].

فهذا حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وفهم وعمل الصحابة، لا كما يقول الزائغ السويدان.

وإجماع الصحابة منعقد على قتال المرتدين في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر رضي الله عنه، وكفر من كفر من العرب، قال عمر رضي الله عنه: يا أبا بكر! كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا: لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن

(١) رواه البخاري كتاب استتابة المرتدين باب حكم المرتد (ص ١١٩٣ - رقم ٦٩٢٣)، ومسلم كتاب الإمارة باب النهي عن طلب الإمارة (ص ٨١٨ - رقم ٤٧١٨)

قال: لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله[(٢)]: «**اتفق الصحابة على قتال من جحد الزكاة**»، فالصحابة يجمعون على كفر وقتل المرتدين فإجماع الصحابة السابق حجة على كل من خالفهم من بعدهم لو قدر وجوده، فالصحابة رضي الله عنهم هم الجماعة، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥**﴾.[النساء: ١١٥].

فالمرتد يقتل لردته وإن لم يقاتل، أما البغاة المسلمون فإنهم لا يقاتلون إلا إذا بدأوا القتال، وبهذا ينحدر تلبيس السويدان الذي حاول أن يخلط بين أحكام المرتدين والبغاة.

قال الإمام عبدالعزيز بن باز رحمه الله بعد شرحه للعقيدة الإسلامية[(٣)]: «هذه هي العقيدة الإسلامية المحمدية، وقد وقع من بعض الناس قوادح فيها، ونواقض تنقضها يجب أن نبيّنها في هذه الكلمة، والقوادح قسمان: قسم ينقض هذه العقيدة ويُبطلها، فيكون صاحبه كافرا، نعوذ بالله، وقسم ينقص هذه العقيدة ويضعفها، فالأول: يسمى ناقضا، وهو: الذي يبطلها ويفسدها،

---

(١) رواه البخاري كتاب الزكاة باب وحوب الزكاة (ص ٢٢٥ - رقم ١٣٩٩)، ومسلم كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ومحمد رسول الله ويقيموا الصلاة (ص ٣٢ - رقم ١٢٤).

(٢) فتح الباري (١٢/ ٢٧٧)

(٣) مجموع الفتاوى البازية (٨/ ١٣-١٤)، الطبعة الثالثة

ويكون صاحبه كافرا مرتدا عن الإسلام، وهذا النوع هو: القوادح المكفرة، وهي نواقض الإسلام، وهي الموجبة للردة، هذه تسمى نواقض.

والناقض: يكون قولا، ويكون عملا، ويكون اعتقادا، ويكون شكاً.

فقد يرتد الإنسان بقول يقوله أو بعمل يعمله، أو باعتقاد يعتقده، أو بشك يطرأ عليه. هذه الأمور الأربعة كلها يأتي منها الناقض الذي يقدح في العقيدة ويبطلها، وقد ذكرها أهل العلم في كتبهم، وسموا بابها «باب حكم المرتد»، فكل مذهب من مذاهب العلماء، وكل فقيه من الفقهاء ألف كتبا - في الغالب - عندما يذكر الحدود يذكر «باب حكم المرتد»: وهو الذي يكفر بعد الإسلام، ويسمى هذا: مرتدا، يعني: أنه رجع عن دين الله وارتد عنه، قال فيه النبي ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه»، خرّجه البخاري في الصحيح».

فشتان بين السويدان المتعالم الذي يقول عن أحاديث الردة «معلولة سندا أو متنا»، وبين الإمام ابن باز رحمه الله وغيره الذين قطعوا بدلالتها وصحتها.



الخاتمة



الخاتمة

هكـذا انتهى بنا المقام في الرد على القرضاوي والسـويدان، ولا يرتاب مسـلم فـي تهافت دعـوة القرضـاوي والسـويدان فـي تقديـم الحرية على الشـريعة، والقرآن كله رد على هذا الانحـراف والزيغ المهلك والمضعف للأمة الإسلامية لو التزمته.

ذكـرت بعضا من أدلة القرآن والسـنة في الرد عليهمـا اختصارا وتقديما للأهـم وإلا فـإن القرآن كله دال على بطلان دعوة القرضاوي والسـويدان، وهذا يعرفه كل مسلم يعقل سبب إرسال الرسل وإنزال الكتب.

ولا يعجب مسـلم من زيغ المبتدعين إلى هذه الدرجة خصوصا في هذا الوقت الذي تمالأ أهل الشـر فيه على الإسـلام وتداعوا إلى مسـخ عقيدته وتضييع هويته واحتلال دياره فإن البدع بريد الكفر كما قال السـلف، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإن البدع لا تزال تخرج من صغير إلى كبير حتى تخرجه إلى الإلحاد».

الإسـلام دين وشـرع تكفّل اللـه بحفظه وظهـوره، قال اللـه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩]، وقـال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ

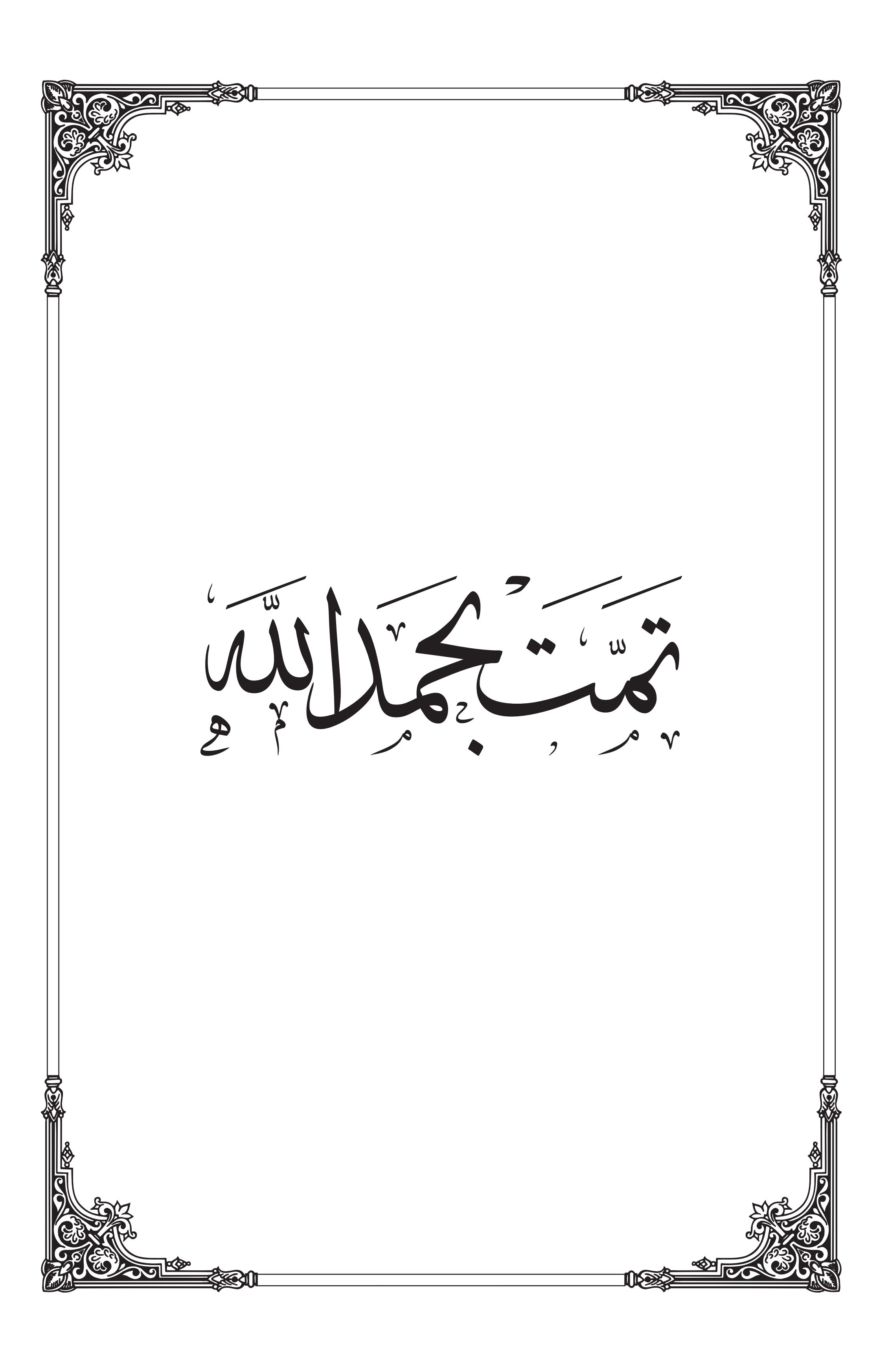
ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [التوبة: ٣٣]، وشأن المؤمن الصادق تقديم شرع الله على العلمانية وكل ملة ونحلة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿١﴾﴾ [الحجرات: ١]. ومن سنن الله عز وجل الكونية أن يقدّر معارضة الحق بأهل الباطل ليبتلي عباده ويميز الخبيث من الصادق، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وكذلك ليستعمل أولياءه في نصرة دينه، فيرفع درجاتهم في الآخرة.

فالمؤمنون الصادقون ينصرون الحق وينصحون للخلق ويقومون بما أوجب الله عليهم من الدفاع عن الإسلام والشريعة ورد زيغ الضالين الذين صاروا طوع أهداف الكفار في مسخ هوية الإسلام وتضييع شرعه.

أيها المسلمون الزموا دينكم فإنه وحي معصوم تنزيل من حكيم حميد، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، شريعة غراء، صدق في الأخبار وعدل في الأحكام، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥]، شريعة أحاطت بكل شيء حكما وعلما، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨].

وهـذا الديـن منصور بإذن الله بعز عزيز أو ذل ذليل كما قال النبي، ونبينا ﷺ أخبر بأن مكة ستبقى دار إسلام إلى يوم القيامة كما جاء في الصحيحين «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»، وفي صحيح مسـلم قال النبي ﷺ : «يأرز الإيمان إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها»، فاثبتوا على شـرع ربكم، واحذروا الزائغين، فسحقا لمن غيّر وبدّل.

والحمد لله رب العالمين


تَمَّتْ بِحَمْدِ اللَّهِ